

# مَزَالِ الشَّاهِدِ الْقُرْآنِيَّةِ

الدكتور عبد العال سالم مكرم

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

الناشر

علاء الكتب

٣٨ شارع عبد الحاق نروت - القاهرة ت. ٣٩٢٦٤٠١

## القرآن الكريم ، علوم

مكرم ، عبدالعال سالم .

التعريب في التراث اللغوي: مقاييسه وعلاماته/ عبدالعال

سالم مكرم . - ط ٢ - القاهرة : عالم الكتب ٢٠٠١ .

٢٣٩ ص ، ٢٤ سم .

يشتمل على ارجاعات بيلوجرافية (ص ٢٣٤ - ٢٣٥)

تدمك: 3 - 229 - 232 - 977

أ - رأس الموضوع

١ - العنوان

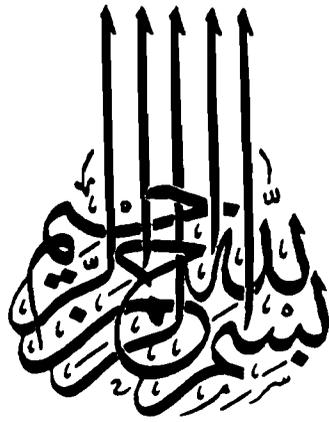
(٢٢٠)

عالم الكتب

الإدارة: ١٦ شارع جواد حسن-القاهرة ت: ٢٩٢٤٦٢٦ فاكس: ٢٧٠٢٧٢٩٢٩

المكتبة: ٢٨ شارع عبد الخالق ثروت-القاهرة ت: ٢٩٥٩٥٣٤-١-٢٩٢٦٤٠١

E.mail: [alamalkotob59@hotmail.com](mailto:alamalkotob59@hotmail.com)



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

## تقديم

هذه بحوث قرآنية، نشرت في مجلات متعددة : بيروت، الكويت، والسعودية،  
والمغرب.

وهي بحوث تقوم على دعامين:

**الدعامة الأولى:** الدفاع عن كتاب الله تبارك وتعالى، وذلك بكشف سموم المستشرقين التي  
يدسّونها في دراساتهم للقرآن الكريم.

**الدعامة الثانية:** خدمة القرآن الكريم في نشر هذه البحوث، وتقديمها للقراء للإفادة منها،  
وبخاصة طلاب الدراسات القرآنية واللغوية.

ولما كانت هذه البحوث متفرقة على صفحات هذه المجلات مما يصعب الحصول عليها،  
والانتفاع بها، والرجوع إليها أحببت أن أجمعها في إطار واحد يتمثل في هذا الكتاب ليتسنى  
للقراء وللطلاب الرجوع إليه، والإفادة منه.

لهذا أرجو أن يكون هذا العمل في ميزاني «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب  
سليم».

**عبد العال سالم مكرم**

٣ من ربيع الأول سنة ١٤٢١ هـ

الموافق ٦ من يونيو سنة ٢٠٠٠ م

زهراء حلوان - ت: ٣٦٩٢٦٧٤

## ١. القراءات السبع والأحرف السبعة(\*)

كثير من المسلمين الذين لم يتخصصوا في الدراسات القرآنية يخلطون بين القراءات السبع والأحرف السبعة، مع أن هناك فرقاً كبيراً بين الأمرين.

من أجل هذا حاولت في هذا البحث الموجز أن أزيل هذا اللبس من أذهان هؤلاء الذين لم تتح لهم ظروفهم أن يلموا بمثل هذه الموضوعات في حقل الدراسة القرآنية من ناحية، وللحفاظ على الدراسة القرآنية من أن يدخل فيها ما ليس منها من ناحية أخرى فأقول:

### ١. الأحرف السبعة:

هذه العبارة كانت موضع جدل ونقاش بين علماء المسلمين إلى يومنا هذا، ومازالت في حاجة إلى المزيد من الدراسات، ذلك لأنها لم تكن عبارة عادية وردت على لسان بعض الصحابة أو التابعين أو بعض الأئمة الذين لمعوا في سماء الدراسة القرآنية.

ولكنها عبارة جديرة بالنظر والبحث، لأنها وردت على لسان من نزل عليه الوحي محمد رسول الله ﷺ .

يحدثنا البخاري فيقول: «حدثنا سعيد بن عفير، قال حدثني الليث، قال حدثني عقيل عن ابن شهاب، قال: حدثني عروة بن الزبير أن المسور بن مخرمة وعبدالرحمن بن القاري حدثاه أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فكادت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم فليته بردائه. فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إنني سمعت هذا يقرأ سورة «الفرقان» على حروف لم تقرئنيها. فقال رسول الله ﷺ: أرسله. اقرأ يا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ. فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، ثم

(\*) السنة الأولى - العدد السابع - جمادى الأولى ١٣٩٠ - تموز ١٩٧٠ مجلة الفكر الإسلامي - بيروت.

قال: اقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التى أقرأنى ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت . إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه» (١).

وقد تواترت رواية هذا الحديث الشريف، فقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده الكبير أن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال يوماً ، وهو على المنبر: أذكر أن رجلاً سمع النبى ﷺ قال : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف لما قام، فقاموا حتى لم يحصوا، فشهدوا أن رسول الله ﷺ قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف، فقال عثمان رضى الله عنه: وأنا أشهد معهم» (٢).

وقد اختلف علماء العربية والإسلام فى هذا الحديث الشريف اختلافاً كبيراً إلى حد أن السيوطى أورد له فى كتابه «الإتقان» أربعين وجهاً (٣).

ونحن لانستطيع أن نعرض هذه الآراء جميعاً للموازنة بينها والوصول إلى الصحيح منها، لأن ذلك يحتاج إلى بحث طويل ، ولكننا نكتفى فى هذا المقام بذكر بعض الآراء للمشهورين من علماء اللغة، والنحو، والقراءات.

### أ- رأى ابن قتيبة:

قال ابن قتيبة : وقد تدبرت وجوه الخلاف فى القراءات فوجدتها سبعة أوجه:

أولها: الاختلاف فى إعراب الكلمة، أو فى حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها فى الكتاب، ولا يغير معناها نحو قول تعالى ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾ (٤). «وهل يُجَازَى إِلَّا الْكُفُورَ».

ثانيها: أن يكون الاختلاف فى إعراب الكلمة، وحركة بنائها بما يغير معناها ولا يزيلها عن صورتها فى الكتاب نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ (٥).، و«رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا».

(١) صحيح البخارى ج ٦ ص ١٨٥، المطبعة الأميرية.

(٢) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ج ١ ص ٢١.

(٣) الإتقان للسيوطى ج ١ ص ٤٥، مطبعة الحلبي.

(٤) سبأ: ١٩.

(٥) سبأ: ١٧.

ثالثها: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتاب ، ولا يغير معناها، نحو قوله تعالى ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً﴾<sup>(١)</sup> و﴿زَيْتَةً وَاحِدَةً﴾، و﴿وَالصُّوفِ الْمُنْفُوشِ﴾، و﴿كَالْمُهْنِ﴾<sup>(٢)</sup>.

رابعها: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها نحو قوله تعالى ﴿وَوَطَّلِعُ مَنَّوُودًا﴾ في موضع «وَوَطَّلِعُ مَنَّوُودًا»<sup>(٣)</sup>.

خامسها: أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ولا يزيل صورتها، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾<sup>(٤)</sup>. و﴿نُنشِزُهَا﴾.

سادسها: أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير نحو قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ﴾ في موضع «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ»<sup>(٥)</sup>.

سابعها: أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمَلَتْ أَيْدِيهِمْ﴾<sup>(٦)</sup> و﴿وَمَا عَمَلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾<sup>(٧)</sup>.

### رأى ابن قتيبة بين المؤيدين والمعارضين:

من المؤيدين لابن قتيبة : الشيخ محمد بخيت الطبعي حيث رد على ابن عبد البر الذي أنكر أن يكون معنى الأحرف اللغات لاختلاف عمر وهشام، ولغتهما واحدة.

قال الشيخ بخيت : «وأقول : إن معنى نزوله باللغات المذكورة هو أن الله أذن بقراءته بكل لغة ، فلا مانع أن هشاماً يقرأ ببلغة أخرى غير لغة قريش أيضاً. فيكون قد تعلم من النبي ﷺ القراءة ببلغة قريش ، وبلغة غيره»<sup>(٨)</sup>.

(١) يس: ٢٩. (٢) القارعة: ٥.

(٣) الواقعة: ٢٩. (٤) البقرة: ٢٥٩.

(٥) ق: ١٩. (٦) يس: ٣٥.

(٧) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ص ٢٨، ٢٩: تلخيص وتصرف.

(٨) الكلمات الحسان في الحروف السبعة ص ٥٩: الشيخ محمد بخيت الطبعي مفني الديار المصرية سابقاً.

ومن المؤيدين لابن قتيبة الدكتور إبراهيم أنيس لأنه استدل برأى ابن قتيبة في أن المراد بالأحرف اللغات قال : «وقال ابن قتيبة في كتابه «المشكل» : «فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه ﷺ بأن يقرىء كل أمة بلغتهم وما جرت عليه عاداتهم، فالهذلي يقرأ: عنى حين، والأسدي يقرأ «تعلمون» بكسر التاء، والتميمي يهمز، والقرشي لا يهمز»<sup>(١)</sup>.

ومن المعارضين لرأى ابن قتيبة ابن عبد البر:

قال ابن عبد البر: «أنكر أكثر أهل العلم أن يكون معنى الأحرف اللغات لما تقدم من اختلاف هشام وعمر، ولغتهما واحدة»<sup>(٢)</sup>.

وفي رأى ابن عبد البر أن المراد بالأحرف السبعة «سبعة أوجه من المعاني المتفقة بالألفاظ المختلفة نحو: أقبل - وهلم - وتعال»<sup>(٣)</sup>.

وأراد ابن حجر أن يوفق بين الرأيين: رأى ابن قتيبة، ورأى ابن عبد البر فقال: «ويمكن الجمع بين القولين بأن يكون المراد بالأحرف تغاير الألفاظ مع اتفاق المعنى مع انحصار ذلك في سبع لغات»<sup>(٤)</sup>.

### ب- رأى الطبري:

يقول ابو جعفر بعد عرضه للأحاديث الشريفة في نزول القرآن على سبعة أحرف: «صحّ وثبت أن الذي نزل به القرآن من ألسن العرب البعض منها دون الجميع إذ كان معلوماً أن ألسنتها ولغاتها أكثر من سبعة بما يعجز عن إحصائه.

فإن قال : وما برهانك على أن معنى قول النبي ﷺ : أنزل القرآن على سبعة أحرف، وقوله: أمرت أن اقرأ القرآن على سبعة أحرف، هو ما ادعيته من أنه نزل بسبع لغات، وأمر

(١) اللهجات العربية ص ٢٨ الدكتور إبراهيم أنيس.

(٢) لطائف الإشارات في علم القراءات لشهاب الدين القسطلاني، ورقة ٩، مخطوط رقم ١٦١ - دار الكتب - قراءات.

(٣) المرجع نفسه والصفحة.

(٤) المرجع نفسه والصفحة.

بقراءته على سبعة ألسن دون أن يكون معناه ما قاله مخالفوك من أنه نزل بأمر وزجر، وترغيب، وترهيب، وقصص، ومثل ، ونحو ذلك من الأقوال، فقد علمت أن قائل ذلك من سلف الأمة، وخيار الأئمة<sup>(١)</sup>؟.

ويجيب الطبرى عن هذا الاعتراض بقوله: «إن عمر بن الخطاب، وعبدالله بن مسعود وأبى بن كعب تماروا فى القرآن، فخالف بعضهم بعضاً فى نفس التلاوة دون باقى ذلك من المعانى، ثم احتكموا فيها إلى النبى ﷺ، فاستقرأ كل رجل منهم، ثم صوّب جميعهم فى قراءاتهم على اختلافها.

ثم قال: ومعلوم أن تماريهم فيما تماروا فيه من ذلك لو كان تمارياً واختلافاً فيما دلت عليه تلاواتهم من التحليل والتحرير، والوعد والوعيد، وما أشبه ذلك لكان مستحيلاً أن يصوب جميعهم ﷺ وأمر كل قارئ منهم أن يلزم قراءته فى ذلك على الذى هو عليه»<sup>(٢)</sup>.

### رأى الطبرى بين المؤيدين والمعارضين:

يؤيد الطبرى فى هذا رأى أبو عبدالله الزنجاني، فقد قال: «المراد بالأحرف السبعة سبعة أوجه من المعانى المتفقة، بالألفاظ المختلفة نحو: أقبل - وهلم ، وتعال، وامض، وأسرع، وأخر، ومهل، وامض وأسرع، وهذا الوجه هو ما اختاره الطبرى فى مقدمة تفسيره.. ثم يقول الزنجاني: «وهذا الوجه هو الذى لا يراه العقل بعيداً، فإن الاختلاف لو كان فى المعنى بسبعة أوجه يفسر بها المعنى، فقد يفضى إلى معنيين متضادين، فكيف يجيز النبى ﷺ خلاف ما أراد الله بيانه من الآية. ثم استدلّ بما رواه الأعمش عن أنس أنه قرأ هذه الآية: «إن ناشئ الليل هي أشدُّ وطناً وأصوب قبلاً»<sup>(٣)</sup>. فقال له بعض القوم: يا أبا حمزة، إنما هي أقوم، فقال: أقوم، وأصوب، وأهدى واحد»<sup>(٤)</sup>.

(١) تفسير الطبرى ج ١ ص ١٥ بتصرف.

(٢) المرجع نفسه ص ١٦.

(٣) المزمّل: ٦.

(٤) تاريخ القرآن للزنجاني ص ١٥، ١٦.

ويعارض الطبرى فى هذا الرأى الدكتور صبى الصالح فىقول: «إن علماء الغرب يؤيدون وجهة الطبرى لحاجة فى نفس يعقوب، ونسبت «بلا شير» بهذا يؤكد أن نظرية القرآن بالمعنى كانت بلا ريب أخطر نظرية فى الحياة الإسلامية لأنها أسلمت النص القرآنى إلى هوى كل شخص يشته على ما يهواه» (١).

### ج . رأى أبى شامة؛

نقل العلامة أبو شامة أنه نزل أولاً بلسان قريش، ومن جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أبيع للعرب أن تقرأه بلغاتهم التى جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم فى الألفاظ والإعراب، ويدل على ما قاله ما ثبت أن ورود التخفيف كان بعد الهجرة، كما يتضح من حديث أبى بن كعب أن جبريل لقى النبى ﷺ وهو عند «أضاة» بنى غفار، فقال: إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته، فإن أمتى لاتطبق ذلك» (٢).

### رأى ومناقشة؛

هذه الآراء السابقة لانستطيع أن نخرج منها بحقيقة نستريح إليها نفوسنا، وتطمئن إليها قلوبنا فكثرة الأفكار، وتنازع الأدلة، وتناقض الحجج قد تؤدى إلى الجدل الذى لانفع وراءه، والحديث يشير معناه إلى حقيقة مؤداها أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش، وفيه من لغات العرب الأخرى الشىء الكثير، بل لأبالغ إذا قلت إنه لاحتوائه هذه اللهجات غير القرشية يكون تحدّيه للعرب أتمّ، وقدرته فى باب الإعجاز أبلغ من نزوله بلهجة واحدة هى اللهجة القرشية. وقد لمس هذا المعنى ابن الجزرى فأصاب المحزّ حينما قال: «لو جاء القرآن الكريم كله بالأفصح لكان على غير النمط المعتاد فى كلام العرب من الجمع بين الأفصح والفصيح، فلا تتم الحجة من الإعجاز، إذ يقال مثلاً... إنه جاء بما لاقدرة للعرب على جنسه، كما لايصح

(١) مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبى الصالح، ص ١٣٧.

(٢) لطائف الإشارات: ورقة ٩.

أن يقول البصير للأعمى: قد غلبتكَ بنظري لأن الأعمى يقول له: إنما تتم لك الغلبة إذا كنت قادراً على النظر وكان نظرك أقوى من نظري، أما إذا فقد أصل النظر فكيف تصح المعارضة<sup>(١)</sup>.

من هذا نرى أن الحديث يريد أن يبين أن القرآن الكريم نزل بهذه اللهجات المتعددة للإعجاز كما قلت، وليتيح للعرب من ناحية أخرى التدبر في معانيه، وكثرة التلاوة فيه، لأنه يحتوى من لهجاتهم ما يتيح لهم هذا النفع الكبير منه، ولكن هذه اللهجات ليست كثيرة للحد الذى يطفى على لهجة قريش، فإن لهجة قريش هى اللهجة الغالبة ومعظمه نزل بها، لأنها قبيل الإسلام «أصبحت اللغة السائدة فى المواسم والأسواق وعلية القوم من الفصحاء الذين لم ينتموا إلى قريش كانوا يتخذون لغة قريش لغة الأدب والشعر.. كذلك كان لابد لأولئك الشعراء الذين جاءوا من بيئات متباينة أن ينظموا شعرهم بلغة خالية من عنعنة أو عجمجة، أو كشكشة لينالوا إعجاب سامعيهم، ولا يكونوا موضع سخريتهم وهزئهم، وإلا فكيف كان من الممكن أن يفضل شاعر على شاعر فى تلك المناظرات إذا كان المقياس مختلفاً وأداة القول متباينة، ولهذا توحدت القبائل فى لغة أدبية ممتازة، مختارة الألفاظ، يعمد إليها الشاعر أو الخطيب كلما عن له القول، وتلك كانت اللغة النموذجية<sup>(٢)</sup>.

ومن حق القارىء أن يسأل: إذا كان الأمر كذلك فى نزول القرآن الكريم بلهجة قريش وغيرها فهل معنى ذلك أن القارىء غير القرشى يقرأ بلفته أو بلهجته التى تعود بها النطق كما يدعى ذلك بعض العلماء من المحدثين؟

وللإجابة عن هذا التساؤل أقول: لم تكن قراءة القرآن الكريم تجرى على ألسنة العرب على اختلاف قبائلهم باللهجات التى نشأوا عليها، لأن فى ذلك الفوضى التى لاحد لها فى كتاب الله الذى تعهد سبحانه بحفظه وصيانتة على الرغم من كثر الأعوام وتوالى القرون: «إن نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون».

(١) نقلا من مقال للمرحوم الشيخ عبدالجواد رمضان: القرآن واللغة، مجلة الأزهر: المجلد ٢٢ ص ٦٠٠.

(٢) من كتاب اللهجات العربية: للدكتور إبراهيم أنيس ص ٢٨٠، ٢٧. بتصرف وتلخيص.

ولعل سائلاً آخر يقول: إن عيوب بعض اللهجات العربية، كالفحفة وهي ابدال الحاء عيناً قد قرأ بها بعض الصحابة مثل ابن مسعود الذي كان يقرأ «عتى حين» في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (١).

وللإجابة عن هذا التساؤل أيضاً أقول: إن ابن مسعود لعله سمع من النبي عليه السلام هذه القراءة في هذه الآية فحسب بدليل أن هذه القراءة لم تكن في غير سورة يوسف مع تكرار «حتى حين» في غيرها. وهذا يدل دلالة واضحة على أن ابن مسعود تقيّد بالقراءة المسموعة من النبي عليه السلام فحسب، ولو كانت القراءة مطلقة من غير قيد الرواية والسماع كما يدعى بعض المحدثين لقرئت «حتي» (عتي) في كل آية توجد فيها.

ومالي أذهب بعيداً والموقف يشير إلى حل قريب آخر، ذلك ان ابن مسعود قد يكون في قراءته «عتى حين» غلب عليه لسانه الهذلي فقرأها بلسان قومه كما سمعها، ومن ثم تكون إشارة عمر في هذا المقام إشارة لها دلالتها، تضع النقاط على الحروف في مجال قراءة القرآن، يقول الرواة: إن عمر حينما سمع هذه القراءة من ابن مسعود نبهه إلى «أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش، لا بلغة هذيل»، ومعنى ذلك أن عمر أراد أن يسد باب القراءة الواسع باللغات المختلفة من غير أن تكون هناك رواية تسند إلى النبي عليه السلام في ذلك.

وأردت أن أتحقق من هذلية ابن مسعود فوجدت ابن الأثير يقول: «هو عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب.. إلى أن قال: ابن تميم بن سعد بن هذيل. وأمه أم عبد بنت عبدود بن سواء من هذيل أيضاً» (٢).

فالقراءات إذن ليس مصدرها هذه اللهجات المتعددة، وإنما مصدرها قراءة النبي عليه السلام.

وإن تعجب فعجب قول من قال: «إن القراءات السبع ليست من الوحي في قليل ولا

(١) يوسف: ٣٥.

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ٢٥٦ ابن الأثير.

كثير وليس منكرها كافراً ولا فاسقاً ولا مغتصباً في دينه، وإنما هي قراءات مصدرها اللهجات واختلافها، للناس أن يجادلوا فيها، وأن ينكروا بعضها وقد حاولوا فيها بالفعل وتمازوا، وخطأ فيها بعضهم بعضاً، ولم نعلم أن أحداً من المسلمين كفر أحداً لشيء من هذا، وليست هذه القراءات بالأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن» (١).

إن كل كلمة في هذا النص تحمل دليل زيفها، وحجة بطلانها، وهذا حكم ظالم صدر من غير تروء في القضية، بل من غير دراسة لها، ولم يكن كما يجب أن يكون.

نعم قد تكلم الباحثون قبله من علماء الفكر الإسلامي في القراءات، واختلفت آراؤهم حولها، وبخاصة في معنى الأحرف السبعة، هذا الاختلاف الذي عرضه السيوطي في كتابه «الإتقان» فبلغ أربعين رأياً، ولكن لم نجد من هذه الآراء المتعددة رأياً واحداً يقول مثل هذا القول المجحف.

وثمة دليل آخر يؤيد ما ذهبت إليه من أن القراءات ليس مرجعها اللغات المختلفة للقبائل على الإطلاق من غير أن تقيد بالسند أو الرواية.. أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه اختلف مع هشام بن حكيم في قراءة سورة الفرقان - كما سبق بيانه - وكلاهما قرشى، فبم نفسر هذا؟ هل اختلفت قريش وهي قبيلة واحدة في قراءتها؟.

مرجع ذلك في رأيي أن أحدهما سمع من النبي ﷺ قراءة بعض آيات من سورة الفرقان بلهجة ما، وسمعها الثاني بلهجة أخرى، فأخذ كل منهما بالقراءة التي سمعها، وهذا لا يتنافى في أنهما قرأ بغير لهجتهم، لأن القرآن الكريم لم تنزل كل كلمة فيه بلهجات متعددة، وإنما نزل بعض آياته ببعض اللهجات فحفظها الصحابة كما سمعت بغض النظر عن تلاقيها مع لهجتهم أو عدم تلاقيها.

ويقرر الرافعي أن القراءات ترجع إلى عهد النبي ﷺ، وعهد أصحابه فيقول: «يرجع عهد القراء الذين أقاموا الناس على طرائقهم في التلاوة إلى عهد الصحابة رضى الله عنهم، فلقد اشتهر بالإقراء منهم سبعة، عثمان، وعلي، وأبي. وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء،

(١) في الأدب الجاهلي: للدكتور طه حسين ص ٩٥، طبع دار المعارف بمصر.

وأبو موسى الأشعري، وعنهم أخذ كثير من الصحابة والتابعين في الأمصار، وكلهم يسند إلى رسول الله ﷺ»<sup>(١)</sup>.

وفى إشارة ابن حجر فى كتابه «فتح الباري» تأكيد لهذه الحقيقة التى ذهبت إليها فقد نقل أبو شامة عن بعض الشيوخ أنه قال:

«أنزل القرآن أولاً بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أبيع للعرب أن يقرءوه بلسانهم التى جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم فى الألفاظ والإعراب، ولم يكلف أحد منهم الانتقال من لغته إلى لغة أخرى للمشقة.

قال ابن حجر: وتمة ذلك أن يقال: إن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهي، أى أن كل أحد يغير الكلمة بمرادفها فى لغته، بل المراعى فى ذلك السماع من النبى ﷺ»<sup>(٢)</sup>.

أما الناحية العددية فى الحديث الشريف (سبعة أحرف) فإنى أوافق أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس على أن المراد مجرد التعدد، وليس المراد قصر الأحرف على العدد سبعة وذلك «لأن العدد سبعة يعبر عن الكثرة والتعدد فى الأساليب العربية»<sup>(٣)</sup>.

### القراءات السبع:

ليست القراءات السبع فى الحقيقة هى الأحرف السبعة الواردة فى الحديث المتقدم ذكره، وإنما هى بعض الأحرف، وقد جمعها الإمام ابن مجاهد باختياره الخاص واشتهرت حتى ظن الكثير من الناس أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع.

وقد كان الإمام أبو العباس أحمد بن عمّار المهدي على حق فى نقده لابن مجاهد حيث يقول: «ولقد فعل مسبّع هؤلاء السبعة ما لا ينبغي له أن يفعله، وأشكل على العامة، حتى جهلوا ما لا يسعهم جهله، وأوهم كل من قل نظره أن هذه هى المذكورة فى الخبر النبوى لا غير، وليته إذا اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل هذه الشبهة»<sup>(٤)</sup>

(١) اعجاز القرآن: مصطفى الرافعي، ص ٥١، مطبعة الاستقامة.

(٢) فتح الباري: لابن حجر، ج ٩ ص ٢٢، مطبعة البهية.

(٣) اللهجات العربية، ص ٣٩.

(٤) النشر، ج ١ ص ٣٦.

أما هؤلاء الأئمة السبعة الذين جمع ابن مجاهد قراءاتهم بعد اختيارها من قراءات تعددت فهم:

«أبو عمرو بن العلاء، المتوفى ١٥٤هـ - عبدالله بن كثير م ١٢٠هـ - نافع بن نعيم م ١٦٩هـ - عبدالله بن عامر اليحصبي م ١١٨هـ - عاصم بن بهدلة الأسدي م ١٢٨هـ - حمزة بن حبيب الزيات م ١٥٦هـ - علي بن حمزة الكسائي م ١٨٩هـ.

وقد أجمعوا على هذه القراءات السبع، لأن أصحاب الأهواء كثروا، وأخذوا يقرءون بما لا تحمل تلاوته، تاركين المصحف الإمام، وخوفاً من أن يتسع الخرق على الراقع، وتمتد يد البدعة إلى كتاب الله لتحرف فيه، نهض قوم «للاعتناء بشأن القرآن العظيم، فاخترأوا - في كل مصر وجه إليها مصحف - أئمة مشهورين بالثقة والأمانة في النقل، وحسن الدراية، وكمال العلم، أفنوا عمرهم في القراءة والإقراء واشتهر أمرهم، وأجمع الناس على عدالتهم، ولم تخرج قراءتهم عن خط مصاحفهم»<sup>(١)</sup>.

وهذه القراءات السبع ليست هي كل القراءات التي نسبت إلى النبي عليه السلام، وإنما هي غيض من فيض، وقد ظن بعض الناس خطأ أن هذه القراءات السبع هي المعتبرة وما عداها شاذ. قال ابن الجزري: «ولست أدري كيف وصلوا إلى هذا الحكم مع أن أبا عبيد القاسم بن سلام «جعلهم خمسة وعشرين قارئاً مع هؤلاء السبعة، وتوفى سنة ٢٢٤هـ»<sup>(٢)</sup>. ويؤكد أبو حيان الأندلسي هذه الحقيقة فيقول: «ليس في كتاب ابن مجاهد، ومن تبعه من القراءات المشهورة إلا النزر اليسير، فهذا أبو عمرو بن العلاء اشتهر عنه سبعة عشر راوياً»<sup>(٣)</sup>.

وقبل أن أنتهي من هذا البحث، أحب أن أشير إلى أن هذه القراءات السبع متواترة لأن مذهب الأصوليين وفقهاء المذاهب الأربعة، والمحدثين والقراء يؤكدون «أن التواتر شرط في

(١) تحاف فضلاء البشر للدمايطي، ورقة ٥، مخطوط دار الكتب رقم ٧٣ - قراءات دار الكتب المصرية.

(٢) النشر، ج ١ ص ٢٣. (٣) الإنقان، ج ١ ص ٨٠.

صحة القراءة، ولانثبت بالسند الصحيح غير المتواترة، ولو وافقت رسم المصاحف العثمانية والعربية» (١).

ويرى الزركشى «أنها متواترة عن الأئمة السبعة، أما تواترها عن النبي ﷺ ففيه نظر، فإن اسنادهم بهذه القراءات السبع موجود فى كتب القراءات، وهى نقل الواحد عن الواحد» (٢).

ولم يشذ من العلماء عن هذا المجال غير ابن الحاجب الذى نص فى كتابه «مختصر المنتهى»: «أن القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء كالمدة والإمالة، وتخفيف الهمزة ونحوها» (٣).

ولم يسلم ابن الحاجب من النقد فى هذا الرأى فقال الدكتور/ إبراهيم حمودة: «ليت شعرى من الذى تقدم ابن الحاجب بهذا القول، فقص أثره؟ فلو فكر الشيخ فيما قاله لما أقدم عليه، وليت الإمام ابن الحاجب أخلى كتابه من ذكر القراءات وأثرها كما أخلى غيره كتبهم منها، بل ليته سكت عن التمثيل» (٤).

ولعلّى بهذا العرض قد وفقت لبسط قضية القراءات السبع والأحرف السبعة، لستبين القارئ المسلم جوانب الحق فى هذا الموضوع الذى تلعب فيه الأهواء استناداً إلى النظرة القصيرة والأفكار المهوشة، والعقول التى لم تعش فى رحاب الدراسات القرآنية فترة طويلة تؤهلها إلى إلقاء الأحكام فى روية وتبصر، وبخاصة فى مجال هذا القرآن العظيم الذى تولى الله تعالى صيانته، لأنه كما يقول ابن الجزري: «لم يخل الله تعالى عصرأ من الأعصار، ولو فى قطر من الأقطار من إمام حجة قائم، ينقل كتاب الله تعالى يتقن حروفه ورواياته، ويصحح وجوهه وقراءاته، يكون وجوده سبباً لوجود هذا السبب القويم على مرّ الدهور، وبقاؤه دليلاً على بقاء القرآن العظيم فى المصاحف والصدور» (٥).

\*\*\*

(١) شرح ابن القاصح على الشاطبية، ص ٦، المطبعة الأزهرية.

(٢) الإتيان، ج ١ ص ٨٠.

(٣) مختصر المنتهى الأصولى لابن الحاجب، ص ٤٩، مطبعة كردستان العلمية.

(٤) القراءات واللهجات: للدكتور إبراهيم حمودة، ص ٧٠.

(٥) النشر لابن الجزري، ج ١ ص ٥٤.

## مصادر البحث ومراجعته

- ١- إنحاف فضلاء البشر للدمياطى - مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٧٣ - قراءات.
- ٢- الإنقان فى علوم القرآن للسيوطى طبعة ثالثة نشر الحلبي.
- ٣- أسد الغاية فى معرفة الصحابة لابن الأثير طبع ١٢٨٦هـ.
- ٤- إعجاز القرآن: مصطفى صادق الرافعى - مطبعة الاستقامة.
- ٥- تاريخ القرآن للزنجاني - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- ٦- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة - طبع عيسى الحلبي.
- ٧- تفسير الطبرى - طبع دار الجيل - بيروت.
- ٨- شرح ابن القاصح على الشاطبية - المطبعة الأزهرية.
- ٩- صحيح البخارى - المطبعة الأميرية.
- ١٠- فتح البارى لابن حجر - المطبعة البهية.
- ١١- فى الأدب الجاهلى - الدكتور طه حسين - نشر دار المعارف بمصر.
- ١٢- القراءات واللهجات للدكتور إبراهيم حمودة - مطبعة السعادة - طبعة أولى.
- ١٣- الكلمات الحسان فى الحروف السبعة للشيوخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية سابقاً المطبعة الخيرية.
- ١٤- لطائف الإشارات فى علم القراءات - لشهاب الدين القسطلانى - مخطوط ورقة ١٦١ دار الكتب المصرية.
- ١٥- اللهجات العربية للدكتور إبراهيم أنيس - مطبعة الرسالة.
- ١٦- مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح - مطبعة الجامعة السورية سنة ١٩٥٨.
- ١٧- مجلة الأزهر - المجلد ٢٢ ص ٦٠٠.
- ١٨- مجلة الفكر الإسلامى - مجلة شهرية إسلامية فكرية - تصدرها دار الفتوى - بيروت.
- ١٩- مختصر المنتهى الأصولى لابن الحاجب - مطبعة كردستان العلمية.
- ٢٠- النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى - طبع دار الكتب العلمية - بيروت.

\*\*\*

## ٢. من دراسات المستشرقين حول القرآن الكريم (\*)

التقاء الثقافات بين الأمم المختلفة ظاهرة معروفة سجلها التاريخ في صفحاته الخالدة، وهذا أمر طبيعي، لأن الفكر الإنساني يدور في فلك واحد، وهو الإنسان نفسه، من حيث ارتباطه بالحياة، من حيث حاجياته ومطالبه، من حيث تقدمه وتطوره، من حيث نظرته إلى الحياة، وفهمه لطبيعة الوجود، من حيث ارتباطه بقوة هي أعظم من قوته، تسيطر عليه، وترسم له خطوط رسالته في الحياة.

ولما فتح المسلمون هذه البلاد المتعددة، باسم العقيدة، وباسم الإسلام، لم يخلوا بثقافتهم الإسلامية على البلاد التي فتحوها، فقدموا لهم من زادها الفكري ما أنار لهم جوانب الحياة، فكرا وعقيدة، سياسة واجتماعا، أدبا وثقافة، إصلاحا وتهذيبا.

ففي بلاد الأندلس مثلا تحللت الثقافة الإسلامية المكان الأعلى في نفوس أبناء هذه البلاد، مما هال أحد المفكرين الأسبان، فكتب يقول:

«إن أرباب الفطنة والتذوق - سرهم رنين الأدب العربي، فاحترقوا اللاتينية، وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها، وأنهم يعجبون بشعر العرب، وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون، ولا يفعلون ذلك لإدحاضها والرد عليها، بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح، فأين اليوم من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والإنجيل غير رجال الدين. إلى أن يقول... إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكى لا يحسنون أدبا أو لغة غير الأدب العربي واللغة العربية، وإنهم ليلتهمون كتب العرب، ويجمعون منها المكتبات بأغلى الأثمان» (١).

ومن الأندلس سطع نور الحضارة الإسلامية على أوروبا، فأنارت أمامها الطريق إلى الحضارة الأوربية التي نمت وتطورت فغزت آفاق الفضاء.

(\*) نشر في مجلة الوعي الإسلامي - يونيو سنة ١٩٧٠، تصدرها وزارة الأوقاف - الكويت.

(١) الإسلام والمستشرقون: الأستاذ زكريا هاشم ص ١٧: طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٥م.

ولما ضعف المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها نطلع الاستعمار باسم هذا الحضارة إلى السيطرة على بلادهم، واغتصاب ثرواتهم، وتبديد ما لديهم من قيم، وسلب ما بقى لهم من تراث.

على أن التراث الإسلامى، وهو أئمن ما تملكه الأمة الإسلامية والعربية، لم ينج من خطر هذا الاستعمار، بل إن عِدَّة مؤامرات حيكّت حوله، من أجل جمعه والاستيلاء عليه، بأى ثمن، وبأية طريقة، ليفقد المسلمون هذا التراث الذى يعتزون به من ناحية، وليقدمه لهم المستشرقون بعد ذلك مشوها من ناحية أخرى، ليكون وسيلة تضليل تشكك المسلمين فى هذا التراث لينقطع الخيط الذى يربط الأمة الإسلامية بماضيها التليد، وأمجادها السالفة، فتعيش بلا تاريخ، وتحيا بلا ماض، ومن ثم تهتز ثقتها بنفسها، فتكون كالشجرة التى اجثت من فوق الأرض ما لها من قرار، وقد عثر فى مكتبة (دير الشوير) بלבنا على وثائق تثبت هذه الحقيقة، ومن هذه الوثائق الوثيقة التى تنص على أنه (فى سنة ١٦٧١م أرسل على الجنا ب الملك لويس الرابع عشر رسله إلى جميع بلدان الإسلام لشراء المخطوطات، وزود مبعوثيه بأوامر شريفة إلى جميع القناصل الفرنساوية ليضعوا رجالهم وأموالهم فى خدمة هذه الغاية) (١).

أليست هذه الوثيقة تثبت فى صراحة ووضوح تأمر الاستعمار الأوربى منذ القرن السابع عشر على تراثنا لتبديده، أو تشويهه، أو مسخه؟ واذا فقدت الأمة تراثها، فقدت أعلى ما تملك، بل فقدت نفسها، ومسحت وجودها من التاريخ.

ولاشك أن تراثنا الإسلامى والعربى مصدره الأول القرآن الكريم، فهو ينبوع الذى استقت منه المعارف والعلوم ما أمدها بالحياة، وما بعث فيها الحركة والازدهار.

وهذا القرآن الكريم هو الخطر الأكبر فى وجه الاستعمار، فما دام المسلمون يحافظون على القرآن حفظا وعلما وعملا فإن مطامحهم تتحطم على صخرته العاتية، لأنه قوة تعمل عملها فى النفوس، فتحول الضعف إلى قوة، والمعجز إلى حركة، واليأس إلى أمل: وصدق الله العظيم ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (٢).

(١) الإسلام والمستشرقون ص ٢١.

(٢) الحشر: ٢١.

من أجل ذلك صاح (فلا دستون رئيس الوزارة البريطانية، ويده القرآن الكريم في مجلس العموم البريطاني في عهد الملكة فكتوريا وهو يقول: (ما دام هذا الكتاب باقيا في الأرض فلن يقر لنا قرار في بلادهم).

لهذا فقد أخذ المستشرقون على عاتقهم التشكيك في هذا القرآن الكريم وذلك بترجمته، وبقامة الدراسات في مجاله.

وحينما بدا لي أن أكتب في هذا الموضوع، وعشت في المراجع التي كتبت عن المستشرقين في مجال الدراسات الإسلامية راعني هذا المجهود الضخم الذي بذل في ترجمة القرآن الكريم من العربية إلى اللغات الأوروبية منذ سنة ١١٤٣م حيث ظهرت أول ترجمة للقرآن الكريم باللاتينية على يد المستشرق (روبرت أو تشر) إلى يومنا هذا، وراعني أكثر هذا السيل المتدفق من الدراسات التي دارت حول القرآن الكريم، أقول: لقد تملكنتى الدهشة، واستبدت بي الألم، كيف جندت هذه النفوس لتحمل هذا العبء الثقيل؟ وما السر وراء هذه الجهود؟ ولماذا وقف علماونا متجمدين أمام هذه الأعمال الضخمة، لم لم تعرض؟ لم لم تنقد؟ لم لم تقم حولها الدراسات، إن الإسلام قوة ويخشى المستعمرون أن يجذب بقوته الكثير من أبناء جلدتهم، فحاول الكثير منهم أن يشوهوا هذا الإسلام في مصدره الأول ودعامته الأولى، وذلك بإلجهاز على كتاب الله.

ومن هؤلاء المستشرقين الذين حملوا معاول الهدم المؤرخ (برايس) الذي قال: (إن احتكاك الإسلام بالحضارة سيقضى عليه ويؤذن بنهايته).

ومن هؤلاء (لنز) الذي قال: (إن الإسلام قد سبق إذا ترك لنفسه، أما إذا احتك بالمدينة الحديثة فإنه يموت لا محالة).

ومن هؤلاء (بيشون) الألماني القائل: (إن انحطاط المسلمين يرجع إلى أسباب متصلة بالإسلام نفسه لعدم موافقته روح التمدن) (١).

وانتشرت حركة الاستشراق في أوروبا وأمريكا، ومازالت في نمو مستمر ومازالت المطابع،

(١) من مقدمة كتاب «المستشرقون والإسلام».

ودور النشر تخرج لنا الكثير من تراثنا العربي والإسلامي محققا بيد هؤلاء المستشرقين، وأن الكثير منه قدموه لنا ناقص التكوين أو مشوه الولادة، أو محشوًا بالأباطيل.

والذى يدعو إلى العجب حقًا أن المثقفين العرب الذين تلمذوا على هؤلاء المستشرقين عاشوا بأفكارهم، لم يحاولوا أن يجددوا، لم يحاولوا أن يردوا الحق إلى نصابه، بل كانوا مفتونين بآراء هؤلاء المستشرقين يرددونها من غير وعي، كأنها قرآن منزل لا يقبل النقاش أو الجدل.

فباسم حرية التفكير التى يدعونها تحطمت المقاييس، وأوشك التراث على الضياع مع أن حرية التفكير التى تقوم على المنطق، بعيدة عن الهوى، برينة من النوايا السيئة لا تتعارض مع الإسلام، بل لا أبالغ إذا قلت: إنها مبدأ من مبادئه ودعامته من دعائمه، لأن الإسلام، أتاح للعقل الإنسانى هذه الحرية فى التفكير لأنه ابن الحياة، ومن حقه أن يتعرف عليها معرفة كاملة، وبهذه المعرفة يشتد عوده، ويتسع إدراكه، ومن ثم يستطيع أن يتطلع إلى آفاق أرحب وإلى مجالات أوسع بحيث لا يقف عند ظواهر الأشياء، وإنما يتعمق فى كنهها ليدرك أسرار الوجود، وحقيقة الحياة، وبذلك يساعد الإنسانية فى تقدمها وتطورها.

ولو سار المستشرقون فى بحوثهم ودراساتهم وراء هذه الغاية لأفادوا الإنسانية، وقدموا لها المصباح الذى يبرلها دياجير الحياة، ولكن التعصب الأعمى وقف حائلًا بين الكثير منهم وبين هذه الغاية، فكانت معظم أفكارهم حول الإسلام تحتاج إلى تصحيح أو تعديل حتى لا يقع ناشئة المثقفين فى حائلها، فتلتوى فى نفوسهم وسائل التفكير.

وهذا الإنتاج الضخم فى مجال الدراسات القرآنية الذى أشرت إليه سابقًا قد يجهله الكثير من المثقفين العرب مع أن الواجب يقضى أن نفهم حقيقة ماضيها وحاضرنا، وأن نقرأ ما يكتب لنا أو علينا.

من أجل ذلك أحب أن أضع بين يدي القارئ صورة لهذا الجهودات فى الدراسات القرآنية التى قام بها المستشرقون، وهى تتمثل فى أمرين هما:

(١) ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأوروبية.

(٢) الدراسات التى دارت حول القرآن الكريم.

## أولاً: ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأوروبية:

كانت أول ترجمة للقرآن الكريم باللغة اللاتينية: وقام بها المستشرق روبرت أوتشتر: في عام ١١٤٣م وقد كان روبرت أسقفاً في أسبانيا، وتثقف بالثقافة العربية، واشتغل بالرياضة والفلك ثم صرف عنهما إلى ترجمة القرآن باللغة اللاتينية وقد استعان باثنين من العرب في هذه البلاد.

### اللغة الفرنسية:

وقد ترجم القرآن الكريم باللغة الفرنسية على يد جماعة من المستشرقين الفرنسيين أذكر من هؤلاء: الدكتور (ماردروس) وقد ولد في القاهرة ١٨٦٨م، وتعلم في مدرسة الآباء اليسوعيين وترجم القرآن الكريم إلى الفرنسية عام ١٩٢٦م.

= مونتيه: من أصل سويسري، وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق منذ نشأته، وترجم القرآن الكريم إلى الفرنسية ١٩٢٩م، ونقلت الترجمة إلى اللغة الإيطالية فيما بعد.

= أو كتاف بل: ولد في الجزائر حيث تلقى علومه هناك، وعين مديراً للمعهد الدراسات العليا، وقد اشترك مع محمد التيجاني في ترجمة القرآن الكريم إلى الفرنسية.

= بلا شر: تلقى دروسه الثانوية في الدار البيضاء، وتخرج بالعربية من كلية الآداب بالجزائر.

ترجم القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية في ثلاثة أجزاء طبع باريس ١٩٥٢م.

### اللغة الإيطالية:

ومن المستشرقين الإيطاليين الذين نقلوا القرآن الكريم إلى اللغة الإيطالية: = الأب ماراتش: وقد ولد في ضاحية (لوكا) بإيطاليا، وتعلم العربية، وترجم القرآن الكريم إلى الإيطالية ترجمة حرفية سنة ١٦٩١م.

## اللغة الإنجليزية:

ومن المستشرقين الإنجليز الذين ترجموا القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية: (ج. رودويل) ترجم القرآن الكريم في ٥٦٢ صفحة طبع لندن ١٨٧٦م.

ادوارد هنرى بالمر: ترجم القرآن الكريم سنة ١٨٨٠م طبع أكسفورد.

جورج سيل: ترجم القرآن الكريم في ٤٧٠ صفحة ١٨٩٢م.

يقول الأستاذ نجيب عفيفي: «وقد نجح في ترجمته فذكرها فولتير في القاموس الفلسفي، وأعيد طبعها مرارا، إلا أنها اشتملت على شروح وحواش، ومقدمة مسهبة هي في الحقيقة بمثابة مقالة إضافية عن الدين الإسلامي عامة حشاها بالإفك، واللغو، والتجريح وقد نقلها إلى العربية ابن الهاشم العربي ١٩١٣م طبع القاهرة»<sup>(١)</sup>.

ما رسادوك وليم بكثول: ترجم معانى القرآن الكريم سنة ١٩٣٠م قصد بعدها مصر لمراجعة ترجمته مع بعض العلماء، وطبعت طبعة ثالثة في ٦٩٣ صفحة طبع لندن ١٩٦٢م.

ريتشارد بل: ترجم القرآن الكريم سنة ١٩٤١م وكان جل غرضه من هذه الترجمة تحليل السور المتفرقة بوضع قوانين النقد الأدبي لها.

## اللغة الهولندية:

ومن المستشرقين الهولانديين كرامز.

ترجم القرآن إلى الهولندية ١٩٥٦ طبع أمستردام بروكسل.

## اللغة الألمانية:

ومن المستشرقين الألمان:

فردريخ شواللى: وهو تلميذ المستشرق نولدكه، وقد أعاد طبع تاريخ النص القرآني لنولدكه بعد تحقيقه، والتعليق عليه في مجلدين طبع (ليزيج ١٩٠٩ - ١٩١٩).

(١) المستشرقون: نجيب عفيفي ج ٢ ص ٤٧١.

نولده: أشهر آثاره: أصل وتركيب سور القرآن طبع ١٨٥٦م ثم أعاد النظر فيها وترجمها إلى الألمانية ونشرها بعنوان: تاريخ النص القرآني سنة ١٨٦٠م.

### اللغة الدانماركية

يدرسين: ندب في عام ١٩١٦ إلى جامعة كوبنهاغن محاضرا، فترجم القرآن الكريم إلى الدانمركية، طبع استوكهولم ١٩١٧م.

ثانيا: الدراسات التي دارت حول القرآن الكريم.

### باللغة الفرنسية:

(توافق القرآن والانجيل) بحث نشره المستشرق يوستل الذي ولد في مدينة بارتون من أعمال نورمندی ونشر سنة ١٥٤٣م.

(السامريون في القرآن) بحث للمستشرق جوزيف هاليفي من أساتذة مدرسة الدراسات العليا بالسوربون ونشر بحثه في المجلة الآسيوية ١٩٠٨م.

(وجه الشبه بين القرآن وشعر أمية بن أبي الصلت) بحث للمستشرق الفرنسي هيارنافه، وقد نشر بحثه سنة ١٩٠٤م.

(بحث عن القرآن الكريم) للمستشرق البارون كارادي فو وقد نشر بحثه ١٨٩٨م.

(دراسة آية من القرآن الكريم) للمستشرق جيم جريفو وقد نشر بحثه ١٩١٤م في مجلة الشرق المسيحي.

(القنديل والزيت في القرآن) للمستشرق الفرنسي كلرمون - جانو وقد نشر بحثه في مجلة تاريخ الأديان ١٩٢٠م.

(النفس في القرآن) للمستشرق بلاشر وقد نشر بحثه في مجلة الساميات ١٩٤٨م.

### باللغة الإنجليزية:

(سلك البيان في مناقب القرآن) للمستشرق الإنجليزي بنريس وقد طبع في لندن ١٨٧٣م.

(التطور التاريخي للقرآن) للمستشرق الإنجليزي كانون ادوارد سل وقد طبع في مدراس ١٨٩٨م.

(الإعجاز في القرآن الكريم) للمستشرق الإنجليزي رويسون وقد نشر ١٩٣٣م.  
وقد نشر كارل فولليس النمساوي أستاذ اللغات الشرقية بجامعة فينا بحثا بعنوان (القرآن بلهجة مكة الشعبية).

### باللغة الألمانية،

(نجوم الفرقان في أطراف القرآن) بحث للمستشرق الألماني فلوجل المولود في ١٨٠٢م والمتوفى ١٨٧٠م.

(الكلمات الأجنبية في القرآن) للمستشرق الألماني فرانكيل وهي رسالته في الدكتوراه. وقد ولد في ١٨٥٥ - ١٩٠٩م.

(تفسير القرآن وترتيبه) للمستشرق هيرتوريج مير طبع ١٩٠٢م.

(حروف النفي في القرآن الكريم) طبعت ١٩١١م، والطبعة الثانية بتوسع ١٩١٤م.

(معجم قراء القرآن وتراجمهم) طبع ١٩١٢م.

(تحقيق القراءات الشاذة في كتاب المحتسب لابن جنى طبع ١٩٣٣م.

(كتاب مختصر القراءات) لابن خالويه طبع ١٩٣٣م.

وهذا الانتاج للمستشرق الألماني برجستر اسر وبعض الكتب المحققة من التراث، فقد طبعت باللغة العربية.

(كتب تفاسير القرآن) للمستشرق الألماني زايبولد المولود ١٨٥٩م والمتوفى ١٩٢١م.

(التوراة في القرآن) للمستشرق الألماني فايل طبع ١٨٣٥م.

(مذهب الطبيعة الواحدة النصراني في القرآن) للمستشرق بومشارك.

وله كتاب (النصرانية واليهودية في القرآن) طبع ١٩٢٧م.

(مراجع القرآن وعلومه).

(رسالة فى تاريخ علم قراءة القرآن).

وهذان البحثان للمستشرق الألماني بريثسل المولود عام ١٨٩٣ - المتوفى ١٩٤١ م.

(الشرع فى القرآن) للمستشرق الألماني ريجلين.

(دليل القرآن) للمستشرق الألماني مالير.

(تفسير القرآن) للمستشرق الألماني كومبرت وقد نشر ١٩٤٨ م.

(الصلاة فى القرآن) للمستشرق الألماني جوتيه.

(القرآن) بحث القى فى مؤتمر المشرقين للمستشرق الألماني أنطون شيبالير وقد ولد

سنة ١٩١٠ م<sup>(١)</sup>.

وبعد، فإن الناظر إلى هذه الدراسات القرآنية يرى أن وراءها سموما دنيئة، تقدم سهلة التناول باسم المناهج الحديثة فى الدراسات الإسلامية من ناحية، وباسم حرية الفكر من ناحية أخرى.

لهذا، فإن الواجب يقضى أن ننظر إلى تراثنا الذى مسته يد المشرقين نظرة واعية فيها الكثير من اليقظة، وفيها التعمق الذى يكشف ما وراء السطور، فما وافق قيمنا، وسار فى درب ثقافتنا الإسلامية قبلناه، وما حاد عن السنن وركب الشطط. ولاذ بالانحراف رفضناه، وفضحناه، وهناك جوانب فكرية أثارها المشرقون فى مجال الدراسات القرآنية استطعت أن أبين زيفها، وألمس عوارها، فإلى بحث قادم لعرض هذه الجوانب، والرد عليها إن شاء الله، تلبية لقول الله تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون».

\*\*\*

(١) الذى أعاننى فى جمع هذه الدراسات من بين السطور الكتب الآتية:

أ- المشرقون: نجيب عفيفى ط نالئة - دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م.

ب- المتقى من دراسات المشرقين: الدكتور صلاح الدين المنجد - طبع القاهرة ١٩٥٥ م.

ج- المشرقون والإسلام: زكريا هاشم طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

## ٣. جوانب من أخطاء المستشرقين في الدراسات القرآنية (\*)

بينت في مقال سابق بعضاً من الدراسات القرآنية التي قام بها بعض المستشرقين، وكان هدفى من هذا البيان هو إتاحة الفرصة لشبابنا المثقف، ليقف على هذه البحوث، ويدرك ما فيها من صواب أو خطأ، ليكون على بينة من أمر هذه الدراسة القرآنية التي كتبت بأقلام قوم عاشوا في هذه الدراسات وأفنوا أعمارهم فيها من أجل المعرفة والعلم أحياناً ومن أجل الأغراض الخفية، وتشويه الحقيقة أحياناً. وفي هذا المقال سأحاول عرض جوانب من أخطاء المستشرقين في الدراسات القرآنية.

### أولاً : في النص القرآني وتوثيقه:

نحن نعلم أن القرآن الكريم وصل إلى الذروة العليا في التوثيق، وهذا سر عظمته، ومفتاح خلوده، اتفق أهل العلم والمعرفة على هذه الحقيقة. وحينما أقول: أهل العلم والمعرفة فإنما أعنى هؤلاء الذين سمت عقولهم، وأشرفت بصائرهم، وكان الحق رائدهم.

وقد سجل هذا القرآن الكريم تسجيلاً رائعاً في مصحف، لا يأتيه الباطل من بين يديه. ولا من خلفه.

يقول ابن حزم في مجال هذا التوثيق «إن هذا القرآن ظل ينقله أهل المشرق والمغرب عن أمثالهم جيلاً جيلاً لا يختلف فيه مؤمن، ولا كافر منصف غير معاند للمشاهدة.. لا يشكّون ولا يختلفون في أن محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب أتى به، وأخبر أن الله عزوجل أوحى به إليه، وأن من اتبعه أخذه عنه كذلك، ثم أخذ عن أولئك حتى بلغ إلينا»<sup>(١)</sup>.

وكانت الخطوة الأولى في توثيق النص القرآني على عهد رسول الله ﷺ كتابته حين النزول، ومنع كتابة شيء سواه، والسبب في ذلك يرجع إلى صيانة القرآن الكريم من الاختلاط بغيره، يدل على ذلك ما رواه أبو سعيد الخدرى أن النبي ﷺ قال: (لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن فمن كتب عنى شيئاً سوى القرآن فليمحاه)<sup>(٢)</sup>.

(\*) نشر في مجلة الوعي الإسلامي - أكتوبر سنة ١٩٧٠.

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج٢ ص ٧١.

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ٢٩.

وقد حدثنا أبو سعيد الخدرى أنه قال: استأذنت النبی علیه السلام أن أكتب الحديث فأبى أن يأذن لي (١).

ولم يكن أبو سعيد الخدرى فى هذا المجال وحده، فقد شاركه فى الرواية أيضا أبو هريرة الذى يقول: «خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نكتب الأحاديث، فقال: ما هذا الذى تكتبون؟ قلنا: أحاديث سمعناها منك!».

قال: أكتابا غير كتاب الله تريدون؟ ما أضل الأمم من قبلكم إلا ما اكتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى» (٢).

من هذه الأحاديث الشريفة يتضح لنا فى جلاء أن القرآن الكريم وثق توثيقا مكينا فى عهده ﷺ، لأنه كتب كله بأقلام كتاب الوحي بيد أنه لم يجمع فى مصحف، لأن الحاجة لم تكن ماسة إليه، ولأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتسابقون فى حفظه، ويتبارون فى كتابة نصه، والرسول عليه السلام معهم يتلو عليهم من آياته ما تلين به القلوب.

وقد أدرك الإمام السيوطى هذا السر فقال فى كتابه: (الاتقان) ما نصه «قال الخطابي: إنما لم يجمع ﷺ القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله، ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاء بوعده الصادق بضممان حفظه على هذه الأمة» (٣).

### رأى المستشرقين فى هذا التوثيق:

يقول (آرثر جفرى) فى مقدمته لكتاب (المصاحف) لابن أبى داود ما نصه: «الرأى الشائع فى أن القرآن الكريم كتب فى عهد النبی علیه السلام لا يقبله المستشرقون، لأنه يخالف ما جاء فى أحاديث أخرى أنه قبض ﷺ ولم يجمع فى القرآن شئ».

ويؤمن (آرثر جفرى) بهذه القضية، ويؤكد إيمانه بها بقوله: «وهذا يطابق ما روى من

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ٣٢.

(٢) تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ٣٣.

(٣) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج ١ ص ٥٧.

خوف عمر بن الخطاب، وأبى بكر الصديق لما استحرّ القتل بالقراء يوم اليمامة.. وسبب الخوف هو قتل القراء الذين كانوا قد حفظوا القرآن ولو كان القرآن قد جمع، وكتب لما كانت هناك علة لخوفهما» (١).

راعنى هذا القول، وأطلت التفكير فيه، ولم أجد سببا قويا يحمل هؤلاء المستشرقين إلى هذا القول الباطل غير التشكيك فى النص القرآني، لأن الذاكرة مهما كانت قوية، فإنها لا تستطيع أن تحتفظ بما لديها فترة طويلة، ومعنى ذلك أن القرآن الكريم يكون شأنه فى مجال الذاكرة والحفظ شأن الشعر المروى عرضة للزيادة والنقص بل عرضة للتغيير والتبديل.

وفى رأبى إن الدليل مفقود فى هذه القضية، فليس المراد من الأحاديث التى تقول: إن النبى عليه السلام قبض، ولم يجمع فى القرآن شيء، أن القرآن لم يكن مكتوبا حين ذاك، بل المراد أن القرآن الكريم لم يجمع فى مصحف، وقد قدمت السبب فى ذلك، فتفسير المستشرقين لهذه الأحاديث أو الأخبار بهذا المعنى الذى يتخيلونه تفسير خاطئ وراءه الغرض الخفي، وهو اهتزاز الثقة بالنص القرآني، على أنه ليس هناك أصرح من الروايات التى تؤيد كتابة القرآن فى عهد الرسول عليه السلام، والتى تؤكد: «أن القرآن كان مجموعا على عهد رسول الله ﷺ وأنه ما نزلت آية الا وقد أمر رسول الله ﷺ من يكتب له أن يضعها فى موضع كذا من سورة كذا» (٢).

وأما خوف عمر بن الخطاب، وأبى بكر الصديق حين استحرّ القتل بالقراء يوم اليمامة فالاستدلال به فى غير موضعه، لأن خوفهما زيادة تحر فى صيانة القرآن الكريم وحفظه ليلتقى المحفوظ بالمكتوب وذلك لأن طريقة أداء هذا المكتوب لا يتأتى إلا عن طريق التلقين والرواية، ومن ثم نشأ خوف الخليفين الجليلين من أن يموت القراء، فتعثر طريقة الأداء (٣).

(١) المصاحف لابن أبى داود ص ٥.

(٢) المرجع السابق والصفحة.

(٣) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٧.

## ثانياً: فى رسم المصحف العثمانى والقراءات:

يقصد بالرسم رسم الحروف الهجائية التى تدل على الكلام، ورسم الكلمات فى القرآن كان غاية ما وصل إليه فن الرسم الإملائى فى هذا العهد، وكتب القرآن الكريم بهذا الرسم، وأطلق عليه الرسم العثماني، لأن عثمان رضى الله عنه حينما كتب المصحف وضع للثلاثة القرشيين الطريقة التى على أساسها يكتبون فقال: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء، فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم»<sup>(١)</sup>.

فهذا الرسم الذى سار عليه كتابة المصحف العثماني اصطلاحى يسير على قواعد الكتابة التى كانوا بها يكتبون.

ولما اتخذ المصحف هذا الرسم شعاراً له أصبح سنة متبعة لا تخالف، ذلك لأن رسوم الهجاء تتغير من زمن إلى زمن، بل من شعب إلى شعب، فصيانة لكتاب الله من عبث العابثين، وإغلاقاً لباب التغيير فيه، وإحداث ما ليس منه أصبح هذا الرسم مقدساً لا يمس.

ومن هنا «قال أشهب: سئل (مالك) هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال: لا: إلا على الكتابة الأولى»<sup>(٢)</sup>، وقال الإمام أحمد: «تحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك»<sup>(٣)</sup>.

وقال البيهقى فى شعب الإيمان: «من كتب مصحفاً فينبغى أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به المصاحف، ولا يخالفهم فيه، ولا يغير مما كتبوا شيئاً، فإنهم كانوا أكثر علماً، وأصدق قلباً ولساناً، وأعظم أمانة منا فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم»<sup>(٤)</sup>.

وإذا كان رسم المصحف العثماني لا يخالف، ولا يصح الخروج عن رسمه فهل هذا يعنى أن هذا الرسم تلزمنا القراءة به، وأنه صورة للكلمات القرآنية المنطوقة، وأنه بهذا الاعتبار يحدد طريقة القراءة أو الأداء كما يحدد طريقة الرسم أو الكتابة؟.

الحق الذى لا مرية فيه أن الرسم غير القراءة، لأن القراءة مصدرها الرواية، والرسم

(١) انظر: كتاب القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية طبع دار المعارف لصاحب البحث ص ٥.

(٢) الاتقان ج ١ ص ٥٩.

(٤) مفتاح السعادة ج ٢ ص ٢٢٥.

(٣) الاتقان ج ٢ ص ١٦٧.

مصدره طريقة الكتابة المعروفة إذ ذاك، وبناء على هذا أننا نقرأ الآية، وننطق بكلماتها كما رويت لا كما رسمت، ولو سرنا في طريق الرسم وحده لخرجنا بالقرآن عن حقيقته التي نزل بها، وترتب على ذلك أننا نقرأ كلمات من القرآن بطريقة لم ترو عن النبي عليه السلام.

## رأى المستشرق (جول تسيهر) في رسم المصحف والقراءات:

يقرر ذلك المستشرق أن نشأة الكثرة من القراءات المختلفة ترجع إلى رسم المصحف، يقول: «ترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات - يقصد الاختلاف في القراءات - إلى خصوصية الخط العربي.. إلى أن يقول: وإذن فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط، واختلاف الحركات.. كانا هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات في نص لم يكن منقوفا أصلاً، ولم تتحر الدقة في نقطه أو تحريكه»<sup>(١)</sup>.

وعجبت كيف يتورط ذلك المستشرق في هذا الخطأ الفادح؟ ومن أين تسرب إلى فكره هذا الرأي الخطير الذي يرجع الكثرة من القراءات إلى الخط أو إلى رسم المصحف؟ إنه بهذا الرأي يهدم الحقيقة التي استقرت في نفوس المسلمين أن القراءات مصدرها الرواية والسماع لا الخط والرسم.

قلت في نفسي: لعل هذا المستشرق استقى هذا الرأي من الزمخشري حينما وقف من قراءة ابن عامر - موقف المعارض - للآية المشهورة في سورة (الأنعام): ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم﴾<sup>(٢)</sup> برفع القتل ونصب الأولاد، وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء، والفصل بينهما في غير ظرف.

وكان من رأى الزمخشري أن هذه القراءة مردودة، وأرجع الزمخشري خطأ ابن عامر في هذه القراءة إلى رسم المصحف حيث قال: «والذي حمله على ذلك أنه رأى في بعض المصاحف (شركائهم) مكتوباً بالياء»<sup>(٣)</sup> ومعنى ذلك أن ابن عامر اعتمد على المصحف، ولم يعتمد على الرواية.

(٢) (الأنعام: ١٣٨).

(١) مذاهب التفسير الإسلامي ص ٩٠٨.

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري ٢ / ٧٠ نشر دار الريان للتراث.

## ومن هنا فتح الباب أمام المستشرق فقال ما قال:

يقول أبو حيان الأندلسي صاحب البحر المحيط: «وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يردّ على عربي صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم، وفهمهم، وديانتهم» (١).

وقد جانب الصواب هذا المستشرق حينما عرض هذه المغالطة التي تتجافى عن الواقع والتاريخ.

أما مجافاتها عن الواقع، فإنه لو كانت القراءات ترجع إلى رسم المصحف لراعنا هذه الكثرة الهائلة من القراءات التي يحتملها الرسم، والتي لم يثبت أو لم ترو عن النبي عليه السلام.

ذلك لأن الرسم تحتمل الكلمة فيه، وبخاصة إذا لم تكن منقوطة أو مجردة من الحركات وجوها عدة من القراءات.

والقراءات التي بين أيدينا والتي صنّفها العلماء والتي دققوا في عرضها، وثبتوا من سندها قراءات معروفة محدودة، وكلها ترجع إلى الرواية والنقل لا إلى الكتابة والرسم.

وربما كان من أكبر الأدلة على بطلان رأى جولّد تسيهر «أن هذه القراءات رويت وشاعت القراءة بها قبل تدوين المصاحف، كما كان القرآن محفوظاً في الصدور قبل تدوين المصاحف، ثم حين دونت المصاحف لم يكن النقط عرف، ولا الشكل اخترع، فظهرت حركة القراءات قبل النقل والضبط. فكانت قراءاتهم للكلمة على حسب ما يروون وينقلون لا على حسب ما يقرءون في المصاحف» (٢).

وإذا كان نقل اللغة عن المصحف أمراً معيياً يُعدّ تصحيحاً، فالأمر كذلك بالنسبة للمصحف فمن نقل القرآن عنه، وأغلق أذنه دون الرواية، وقع في التصحيح، فحماد الرواية مثلاً حفظ القرآن من المصحف، وقد أخذ عليه أنه كان يقرأ: «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه

(١) البحر المحيط (ج ٤ ص ٢٢٩).

(٢) القراءات واللهجات: عبدالوهاب حمودة ص ١٨٣.

إلا عن موعدة وعدّها إياه) (١) بالباء الموحدة. وحمزة الزيات، كان يتعلم القرآن من المصحف فقرأ يوماً، وأبوه يسمع ﴿الْمَ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (٢) فقال أبوه: دع المصحف، وتلقن من أفواه الرجال.

ومن أجل هذه التصحيفات التي تخل بمنطق الآيات قالوا: «لا تأخذوا القرآن من مصحفى، ولا العلم من صحفى» (٣).

وإلى هذا الوقت نجد معلم (الكتاب) يبتدئ مع التلميذ الصغير أول ما يبتدئ بتحفيظ القرآن الكريم قبل أن يجيد القراءة والكتابة، لإيمانه أن قراءة القرآن أمر لا يؤخذ من الخط والرسم.

وأما مجافاتها للتاريخ، فإن عثمان رضى الله عنه جرد المصحف من النقط، ليحتمل رسم القراءات المروية عن رسول الله ﷺ حتى لا يحدده فى قراءة بعينه أو حرف بعينه، وأصحاب رسول الله ﷺ اتفقوا على صنيع عثمان فى المصحف، وعلى رسمه، وبذلك كانت هذه القراءات الكثيرة لا ترجع إلى الرسم، وإنما مرجعها الأول والأخير إلى السند والرواية.

والدليل الأوضح الذى يهدم رأى المستشرق هو محاكمة ابن شيبوذ الذى ثار عليه العلماء من أجل رأيه الذى يقول فيه: ما وافق خط المصحف العثمانى صحت القراءة به متى صح وجهه فى العربية بقطع النظر عن الرواية (٤).

هذا وقد رجح ابن شيبوذ عن رأيه لما أذّب وعذب واستيب (٥).

### ثالثاً: الإعراب والقرآن الكريم؛

بدأت حركة الأعراب فى القرآن الكريم بتقيط المصحف على يد أبى الأسود ورووا «أنه أحضر له زياد بن أبيه ثلاثين رجلاً لهذا العمل العظيم. فاختار منهم أبو الأسود عشرة، ثم لم يزل يختارهم حتى اختار منهم رجلاً من عبد القيس فقال له: خذ المصحف، وصبغاً يخالف

(١) التوبة/ ١١٤ قرأ «آياه»: «أباه». انظر: مذاهب التفسير الإسلامى/ ٩.

(٢) البقرة: ٢٠١ قرأها: «لا زيت فيه بالزاي والياء».

(٣) التصحيف والتحرif للعكرى ص ٩. (٤) التصحيف والتحرif ص ٩.

(٥) هامش مذاهب التفسير الإسلامى ص ٨.

المداد، فإذا فتحت شفتى فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة فى أسفله، فإذا اتبعت شيئا من هذه الحركات غنةً، فانقط نقطتين، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره، ثم وضع المختصر المنسوب إليه بعد ذلك» (١).

### رأى كارل فولرس فى إعراب القرآن الكريم؛

هذا الرأى أحدث ضجة بين العلماء فى الغرب والشرق ذلك لأن صاحب هذا الرأى قال: «إن القرآن الكريم قد نزل فى الأصل بلهجة محلية من اللهجات العربية، وأنه لم يكن معرباً، ثم أدخل الإعراب عليه على وفق قواعد لغة الشعر» (٢).

وقد رد هذا الرأى من المستشرقين، (كاله)، و(حاييم دين)، وشبهة هؤلاء أن (كاله) وجد فى مخطوطين عثر عليهما فى لندن أحاديث فى الحث على التزام قواعد الإعراب فى قراءة الكتاب العزيز، فاستدل بها على أن الناس لم يكرنوا يراعون الإعراب فى قراءة كتاب الله، فى بادئ الأمر، ثم روعى الإعراب فيها على وفق قواعد المنطق المضبوطة فى الشعر العربى والتى دونها علماء النحو فيما بعد) (٣).

### مناقشة هذا الرأى؛

إن العلة الأولى لهذا الرأى الخطير ترجع إلى وجود بعض أحاديث تنص على التزام الإعراب فى قراءة القرآن كالحديث الذى رواه أبو عبيدة بإسناد له عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعربوا القرآن وكحديث ابن مسعود قال: «أعربوا القرآن فإنه عربى».

وكحديث عمر بن الخطاب: تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه» (٤).

والواقع أن هذه الأحاديث والأخبار فيها نظراً، لأن الإعراب لم يظهر بمعناه الاصطلاحي إلا فى عصر متأخر.

(٢) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ص ٣٢٨.

(١) نزعة الألبا لأبن الأنبارى ص ١٢.

(٣) المرجع نفسه والصفحة.

(٤) الزينة للرازى ص ١١٧.

وفى نظرى أن المراد بالإعراب هنا الإبانة والتوضيح، وفهم الغريب: «وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يسمون هذا الغريب (إعراب القرآن) لأنهم يستبينون معانيه، ويخلصونها» (١).

على أبة حال أستطيع أن أؤكد فى هذا المقال أن هذا الفهم الذى فهمه بعض المستشرقين يدل على جهل باللغة، بل على جهل بالتاريخ.

أما الجهل باللغة، فإن الإعراب هنا كما قلت: معناه، الإبانة والوضوح، يقول الفيروزابادى: «الإعراب: الإبانة والإفصاح عن الشئ» (٢).

وإما أن يرجع الإعراب إلى بيان حلاله وحرامه، أى تعرفوا على ما فيه من حلال فاعملوا به، وعلى ما فيه من حرام - فتجنبوه، يدل على ذلك «أن الصحابة كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا» (٣).

وأما الجهل بالتاريخ، فإن القرآن الكريم نزل على قوم تمكنت من ألسنتهم الفصاحة وغذوا بلبان البلاغة، وتدرّبوا على ميادين القول، ولن يكون ذلك إلا بإعراب، ولو كان بلهجة محلية كما يقول بعض المستشرقين لسهل الأمر وأصبح القرآن غير معجز، لأن من السهل الإتيان بمثله، ومن السهل أن يندثر القرآن الكريم كما اندثرت بعض هذه اللهجات، وأصبحت أثرا بعد عين، أما القرآن الكريم قائم بيننا بصولته البلاغية، يتحدى أرباب القول ويعجز أساطين البلاغة، وهو الذى خلد هذه اللغة، وخلد إعرابها، وجعلها حية بعد هذه السنين الطويلة التى طوت فيما طوت كثيرا من اللغات، فإنه لا سبيل إلى إنكار أنه نزل معربا، وأن القول بخلاف ذلك قول مغرض.

أكبر الظن أن فتح الشغرات فى جبهة القرآن لينال منه من ينال كان من دأب هولاء المستشرقين، ولكن القرآن الكريم أكبر من هذه السخافة، وأقوى من هذه الفتنة، وصدق الله العظيم.. إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.

\*\*\*

(١) اعجاز القرآن للرافعى ص ٥٧.

(٢) القاموس المحيط فى المادة نفسها.

(٣) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ص ٥.

## مصادر البحث ومراجعته

- ١- الإنقان فى علوم القرآن للسيوطى طبعة ثالثة - مطبعة الحلبي.
- ٢- إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعى - مطبعة الاستقامة.
- ٣- البحر المحيط لأبى حبان الأندلسى مطبعة السعادة - طبعة أولى.
- ٤- التصحيف والتحريف للعسكرى - مطبعة الظاهر بمصر سنة ١٣٢٦هـ.
- ٥ - تفسير الكشاف للزمخشري - طبع دار الريان للتراث.
- ٦- تقييد العلم للخطيب البغدادي تحقيق الأستاذ يوسف العث طبع دمشق ١٩٤٩م.
- ٧- الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة.
- ٨ - الزينة فى الكلمات الإسلامية والعربية للرازى، تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني طبع دار الكتاب العربى.
- ٩- الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري - المطبعة الأدبية طبعة أولى سنة ١٣١٧هـ.
- ١٠- القراءات واللهجات للأستاذ عبدالوهاب حمودة - مطبعة السعادة - ط أولى.
- ١١- القاموسى المحيط للغير وزاباوى.
- ١٢- القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية للدكتور عبدالعال سالم مكرم طبع دار المعارف بمصر - وموسسة الصباح بالكويت - ومكتبة التراث بالأزهر.
- ١٣- مذاهب التفسير الإسلامى - لجولد تسيهر تحقيق المرحوم الدكتور عبدالخليم النجار - مطبعة السنة المحمدية.
- ١٤- المصاحف لابن أبى داود - تحقيق الدكتور ارثر جفرى - المطبعة الرحمانية طبعة أولى.
- ١٥- مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة - دائرة المعارف التطامية - الهند.
- ١٦- مقدمتان فى علوم القرآن - تحقيق أرثر جفرى - مطبعة السنة المحمدية.
- ١٧- مقدمة فى أصول التفسير لابن نيمية، تحقيق جميل الشطى - مطبعة الترقى بدمشق.
- ١٨- نزهة الألبا فى طبقات الأدبا لابن الأنبارى طبع ١٢٩٤هـ.

\*\*\*

## ٤. تفسير الكشاف للزمخشري (\*)

### مصدره ومنهجه من خلال الدراسات النحوية

الزمخشري؛ هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد، ولد في رجب سنة سبع وتسعين وأربعمائة، وأخذ الأدب عن كثير من مشايخ عصره، وجاور بمكة.

وله من التصانيف: الكشاف في التفسير، الفائق في غريب الحديث، المفصل في النحو، المستقصى في الأمثال. إلخ... وتوفي يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة<sup>(١)</sup>.

### تفسير الكشاف:

تعددت كتب التفسير في مجالها المختلفة، وتناولت كتاب الله شرحاً وإيضاحاً للكشف عن أسراره، وجلاء معانيه، وبيان أحكامه، لأنه كتاب هذه الأمة، ومن حقها أن تتعرفه، وتتذوق معانيه، لتسير على هديه، وتحيا في رحابه.

ولست في هذه العجالة أستطيع أن أوضح نشأة هذا العلم، وتطوره في العصور المختلفة، فإن لذلك مجالاً آخر قد لا يتسع لهذا البحث.

بيد أني أحب أن أشير هنا إلى أن كتاب الله، وإن كان في الذروة العليا من البلاغة والفصاحة وأنه جاء بلغة العرب التي بها يتكلمون، إلا أنه لا يستوى في المعرفة بجميع ما فيه كل العرب، لأن فيه المتشابه **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾**<sup>(٢)</sup>.

وقال بعض العرب لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه، ونحن العرب حقاً!، فقال: إن ربي علمني فتعلمت<sup>(٣)</sup> فهذا الحديث يدل على أن كلام العرب نفسه لا يفهمه كل العرب، فمن باب أولى أن يكون في كلام الله ما يعز فهمه أو

(\*) نشر في مجلة الفكر الإسلامي - فبراير سنة ١٩٧٠.

(١) بغية الوعاة: السيوطي، ج٢، ص٢٧٩، طبع عيسى الحلبي.

(٢) آل عمران، آية: ٧.

(٣) المسائل: لابن قتيبة: وجه ورقة٤ نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٢٠٩٦٧.

بيانه على العقول، وبخاصة هذه الكلمات التي لم تكد تعرفها العرب من قبل مثل: المسلم، المؤمن، والمنافق، والكافر «لأن الإسلام، والإيمان، والكفر، ظهر على عهد النبي ﷺ، وإنما كانت العرب تعرف الكافر كافر نعمة، ولا تعرفه من معنى الكفر بالله:

قال الشاعر:

\* ولا تحسبني كافرأ لك نعمة \*

وقال آخر:

\* والكفر مخبئة لنفس المنعم \*

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند

«أما المنافق فلا ذكر له في كلام العرب»<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الذي ذكرت أبلغ رد على ابن خلدون الذي ينص في مقدمته: «أن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكلمهم يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه»<sup>(٢)</sup>.

لذلك كان علم التفسير النور الذي يضيء ما خفى على الأذهان، وما غاب عن الإدراك غير أن المفسرين اختلفت مناهجهم، وتعددت طبقاتهم، ويذكر لنا الإمام السيوطي أن المفسرين أربعة أنواع.

١- المفسرون من السلف والصحابة، والتابعين، وأتباع التابعين.

٢- المفسرون من المتحدثين، وهم الذين صنفوا التفاسير مورداً فيها أقوال الصحابة والتابعين بالإسناد.

٣- المفسرون من علماء أهل السنة الذين ضموا إلى التفسير التأويل، والكلام على معاني القرآن، وإعرابه.

٤- المفسرون من المبتدعة كالمعتزلة والشيعة، وأضرابهم.

(١) كتاب الزينة: الشيخ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي المتوفى عام ٣٣٢هـ ج ١، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ص ٣٦٧، المطبعة الأزهرية.

ثم قال السيوطي: «والذى يستحق أن يسمى بالمفسرين من هؤلاء القسم الأول ثم الثانى. وأما الثالث فمؤوله... ولم أستوف أهل القسم الرابع، وإنما ذكرت منهم المشاهير كالزمخشري والرماني، والجبائي وأشباههم»<sup>(١)</sup>.

فالزمخشري اذن من النوع الرابع الذى وصف بالابتداع، ولا يعينى فى هذا المقام أن أناقش السيوطى فى هذه التسمية التى نعت بها صاحبنا الزمخشري وإنما الذى يعينى هو منهج الزمخشري من الوجة النحوية فحسب، هذا من ناحية، ويعينى من ناحية أخرى المصادر التى اعتمد عليها الزمخشري فى تأليفه لهذا الكتاب، من ناحية أخرى.

ولهذه المصادر قصة: خلاصتها أننى فى إعدادى لرسالة الدكتوراه: «القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية» التى تولت طبعتها ونشرها دار المعارف تعرضت لهذه المصادر، فرأيت أن الزمخشري ينقل من غيره دون إشارة إلى ذلك، وأنه نقل نصوصاً كاملة بألفاظها وحروفها من كتاب التفسير الكبير للرماني، ومع ذلك لم يشر إليه.

وقد حملنى على هذا أن أحد أساتذتنا الفضلاء الذين يقومون بتدريس التفسير فى جامعة الكويت أخذه الدهش والعجب أن جار الله الزمخشري يقع فى مثل هذا الخطأ الفاحش فوعده أن أكتب فى هذا، لأن الكتاب الذى احتوى هذا البحث، وأعنى به رسالتى للدكتوراه التى طبعتها دار المعارف قد لا تتاح له فرصة الانتشار الواسع الذى تتمتع به مجلة الفكر الإسلامى، من أجل ذلك أحب أن أخص ما كتبه فى إيجاز.

### دوافع تأليف الزمخشري لكتابه الكشاف:

من هذه الدوافع الإلحاح على الزمخشري من جانب مرديبه فى تأليف مصنف يروى غليلهم، ويتفق ظمأهم، ويبرز لهم ما خفى عليهم من تأويل معنى، أو بيان لفظ.

قال الزمخشري فى مقدمة كتابه «كلما رجعوا إلى فى تفسير آية، فأبرزت لهم بعض

(١) طبقات المفسرين: ص ٢: جلال الدين السيوطى. ط أوروبا.

الحقائق من الحجب، أفاضوا فى الاستحسان والإعجاب، واستطبروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا على مقترحين أن أملى عليهم الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأفاويل من وجوه التأويل»<sup>(١)</sup>.

ولم يقدم الزمخشري على ما اقترحوا «فأبوا إلا المراجعة، والاستشفاع بعظماء الدين، وعلماء العدل والتوحيد»<sup>(٢)</sup>.

وبعد هذا الإلحاح الطويل أملى عليهم مسألة فى الفواتح، وطائفة من الكلام فى حقائق سورة البقرة، وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب، طويل الذبول والأذنان<sup>(٣)</sup>.

ولما صمم العزم على معاودة جوار الله، والإنابة بحرم الله... وحطّ الرحل بمكة....، إذا بالأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله أبى الحسن على بن حمزة بن وهاس يطلب منه تفسير القرآن. قال الزمخشري: «لقد ضاقت على المستعصى الحيل، وعييت به العلل»<sup>(٤)</sup> فأقدم على تأليف هذا الكتاب، تحقيقاً لما طلب منه الأمير.

ولم ينس الزمخشري فى مقدمته أن يعين لنا المدة التى استغرقها تأليف هذا الكتاب فيقول: «ووفق الله وسدد، وفرغ منه فى مقدار خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وكان يقدر تمامه فى أكثر من ثلاثين سنة، وما هى إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت على من بركات هذا الحرم المعظم»<sup>(٥)</sup>.

وفى خاتمة مقدمته توصل الزمخشري إلى ربه قائلاً: «أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سبباً ينجيني، ونوراً على الصراط يسعى بين يدي ويميني، ونعم المستول»<sup>(٦)</sup>.

### من أهم المصادر التى اعتمدها الزمخشري فى تفسيره الرومانى:

من شأن العلماء الذين يعينهم أولاً وقبل كل شىء خدمة العلم أن يكونوا أمناء، فإن الأمانة فى العلم ليست أمراً سهلاً، ولا أبالغ إذا قلت: إنها رسالة، ومن شأن أصحاب

(١) مقدمة الكشاف للزمخشري بتصرف . (٢) نفس المقدمة.

(٣) المقدمة نفسها. (٤) مقدمة الزمخشري فى كشافه بتصرف.

(٥) المقدمة نفسها. (٦) المقدمة نفسها.

الرسالات أن يتصفوا بما يتصف به الأنبياء والرسل، يؤدون الأمانة، ويبلغون الرسالة، شعارهم ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ (١).

وصعب على نفسى أن جاز الله الزمخشري لم يبين لنا المصادر التى اعتمد عليها فى كتابه. فأبو حيان النحوى فى كتابه العظيم البحر المحيط، وضع فى مقدمته المصادر التى انتفع بها، وبذلك أدى للضمير حقه، وللعلم أمانته، فيقول مثلاً: «فما كان فى كتابى هذا من تفسير الزمخشري رحمه الله، فأخبرنى به أستاذنا العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الزبير قراءة منى عليه فيه. ثم يقول: «وما كان فى هذا الكتاب من تفسير ابن عطية فأخبرنى به القاضى الإمام أبو على الحسين بن عبدالعزيز بن أبى الأحوص القرشى قراءة منى عليه لبعضه» (٢).

وعلى هذا النهج يسير أبو حيان مبيناً المصادر التى اعتمد عليها سواء كانت فى التفسير أو فى النحو أو فى القراءة أو فى اللغة، ولكنك حينما تقرأ مقدمة الزمخشري فلا تجد شيئاً من ذلك اللهم إلا الإشادة بمن سلك فى دروب علم التفسير الوعرة التى لا يتحمل السير فيها إلا أولو العزم من العلماء: يطالعك فى مقدمة كتابه بهذه العبارات الرشيقة الأخاذة «فالفقيه وإن برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام. والمتكلم وإن بز أهل الدنيا فى صناعة الكلام. وحافظ القصص والأخبار، وإن كان من ابن القرية أحفظ. والواعظ، وإن كان من الحسن البصرى أوعظ. والنحوى، وإن كان أنحى من سيويه. واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحيه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك الطرائق، ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعانى، وعلم البيان... إلى أن يقول: بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين تحقيق وحفظ. إلى أن يقول: فارساً فى علم الأعراب... وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة مقادها، مشتعل القريحة وقادها الخ» (٣).

وتنتهى المقدمة، ولم يحاول أن يشير إلى مرجع واحد، يكون قد انتفع به على الرغم من كثرة المصادر فى التفسير التى سبقته.

(٢) مقدمة البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى.

(١) الليل: آية ١٩، ٢٠.

(٣) مقدمة الزمخشري لكشافه.

لعل قائلاً يقول: قد تكون هذه عادة العصر، وأن العلماء في هذا العهد كان يأخذ بعضهم عن بعض، ولا يرون حرجاً في عدم الإشارة إلى ذلك، فأقول له: هذه عادة الزمخشري وحده، فقد سبقه الكثير من المؤلفين في مجالات التفسير، والقراءات، والنحو، ومع ذلك كان الكثير منهم يحرص على أن يسند كل رأى إلى صاحبه، وكل قول إلى من صدر عنه، انظر مثلاً: إلى أبي على الفارسي تجده في كتابه الحجة في القراءات السبع، يبين أنه «لم يكن أول نحوى شرح في الاحتجاج لهذه القراءات فقد سبقه إلى ذلك أبو بكر محمد ابن السرى في تفسير صدر من ذلك في كتاب كان قد ابتدأ بإملائه... إلخ»<sup>(١)</sup>.

على آية حال كانت، فإن من غريب المصادفات أنني قرأت في كتاب «النجوم الزاهرة» أن «للرمانى كتاب التفسير الكبير، وهو كثير الفوائد إلا أنه صرح فيه بالاعتزال، وسلك الزمخشري سبيله وزاد عليه»<sup>(٢)</sup>.

ولفتت هذه العبارة الأخيرة نظري، وكانت مفتاح السر الذى فتح باب هذا البحث على مصراعيه أمامي، ذلك لأننى أردت أن أعرف درجة تأثر الزمخشري بالرمانى، فذهبت أبحث في فهارس المخطوطات عن تفسير الرمانى، وأخيراً عثرت على تفسير جزء «عم» للرمانى فى مكتبة العلامة أحمد تيمور.

ومن حق القارىء قبل أن أضع له النقاط على الحروف فى هذا المجال أن يعرف فى إيجاز من هو الرمانى صاحب التفسير الكبير الذى سلك الزمخشري سبيله فأبادر على الفور فأقول:

الرمانى: هو على عيسى بن على بن عبدالحسن أبو الحسن الرمانى، كان إماماً فى العربية علامة فى الأدب، فى طبقة الفارسي، والسيرافى معتزلياً.

ولد سنة ست وسبعين ومائتين، وأخذ عن الزجاج، وابن السراج، وابن دريد. قال السيوطى: لم ير مثله قط علماً بالنحو، وغزارة بالكلام، وبصراً بالمقالات، وكان يمزج النحو

(١) مقدمة الحجة لأبى على الفارسي: نسخة مصورة رقم ٤٦٣ - قراءات - دار الكتب المصرية.

(٢) النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٦٨.

بالمنطق حتى قال الفارسي: إن كان النحو ما يقوله الرماني، فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما نقوله نحن، فليس معه منه شيء.

ومات الرماني سنة أربع وثمانين وثلاثمائة<sup>(١)</sup>.

### تقارب النصوص بين التفسيرين:

قلت: إن مكتبة تيمور تضم جزء «عم» من تفسير الرماني الكبير، ففي فهرس المكتبة التيمورية، الجزء الأول، ص ٧٦، جاء ما نصه: «تفسير جزء عم» تأليف العلامة أبي الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي المتوفى عام ٣٨٤هـ ليس له خطبة، نسخ سنة ١٠٩٦هـ، ورقم المخطوط في الفهرس ٢٠١ - تفسير.

بدأت أقارن نصوص هذا التفسير بنصوص الكشاف للزمخشري فوضحت لي الحقيقة سافرة مشرقة تؤكد أن الزمخشري سطا على هذا التفسير، ونسب الكثير منه إلى نفسه حيث لم يصرح بالمصدر الذي نقل عنه.

وقبل أن أصدر هذا التأكيد قمت بعدة فروض أتمس فيها براءة الزمخشري من التهمة التي وجهتها إليه، ولكن مع الأسف تبددت الفروض، وبقيت التهمة قائمة إلى أن يهيء الله من رجالات العلم من يقوم بمواصلة هذا البحث، فيبريء ساحة جبار الله مما نسب إليه، وحينئذ يشفى نفسى من حرج الاتهام، تقديراً لجبار الله، وتكريماً لهذا التفسير الذي تألق نجم الزمخشري في سماء المعرفة بسببه مما جعله يقول عنه:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد

وليس فيها لعمري مثل كشافى

إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته

فالجهل كالداء، والكشاف كالشافي<sup>(٢)</sup>

(١) بغية الوعاة للسيوطى، ج ٢، ص ١٨٠، معجم الأدباء لياقوت، ج ١٤، ص ٧٥.

(٢) بغية الوعاة: ج ٢، ص ١٨٠.

فمن هذه الفروض التي قمت بها الشك في نسبة تفسير جزء عم الذي تضمه مكتبة تيمور إلى الرماني، وقلت لعله لرماني آخر، تأخر زمنه عن زمن الزمخشري فنقل من الكشاف ما نقل ونسبه إلى نفسه، ورجعت إلى كتب الطبقات فوجدت أنه اشتهر ثلاثة من النحاة بهذا اللقب: أحد هؤلاء: الرماني المشهور صاحب التفسير الكبير الذي تحدثنا عنه. والثاني: هو: أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد أبو عبدالله الرماني المعروف بابن الشرايبي توفي سنة خمس عشرة وأربعمائة<sup>(١)</sup>.

والثالث هو: علي بن عبدالله بن محمد بن علي بن رمان التونسي أخذ عنه ابن عصفور، ولم يذكر السيوطي في بغيته سنة وفاته، غير أنه من الممكن معرفة عصره الذي عاش فيه بمعرفة ميلاد ابن عصفور أو موته، أمّا ميلاد ابن عصفور، فقد كان سنة سبع وتسعين وخمسائة، وأما تاريخ وفاته فقد ذكر أنه توفي سنة ثلاث، وقيل تسع وستين وستمائة<sup>(٢)</sup>.

ومعنى ذلك أن الرماني الذي أخذ عنه ابن عصفور من رجال القرن السابع.

وإذا تبين لنا أن الزمخشري توفي سنة ثمان وثلاثين وخمسائة، فإن الرماني الثاني سابق للزمخشري غير أنه لم تكن له مؤلفات في القرآن، أو في التفسير أو في القراءات أو في النحو، على حين نصّ عليّ أن الرماني الأسبق علي بن عيسى له تفسير كبير في القرآن، لذلك نفى نسبة تفسير جزء عم لهذا الرماني السابق المعروف بابن الشرايبي.

وأما الرماني الثالث، فليس له من المؤلفات القرآنية كذلك ما يجعلنا ننسب هذا التفسير إليه.

وإذا انتفى أن يكون تفسير جزء عم لأحد من هذين الرجلين، فأكبر الظن أنه للرماني الأول علي بن عيسى، وأن الزمخشري اطلع عليه، وأفاد منه، بل نقل منه نصوصا بأسرها وكان واجب الأمانة العلمية يقضى بأن يشير إلى ذلك في كتابه.

ويعجبني في هذا المقام تعليق السيوطي على الشيخ بهاء الدين بن النحاس حينما ذكر السيوطي في كتابه «الأشباه والنظائر» أن الفروع هي التي تحتاج إلى العلامات، وأن الأصول

(٢) بغية الوعاة، ص ٣٥٧.

(١) بغية الوعاة، ص ١٥١.

لا تحتاج إلى علامة مستدلاً بنص نقله الشيخ بهاء الدين في التعليقة<sup>١</sup> قال: «وجدت ذلك بخط غالى بن عثمان بن جنى عن أبيه قال: بدليل أنك تقول فى المذكور قائم وإذا أردت التأنيث، قلت: قائمة، فبحث بالعلامة عند المؤنث، ولم تأت للمذكر بعلامة. وتقول: رأيت رجلاً فلا تحتاج إلى العلامة، وإن أردت التعريف أدخلت العلامة فى الفرع، الذى هو التعريف فقلت: الرجل ولم تدخلها فى التنكير، وإذا أردت بالفعل المضارع الاستقبال أدخلت عليه السين لتدل بها على استقباله، وذلك يدل على أن أصله موضوع للحال، ولو كان الاستقبال فيه أصلاً لما احتاج إلى علامة».

قال السيوطى: «وانظر إلى الشيخ بهاء الدين وأمانته كيف وجد فائدة بخط ولد ابن جنى نقلها عن أبيه، ولم تسطر فى كتاب فنقلها عنه، ولم يستجز ذكرها من غير عزو إليه لالكالساروق الذى أغار على تصانيفى التى أقمت فى تبعها سنين، وهى:

كتاب المعجزات الكبير - كتاب الخصائص الصغرى. وغير ذلك. فسرقها، وضمها، وغيرها مما سرقة من كتب الخضرى، والسخاوى فى مجموع، وأدعاه لنفسه... وليس هذا من أداء الأمانة فى العلم»<sup>(١)</sup>.

وبعد، فما الدليل على أن الزمخشرى سطا فى تفسير الرمانى، وأخذ منه ما أخذ دون عزو أو إشارة إلى من أخذ عنه.

دليلى على ذلك هذه الأمثلة، وهى غَيْضٌ من فيض. وقطرة من سيل.

١- مالك يوم الدين:

قال الرمانى: «فإن قلت: ما هذه الإضافة، قلت هى إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع بجرى مجرى المفعول، كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، والمعنى على الظرفية ومعناه: مالك الأمر كله يوم الدين، كقوله: «لمن الملك اليوم».

فإن قلت: بإضافة الفاعل إضافة غير حقيقية، فلا تكون معطية معنى التعريف فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة، قلت: إنما تكون غير حقيقية إذا أريد باسم الفاعل الحال والاستقبال.

(١) الأشياء والنظائر بتحقيقى جـ ٢، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ - نشر مؤسسة الرسالة.

فكان في تقدير الانفصال، كقولك: مالك الساعة الآن، أو غداً. فأماً إذا قصد معنى الماضي كقولك: هو مالك عبده أمس، أو زمان مستمر كقولك: زيد مالك العبيد كانت الإضافة حقيقية كقولك: مولى العبيد، وهذا هو المعنى في مالك يوم الدين»<sup>(١)</sup>.

والنص نفسه حرفياً في تفسير الكشاف<sup>(٢)</sup>.

٢- إياك نعبد:

قال الرماني: «إياه ضمير منفصل للمنصوب، واللواحق التي تلحقه من الكاف، والهاء، والياء في قولك: إياك، وإياه، وإياي لبيان الخطاب والغيبة والتكلم، ولا محل لها من الإعراب، كما لا محل للكاف في أرايتك، وليست بأسماء مضمرة، وهو مذهب الأخفش وعليه المحققون.

وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب: «إذا بلغ الرجل الستين، فأياه، وإيا الشواب فشيء شاذ لا يعول عليه»<sup>(٣)</sup>.

ولما رجعت إلى تفسير الكشاف في هذا الموضوع رأيت الزمخشري ينقل النص بعينه، ولم يحاول أن يغير فيه أو يبدل<sup>(٤)</sup>.

٣- على أن هناك بعض النصوص أخذها الزمخشري عن الرماني، وحاول أن يغير فيها بالتقديم والتأخير والحذف والزيادة. انظر مثلاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾<sup>(٥)</sup>. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾<sup>(٦)</sup>. نجد أن النصوص في التفسيرين متقاربة، وأن الزمخشري لم يزد شيئاً غير المساس بالنص من حيث التقديم والتأخير، والحذف.

وبهذه المقارنة التي قمت بها في التفسيرين أصدرت حكماً في حرج، وبينت أن

(٢) تفسير الكشاف، ج ١، ص ٦.

(٤) تفسير الكشاف، ج ١، ص ١١.

(١) تفسير جزء عم للرماني: ورقة ١٢.

(٣) تفسير جزء عم للرماني: ورقة ١٣.

(٥) النبأ: آية ٤٠.

(٦) الفجر آية: ٤. انظر في الموضعين: تفسير جزء عم للرماني ورقة ٢٨، والكشاف ج ٢، ص ٤٥٠، وجزء عم

للرماني ورقة ٨٢، والكشاف ج ٢، ص ٤٦٩.

الزمخشري من هؤلاء الذين يعنيه السبوطى فى نصه السابق، من هؤلاء الذين لم يؤدوا أمانة العلم. ولكن هل انتهت القضية عند هذا الحد؟ لا أدعى لنفسى أن حكمى لا يقبل الاستئناف فما أنا إلا حامل مصباح لمن يسير فى الطريق، والحقيقة بنت البحث، فإلى هؤلاء الباحثين أقدم شكرى العميق لمن يسير إلى نهاية المطاف، ويبدأ من حيث انتهيت لوضع النقاط على الحروف فى هذه القضية.

ووفاء بحق العلم، وأداء لأمانته، أحب أن أضع بين يدى الباحثين هذا الخيط الجديد الذى لم يتيسر لى فى أثناء عرضى لهذا الموضوع من كتابى «القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية»، وذلك لربط ما قلت بما سيقولون.

لم أجد فى الفهارس المخطوطة فى دار الكتب، وفى مخطوطات الجامعة العربية جزءاً من تفسير الرمانى غير الجزء السالف الذكر الذى تضمه مكتبة تيمور، غير أنى لم أقتنع بهذا فسألت المختصين فى معهد المخطوطات بالجامعة العربية عن تفسير الرمانى، فذكروا لى أن هناك جزءاً من هذا التفسير لم يلحق بعد بالفهارس المخطوطة المطبوعة، وقد صور من مكتبة المسجد الأقصى، وقد كتب على الورقة الأولى من هذا المخطوط ما نصه:

المكتبة: المسجد الأقصى -

رقم المخطوط فيها: ٢٩

اسم الكتاب : تفسير القرآن، الجزء الثانى عشر.

اسم المؤلف : على بن عيسى الرمانى (هكذا كتب عليه بخط حديث)

تاريخ النسخ : القرن السادس - خط نسخى نفيس مشكول.

عدد الأوراق : ١٥٠

الملاحظات : يتبدى بتفسير قوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾<sup>(١)</sup> من سورة إبراهيم.

وحينما وضعتُ هذا «الفيلم» تحت «المكبر»، وجدت أن هذا التفسير يسير على نمط الأسئلة والأجوبة، تراه مثلاً يقول فى قوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ﴾.

(١) إبراهيم/١٧.

«يقال: ما التجرع؟ الجواب تناول المشروبات جرعة جرعة...»

ويقال: ما الإساعة؟ والجواب إجراء الشراب في الحلق على تقبل النفس.

ويقال: ما الموت؟ والجواب: عرض يضاد الإدراك في البنية الحيوانية»<sup>(١)</sup> إلخ....

وعلى هذه الطريقة يسير تفسيره، أغلب الظن أنها طريقة حديثة في التفسير نسبتها إلى رجل من رجالات القرن الرابع أمر غير مقبول، لأن المفسرين السابقين، أو المعاصرين له، لم ي نهجوا هذا المنهج في تفسيرهم هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الرماني اشتهر بين علماء عصره بالأسلوب الغامض حتى قال الفارسي عنه «إن كان النحو ما يقوله الرماني، فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما نقوله نحن، فليس معه منه شيء»<sup>(٢)</sup>.

فنسبة هذا الجزء إلى الرماني أمر مشكوك فيه، وبخاصة، فإن نسبة هذا الكتاب إلى الرماني على الصفحة الأولى منه مكتوب بخط حديث كما هو واضح في المخطوطة المصورة.

ومن حسن الحظ أنني حينما اطلعت على فهارس المكتبات الأوروبية وجدت في فهرس المكتبة الأهلية بباريس، ص ٢٨٧ أن هذه المكتبة تضم جزءاً من تفسير الرماني، وقد اتصلت ببعض العلماء هناك لتصوير هذا الجزء وإرساله، لإلقاء الضوء الكاشف على هذه القضية، وإنا لمنتظرون.

وحتى الآن ما زالت نفسي مطمئنة إلى أن تفسير جزء عمّ للرماني نسبتة إليه صحيحة لأن العلامة أحمد تيمور كان مولعاً بجمع هذه الكتب النفيسة، وكان يعلق على كثير منها فوجوده في خزائنه، ووجود النسبة إلى الرماني على الصفحة الأولى من هذا المخطوط يشعرون بأن هذا الجزء أصح نسبة إلى الرماني من الجزء الآخر الذي صوره معهد المخطوطات على أية حال، ما زلت أقول: إن هذه القضية مفتوحة لمن يدلي بدلوه بين الدلاء خدمة للعلم، وإيماناً بالمعرفة، وإرضاء للضمير.

(٢) البغية: ج ٢، ص ١٨٠.

(١) انظر ورقة ١ من هذا الجزء.

## منهج الرمخشي في الدراسة النحوية:

١- النظر من خلال الدراسة النحوية إلى الذوق الأدبي، والأسلوب البلاغي بغض النظر عن تقديرات النحاة.

يقول في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾<sup>(١)</sup> «ومحل هدى للمتقين الرفع لأنه خبر مبتدأ محذوف أو خبر مع لا ريب فيه لذلك» أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقدم خبراً عنه ويجوز أن ينتصب على الحال، والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف.

ثم قال: «والذي هو أرسخ عرفاً في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً، وأن يقال: إن قوله: التّم جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، وذلك الكتاب جملة ثانية، ولا ريب فيه ثالثة، وهدي للمتقين رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، وموجب حسن النظم، جرىء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق وذلك لمجيئها متأخية، أخذاً بعضها بعنق بعض»<sup>(١)</sup>.

٢- يجرى في معظم تناوله للنحو القرآني مجرى مذهب البصريين، ففي الآية الكريمة: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانِيهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا﴾<sup>(٢)</sup> يصف مذهب الصريين فيها بالسداد، ولا يكتفى بذلك، بل يشيد بكتاب سيويه، ولا يقنع بهذه الإشادة، بل يجب الجثوب بين يدي الناظر في كتاب سيويه<sup>(٣)</sup>.

٣- ومن منهجه الاعتماد على القراءة لتصحيح الوجه الإعرابي، فيقول في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾<sup>(٤)</sup> أشد معطوف على الكاف إما على معنى أو مثل أشد قسوة، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

وتعضده قراءة الأعمش بنصب الدال عطفاً على الخجارة<sup>(٥)</sup>.

٤- ومن منهجه التعرض للغات العرب، ففي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتُ﴾<sup>(٦)</sup> يقول: «يوم»

(١) الكشاف، ج ١، ص ٢٩. البقرة/ ٢ (٢) الأعراف: آية ١٣٢.

(٣) الكشاف، ج ٢، ص ١١٥. (٤) البقرة: آية: ٧٤.

(٥) الكشاف، ج ١، ص ١١٦. (٦) هود: ١٠٥.

يأت بغير ياء، ونحوه قولهم: لا أدر، حكاه الخليل وسيبويه، وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل»<sup>(١)</sup>.

٥- ولا يعتد ببعض القراءات الصحيحة كقراءة ابن عامر أحد القراء السبعة حيث وقف منها الزمخشري موقف الناقد، وذلك في قراءة قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup> حيث قرأ ابن عامر «قتل أولادهم شركائهم» برفع القتل، ونصب الأولاد، وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء، والفصل بينهما في غير ظرف. وأرجع الزمخشري خطأ ابن عامر إلى رسم المصحف حيث قال: «والذي حملة على ذلك أنه رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء»<sup>(٣)</sup>.

وقد حمل أبو حيان الأندلسي على الزمخشري حملة عنيفة حيث قال عنه: «وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم وفهمهم وديانتهم»<sup>(٤)</sup>.

٦- ومن أخطاء الزمخشري المنهجية: ظنه أن القراءة مرجعها إلى اللغة والنحو لا إلى السند والرواية. يقول في قوله تعالى: ﴿هَٰئِلِكِ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾<sup>(٥)</sup> وقرئ الحق بالرفع، والجر صفة للولاية، والله.

وقرأ أبو عمرو بن عبيد بالنصب على التأكيد كقولك: هذا عبدالله الحق، لا الباطل، وهي قراءة حسنة فصيحة، وكان عمرو بن عبيد من أفصح الناس وأنصحهم»<sup>(٦)</sup>.

(١) الكشاف، ج ٢، ص ٣٣٥.

(٢) الأنعام: ١٣٨.

(٣) البحر المحيط، ج ٤، ص ٢٢٩: أبو حيان الأندلسي.

(٤) المرجع السابق والصفحة.

(٥) الكهف: ٤٤.

(٦) الكشاف، وج ٢، ص ٥٦٦.

قال أحمد بن المنير: يرّد عليه زعمه هذا، فإنه يوهم أن القراءة موكولة إلى رأى الفصحاء واجتهاد البلغاء، فتفاوت فى الفصاحة لتفاوتهم فيها، وهذا منكر شنيع. والحق لا يجوز لأحد أن يقرأ إلا بما سمعه فوعاه متصلاً<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

وبعد، فإن الزمخشري وكتابه الكشاف فى حاجة إلى دراسة واسعة لا يتسع هذا البحث للإفاضة فيها، وقد ضمّ كتابى «القرآن الكريم وآثره فى الدراسات النحوية» بعضاً من هذه الدراسة.

أما ما ذكرته هنا، فهو غييض من فيض، ويكفى من القلادة - فى هذا المقام - ما أحاط بالعنى.

أرجو الله أن يجعل الحق رائدنا، والعلم وحده غايتنا، والعمل من أجل كتابه الكريم هدفنا الأسمى، إنه نعم المولى، ونعم النصير.

\*\*\*

---

(١) الانتصاف، ج ٥، ص ٥٥٦ (هامش الكشاف).

## مصادر البحث ومراجعته

- ١- الأشباه والنظائر للسيوطى - تحقيق - د. عبدالعال سالم مكرم - نشر مؤسسة الرسالة.
- ٢- الانتصاف - هامش الكشف لأحمد بن المنير - مطبعة الاستقامة.
- ٣- البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى - مطبعة السعادة - ط أولى ودار الطباعة المصرية سنة ١٢٨١ هـ.
- ٤- بغية الوعاة للسيوطى - طبع عيسى الحلبي.
- ٥ - تفسير جزء عم للرماني - مخطوط - مكتبة تيمور رقم ٢٠١ - تفسير.
- ٦- الحجة لأبى على الفارسي - مخطوط - نسخة مصورة رقم ٢٤٦٣ - دار الكتب المصرية.
- ٧ - الزينة فى الكلمات الإسلامية والعربية للرازى - تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني طبع دار الكتاب العربى طبعة ثانية سنة ١٩٥٧ .
- ٨ - طبقات المفسرين للسيوطى طبع أوروبا.
- ٩- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري - مطبعة الاستقامة طبعة ثانية - ودار الطباعة المصرية سنة ١٢٨١ هـ.
- ١٠- المسائل لابن قتيبة - مخطوط - نسخة مصورة - مكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٢٠٩٦٧ .
- ١١- معجم الأدباء لياقوت - نشر دار المستشرق - بيروت - لبنان.
- ١٢- مقدمة ابن خلدون - المطبعة الأزهرية.

\*\*\*

## ٥. غريب القرآن الكريم بين اللهجة القرشية واللهجات العربية\*

### ١- اللهجة القرشية:

من المكرر المعاد القول بأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فهذه حقيقة لا يختلف فيها أحد، اللهم إلا من أعمى الله أبصارهم وطمس على قلوبهم.

وقد أكد الله سبحانه هذه الحقيقة حيث أعادها أكثر من مرة في كتابه العظيم حيث يقول - ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١).

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (٢).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٣).

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ (٤).

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (٥).

﴿كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (٦).

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (٧).

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (٨).

﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ (٩).

ويذكر الرواة والعلماء أنه نزل بلهجة قريش، ولهجة قريش، هي اللهجة النموذجية الأدبية، وقد نضجت حتى وصلت إلى الذروة في فصاحتها وبلاغتها.

(\*) نشر في مجلة الوعي الإسلامي مارس ١٩٧١.

(١) النحل: ١٠٣. (٢) الشعراء: ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥.

(٣) يوسف: ٢. (٤) الرعد: ٣٧.

(٥) طه: ١١٣. (٦) فصلت: ٣.

(٧) الشورى: ٧. (٨) الزخرف: ٣. (٩) الأحقاف: ١٢.

وقد شاع بين العلماء هذا القول، وسجلته كتب الرواية والتاريخ حتى أوشك أن يكون حقيقة مؤكدة.

وقد أرجع بعض العلماء المحدثين الانتصار الكبير للهجة القرشية في مجال الفصاحة والبلاغة إلى عدة عوامل أجملها فيما يأتي:

#### ١- العامل الجغرافي؛

لأن قريشا تسكن منطقة مستقلة تسمى حجازاً لها يحفظها من التأثير البعيد المدى بالمؤثرات الخارجية، وللك احتفظت بخصائصها اللغوية.

#### ٢- العامل الديني؛

فقد كانت قريش سدنة البيت، والبيت محجة العرب في الجاهلية.

#### ٣- العامل الاقتصادي؛

فمعظم تجارة العرب كانت في أيدي قريش يجوبون بها طرف الجزيرة شمالاً، وجنوباً ومجامع العرب وأسواقها بعد الحجيج كانت تعقد على مقربة من مكة.

#### ٤- العامل السياسي؛

وهو مرتب على العوامل السابقة، وقد يسر ذلك كله أسباب النفوذ لقريش في أنحاء الجزيرة<sup>(١)</sup>.

ومن القدماء الذين أثار عنهم هذا القول «أبونصر الفارابي» فقد قال في كتابه المسمى بـ «الألفاظ والحروف» كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق<sup>(٢)</sup>.

من هذا الذي قدمت تبين لنا في وضوح السر الذي من أجله نزل القرآن الكريم بهذه اللهجة القرشية، فرسول الله ﷺ الذي نزل القرآن الكريم على قلبه لينذر به قومه «أفصح

(١) من مقال المرحوم الدكتور النجار: مجلة الأزهر مجلد ٢٣ ص ٤٩.

(٢) المزهج ١ ص ١٢٨ مطبعة السعادة.

العرب، وهو من قريش، وقريش من ولد إسماعيل، وولد إسماعيل من اليمن الذين هم من ولد يعرب بن قحطان» (١).

وحينما كتب المصحف قال عثمان رضى الله عنه للرهط القرشيين الثلاثة «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم» (٢).

قال الزهرى : فاختلفوا فى «التابوت» فقال زيد: هو «التابوه» وقال النفر القرشيون هو «التابوت» فرفع الأمر إلى عثمان فقال: اكتبوه بلسان قريش، فإن القرآن نزل بلسانهم» (٣).

وفى رأيي أن نزول القرآن الكريم باللهجة القرشية دون غيرها من اللهجات العربية أمر فيه نظر، فإن القرآن الكريم اشتمل على كثير من لهجات العرب التى انتشرت فى الجزيرة العربية، ولو كان الأمر كما يقول هؤلاء المؤرخون - لما رأينا بعض الصحابة يرجع إلى النبى ﷺ ليفسر له بعض كلمات القرآن التى غمض عليه معناها، فقد سأله السائل فى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بَظُلْمٍ﴾ (٤).

قائلاً: وأينا لم يظلم نفسه؟ فيفسر له النبى ﷺ هذا الظلم بالشرك مستشهداً بقوله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٥).

وإيمانى بهذا الرأى يبعد ما يدعيه بعض المحدثين من أن الإسلام فرض على العرب جميعاً لغة عامة هى لغة قريش، مع أن الإسلام بريء من هذا الإدعاء، فقد نزل القرآن بسبعة أحرف ليسر للعرب جميعاً الانتفاع به، والالتصاق بأحكامه وآدابه.

وقد بينت ذلك فى بحث سابق نشر فى «مجلة الفكر الإسلامى» (٦).

ومالى أذهب بعيداً، فقد وضع الأمر فى نصابه رسول الله ﷺ حينما رد على بعض أصحابه الذين سألوه: «يا رسول الله: «إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه، ونحن

(٢) الاتقان ج ١ ص ٥٩.

(٤) الأنعام: ٨٢.

(١) الزينة ج ١ ص ١٤٦.

(٣) الزينة ج ١ ص ١٤٦.

(٥) لقمان: ١٣.

(٦) مجلة الفكر الإسلامى، العدد التاسع.

العرب حقا فقال: إن ربي علمني فتعلمت»<sup>(١)</sup> ألا يدل هذا على أن النبي عليه السلام الذي تربى في قريش، ونشأ بين أحضانها علمه ربه كلام العرب، لأنه أرسل إليهم خاصة وإلى الناس عامة؟ وكيف يتحدى العرب بهذه المعجزة الخالدة ولغة القرآن لغة قبيلة واحدة؟

إن القول بأن القرآن الكريم إنما نزل بلسان قريش وحدها يتعارض مع النصوص القرآنية ذاتها فالنصوص السابقة التي سجلتها في مقدمة هذا البحث تؤكد أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فكيف أتحكام في تفسير اللسان العربي بأنه اللسان القرشي؟ وهل قريش وحدها العرب؟ ذلك أمر لا يقبله المنطق.

وكيف نفسر قول أبي بكر حينما سأله سائل عن قوله تعالى: «وَكَانَ اللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ مُّقَيَّنًا»<sup>(٢)</sup>. فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم»<sup>(٣)</sup>. وقول عمر رضی الله عنه حينما قرأ على المنبر «وَأَكْبَهَةٌ وَأَبَا»<sup>(٤)</sup>. فقال: «هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال - لعمرك إن هذا هو التكلف يا عمر»<sup>(٥)</sup> فلو كان أبو بكر رضی الله عنه يعلم معنى «مقيتا» لما وقف حائراً أمامها، ولاذ بالصمت في مجالها، ولو كان عمر رضی الله عنه يعرف معنى «أبا» لما تساءل هذا التساؤل.

كل ذلك يفسر أن القرآن الكريم «اختص بدقيق المعاني، وكنوز الأسرار، وعلو مرتبته في الفصاحة، ومبايسته لكلام فصحاء العرب، كل ذلك فيه دلالة على شرفه، وأنه فائق على غيره من سائر الكلام كله بحيث لا يدانيه كلام»<sup>(٦)</sup>.

وأحب أن أبين في هذا المقام أن العرب يختلف بعضهم عن بعض في الإلمام بهذه اللغة الواسعة التي انتشرت في أرجاء الجزيرة العربية، وتعددت إلى لهجات، ولا أبالغ إذا قلت: إن القبيلة الواحدة قد يعز على بعض أفرادها أن يحيطوا بقاموس لهجتها ومن هنا نعرض إلى قضية أخرى، وهي قضية غريب القرآن.

(١) المسائل لابن قتيبة: ورقة - ٤ - مخطوط.

(٢) النساء: ٨٥.

(٣) مقدمتان في علوم القرآن ص ١٨٣.

(٤) عبس: ٣١.

(٥) مقدمتان في علوم القرآن ص ١٨٣.

(٦) الطراز ج ٣ ص ٢١٩.

## ٢- غريب القرآن:

يوضح لنا «الرافعي» في كتابه «إعجاز القرآن» معنى الغريب فيقول:

في القرآن الكريم ألفاظ اصطلاح على تسميتها بالغرائب، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذة، فإن القرآن منزّه عن هذا جميعه، وإنما اللفظة الغريبة هاهنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل، بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها، وسائر الناس<sup>(١)</sup>.

وفي مجال الغريب ظهر ابن عباس رضي الله عنهما - مفسرا ومبيّنا، وكما يحدثنا التاريخ أنه أول صحابي خاض في معمعة هذا الغريب، وأنه وضع الأسس الأولى لكل من جاء بعده من أصحاب الغريب، وأسئلة نافع بن الأزرق له تدل على قدم راسخة في معرفة لغات العرب، والعلم بمواقع كلامها، ومدلولات ألفاظها، وإليك، أيها القارئ بعض هذه الأمثلة.

١ - سأله نافع عن قول الله تعالى: «عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن عباس: حلق الرفاق، قال نافع، وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى

يكونوا حول منبیره عزينا.

٢ - وسأله عن قوله تعالى: «وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ»<sup>(٣)</sup> قال: الوسيلة الحاجة، أما سمعت قول

عترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة

إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

(١) إعجاز القرآن ص ٧٤.

(٢) المعارج: ٣٧.

(٣) المائدة: ٣٥.

٣ - وسأله عن قوله تعالى: ﴿إِذَا أَنْعَمَ وَبَنِعَهُ﴾ (١) قال: نضجه وبلاغه. أما سمعت قول

القائل:

إذا ما مشت وسط النساء تأودت

كما اهتزَّ غصن ناعم النبت يانع

وسأله عن قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٢) قال: أفلم يعلم .

٤ - أما سمعت قول مالك بن عوف:

لقد يشس الأقبام أنى أنا ابنه

وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً

٥ - وسأله عن قوله تعالى: «وَلَا تَضْحَى» (٣) قال: لاتعرق من شدة حر الشمس.

أما سمعت قول القائل:

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت

فيضحى وأما بالعشى فيخصر

ويعلق الإمام السيوطى على هذه المسائل المتعددة فى الغريب، والتي ذكرت طرفاً منها فى

هذا البحث بقوله:

«هذا آخر مسائل نافع بن الأزرق، وقد حذف منها يسيراً نحو بضعة عشر سؤالاً، وهى

أسئلة مشهورة أخرج الأئمة أفراداً منها بأسانيد مختلفة إلى ابن عباس.

وأخرج أبو بكر الأنبارى فى كتاب «الوقف والابتداء» منها قطعة.

«وأخرج الطبرانى فى معجمه الكبير منها قطعة» (٤).

(٢) الرعد: ٣١.

(١) الأنعام: ٩٩.

(٣) طه: ١١٩.

(٤) الإتيان ج ١ ص ١٣٣.

وعلى الرغم من إنكار الدكتور طه حسين في كتابه «الأدب الجاهلي» قصة استدلال ابن عباس على الكلمات القرآنية الغربية بالشعر العربي، فإننا لانوافق على هذا الإنكار، لأن الدكتور يعتمد على إنكاره هذا بأن هذه القصة قد وضعت في تكلف وتصنع لتثبت أن ألفاظ القرآن الكريم كلها مطابقة للفصح من لغة العرب، أو هذه القصة مدسوسة عليه فقد كان له مولى وهو «عكرمة» يدس عليه كثيرا من الأخبار (١).

والواقع أنه لاداعي لهذه الاحتمالات أو هذه الافتراضات فعبد الله بن عباس يعلم أن الشعر ديوان العرب، وهو المصدر الوحيد الذي يلجأ إليه في تفسير هذا الغريب ولعله كان متأسياً في منهجه هذا بما رواه: «أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: أى علم القرآن أفضل؟ فقال النبي ﷺ عربيته فالتمسوها في الشعر» (٢).

هذا فضلا عن ابن عباس رضى الله عنه تميز عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ بميزة التأويل، وهى ميزة لا تتأنى بالممارسة، أو تكتسب بالتجربة ولكنها إلهام من السماء يفتح له العقل، فيعي، ويحفظ ما وعاه، ويفتح له القلب فيدرك من الأسرار ما لا يدرك غيره، وكان كذلك ابن عباس، لأن النبي عليه السلام دعا له، فقال: «اللهم علمه التأويل» (٣).

ومن حق القارىء بعد هذا الذى قدمت أن يقول: وما دليلك على أن القرآن الكريم اشتمل على لغات أو لهجات غير اللهجة القرشية؟ فأقول له إن المحققين من العلماء بينوا لنا كثيرا من هذه اللهجات، وقد ألف في ذلك إسماعيل بن عمرو المقرئ كتابه «اللغات فى القرآن» وإنى اكتفى بذكر طائفة منها فى سورة واحدة هى سورة البقرة، لتكون دليلا على ما أقول.

من سورة البقرة:

(رَغَدًا) آية ٣٥ = الخصب بلغة طيء.

(١) فى الأدب الجاهلى ص ١٠٩.

(٢) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٦١.

(٣) مفتاح السعادة ج ٢ ص ٤١٥.

(فَأَخَذْتُمْ الصَّاعِقَةَ) آية ٥٥ = الموت بلغة عمان.

(رَجْزًا) آية ٥٩ = العذاب بلغة طي.

(خَاسِئِينَ) آية ٦٥ = صاغرين بلغة كنانة.

(فَبَاءُوا بِغَضَبٍ) آية ٩٠ = استوجبوا بلغة جرهم.

(اشْتَرَوْا) آية ٩٠ = باعوا بلغة هذيل.

(سَفِهَ نَفْسَهُ) آية ١٣٠ = خسر بلغة طيء.

(فَلَارَقَتْ) آية ١٩٧ = الجماع بلغة مذحج.

(ثُمَّ أَفِيضُوا) آية ١٩٩ = انفروا بلغة خزاعة.

(بَغْيًا بَيْنَهُمْ) آية ٢١٣ = الحسد بلغة تميم.

(وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ) آية ٢٢٧ = حققوا بلغة هذيل.

(فَلَا تَعْضَلُوهُمْ) آية ٢٣٢ = لا تحبسوهم بلغة أزد شنوءة.

(فَتَرَكَهُ سَلْدًا) آية ٢٦٤ = أجرد بلغة هذيل (١).

على أن هذه الكلمات عدت غريبة بالنسبة لغير القبائل التي لم تحتو لهجاتها مثل هذه الكلمات أما القبائل التي وردت هذه الكلمات وفق لغاتها فليست بالنسبة لهم غريبة.

ومن هنا كان واجب العلماء أن يتقصوا هذه الكلمات، وينسبوا إلى أصحابها وقد فعلوا تيسيرا المعاني القرآن الكريم، وكشفا للدلالات التي تدل عليها هذه الكلمات، والحق أننا نجد أن العلماء لم يقصروا في هذا المضمار، شمروا عن سواعد جدهم، وبذلوا كل جهدهم، ليدلوا مصاعب هذا الغريب خدمة لكتاب الله وتوضيحا لمعانيه.

ولعلنا إذا بحثنا مدققين عن أول مصنف بطالعنا في هذا المجال نجده كتاب «مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى، فقد نص السيوطي في كتابه «الوسائل» «أن أول من صنف في

(١) اللغات في القرآن ص ٢٠، ص ٢١.

غريب القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى لأنه جاء بعد قتادة بن دعامة السدوسي المتوفى ١١٧ وأبي عمرو بن العلاء المتوفى ١٥٤، وهما لم يخلفا لناثراً مكتوباً، وإنما كانت الأخبار تنقل عنهما مشافهة»<sup>(١)</sup>.

وهذا الكتاب وإن كان يحمل اسم المجاز، فهو فى حقيقة أمره كتاب يدور حول الغريب من الكلمات القرآنية، وتفسير هذا الغريب بالشعر وكلام العرب.

وبعد هذا الكتاب ظهرت كتب أخرى فى الغريب مثل «تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة<sup>(٢)</sup> وكتاب «لغات القرآن»<sup>(٣)</sup> لأبى حيان الأندلسي، وكتاب «اللغات فى القرآن» لإسماعيل بن عمرو<sup>(٤)</sup> وانظر كتب غريب القرآن فى الفهرست لابن النديم تجدها كثيرة.

ومن الحق أن أقرر فى هذا البحث أن هذه اللهجات العربية التى وردت فى القرآن الكريم لم تطغ على لهجة قريش، فمعظم كلمات القرآن الكريم قرشية، ولكنى أظلم الحقيقة حينما أقول: إن القرآن الكريم فرض لهجة قريش على قبائل العرب وألزمهم القراءة بها، ذلك أمر يخالف منطوق الحديث: «إنما أنزل القرآن على سبعة أحرف» وأظلم الحقيقة مرة أخرى لو قلت: إن جميع الكلمات القرآنية قرشية بدليل ما قدمت من كلمات وردت فى هذا الكتاب العزيز غير قرشية على أنه من ظلم الحقيقة مرة ثالثة أن أدعى أن اللهجة القرشية تختلف اختلافاً كبيراً عن غيرها من لهجات العرب ذلك أمر لا تقبله للأمر الآتية:

١ - معرفتنا باللهجة القرشية غير كاملة، فليس لنا معجم يوضح رصيدها من الكلمات، حقا إن هناك دراسات دارت حول خصائص اللهجات، ولكنها محاولات تخطيء وتصيب، وليس لها من المراجع التى تعتمد عليها غير المعاجم، وجمعها لم يكن على منهج علمى سليم، فلم تحاول أن تصنف القبائل، وتنسب كل لفظ إلى مصدره اللهم إلا إشارات معدودة لا تغنى شيئاً فى مجال دراسة اللغات.

(١) الوسائل فى مسامرة الأوائل ص ٦١٢.

(٢) مطبوع بتحقيق الأستاذ سيد صقر.

(٣) مخطوط التيمورية ٧٤ لغة.

(٤) مطبوع.

على أن السيوطى فى «المزهر» يؤكد أن «الذين نقلت عنهم اللغة العربية وبهم اقتدي، وعندهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس، وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ، وعليهم اتكل فى الغرب، وفى الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة»<sup>(١)</sup>.

٢ - من قال إن قريشا أغلقت على نفسها باب الهجرة أو الرحلة من مكان إلى آخر وذلك يبعدها عن الاحتكاك بغيرها من اللهجات الأخرى، فتسلم لها فصاحتها، ويصان لها لسانها..؟

إن هذا القول مخالف لمنطق القرآن الكريم الذى ينص على أن لقريش رحلتين، رحلة الشتاء والصيف، وناهيك بهذه الرحلات، أليس فيها كلمات تتبادل؟ أليس فيها مسميات جديدة لم تعهدها قريش فى لهجتها؟ ألا يؤثر الكلام بعضه فى بعض؟ إن قوانين تصارع اللهجات تثبت هذه الحقيقة، وهى أنه مادام هناك اختلاط فهناك احتكاك لغة بلغة، ولهجة بلهجة، وأسلوب بأسلوب مما لا يجعل القول بصيانة هذه اللهجة فى هذه الحالة قولا صائبا.

هذا فضلا عن الاحتكاك اللغوى والأدبى فى أسواق العرب التى كانت تقام فى الجاهلية ولا تنسى ما يفعله موسم الحج من تأثير لغوى كبير، يقولون: إن قريشا كانت تأخذ من هذه القبائل الموفدة أو التى تختلط بها فى رحلاتهم ماخف وقعه على مسامعهم من الألفاظ الرقيقة والكلمات العذبة الموسيقية، وعلى مدى السنين تكونت لهجتهم، إن صح ذلك فهو دليل على أن لهجة قريش خليط من لهجات متعددة تمثل اللهجات العربية فى الجزيرة العربية، ومن ثم نزل القرآن الكريم بها، لأنها اللهجة التى تتمثل فيها لهجات العرب ولاغرو حينئذ أن تكون اللهجة القرشية التى نزل بها الصورة الحية فى مجال تحدى العرب جميعاً أن يأتوا بمثله.

وهذا القول فى نظرى قريب إلى الصواب، لأن لهجة قريش انتخبت من جميع اللهجات، ولكن حينما نقول: أن لقريش لهجة خاصة فى ألفاظها، وتراكيبها تختلف عن لهجات العرب المنتشرة فى الجزيرة، وأن القرآن الكريم نزل بها وحدها فذلك أمر لا يقبله

(١) المزهر ج ١ ص ١٢٨، الاقتراح: ص ٢٤.

العقل، لأن في القرآن الكريم كما قدمت سابقا كلمات كثيرة ليست قرشية الأصول كما نصت على ذلك كتب الغريب، وكتب المعاجم.

٣ - القبائل العربية قبل الإسلام لم تكن تعيش في عزلة، ومن ثم كانت لهجاتهم جميعاً متقاربة، يفهم بعضهم بعضاً حتى القبائل التي كانت تعيش في شمال الجزيرة لم تتعد في لهجاتها كثيراً عن القبائل التي كانت تعيش في جنوب الجزيرة، بل لا أنجاز الحقيقة إذا قلت: إنها لغة واحدة في صميمها، ولا يعدو الاختلاف أن يكون إلا اختلافاً يسيراً في صفات الحروف من جهر وهمس، وتفخيم وترقيق وهمز وتسهيل، وهذا أمر طبيعي يقتضيه التطور اللغوي.

ومما يؤيد ذلك وفد الحجاز عند سيف بن ذي يزن ملك اليمن، فقد اتجه هذا الوفد وعلى رأسه سيد قريش عبدالمطلب بن هاشم، إلى ملك اليمن يخطب ببيانه القرشي، وسيد اليمن يصغى إليه، ويستمع إلى شاعر الوفد أمية بن أبي الصلت، ويفهم ما يقول في غير غرابة أو غموض (١).

ومالي أذهب بعيداً ونحن في عالمنا العربي نتكلم بلهجات متعددة لاشك هي من أم واحدة هي العربية التي تطورت إلى هذه اللهجات، ولم يكن هذا الاختلاف في غير الأشكال.

ويعجبني في هذا الموقف كلمة الدكتور «غوستاف لوبون» في كتابه «حضارة العرب» حيث يقول: «واللغة العربية من أكثر اللغات انسجاماً وهي مختلفة اللهجات لأرب في سوريا وجزيرة العرب، ومصر والجزائر وغيرها.

ولم يكن هذا الاختلاف في غير الأشكال، فترى المراكشي يفهم بسهولة لهجة المصريين، أو لهجة سكان جزيرة العرب مثلاً، مع أن سكان القرى الشمالية الفرنسية لا يفهمون كلمة من لهجات سكان القرى الجنوبية في فرنسا».

(١) انظر قصة هذا الوفد والتعليق عليه في كتاب «مولد اللغة» لأحمد رضا العاملي ص ٥٦.

وقد نقل «لوبون» كلمة الرحالة «بركهارد» الذى يعد حجة فى هذا الموضوع فقال: «نجد اختلافا كبيرا لا ريب فى لهجات اللغة العربية العامية أكثر من أية لغة أخرى على ما يحتمل، ولكنه لا يصعب عليك أن تفهما جميعا إذا ما تعلمت إحداها، وذلك على الرغم من اتساع البلدان التى يتكلم أهلها بها» (١).

أما كلمة أبى عمرو بن العلاء: «وما لسان حمير بلساننا، ولا لغتهم بلغتنا» تلك الكلمة المأثورة عن أبى عمرو، والتى ترددت فى كتب الرواة - فأحسن تفسير لإشكالاتها تفسير الدكتور الحوفى فى كتابه «الحياة العربية فى شعر الجاهلية» حيث يقول: «إن اللغتين عربيتان، ولكن التطور، والمكان، والزمان، والأحداث، والألسنة الخ قد شقت من اللغة الواحدة لهجتين، بدليل قوله (فى رواية أخرى) ولا عربيتهم بعربيتنا، والعرب يطلقون على اللهجة اللسان» (٢).

٤ - على أن مقياس الفصاحة وقف أمامه العلماء حيارى، فابن فارس يشيد بلهجة قريش أو بلغتها حيث يقول: «إن قريشا أفصح العرب السنة وأصفاهم لغة، ذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب واختار منهم محمدا ﷺ فجعل قريشا قطان حرمه، وولاية بيته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يقدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش فى دارهم، وكانت قريش مع فصاحتها، وحسن لغاتها، ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم وحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلاتتهم التى طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب» (٣). والبصريون يشترطون فى الفصاحة أن تصدر من العرب الخالص الذين لم تؤثر فيهم الحضارة، واعتصموا بالبادية من الاختلاط بغيرهم.

ومن ثم كانوا «يفتخرون على الكوفيين بأنهم يأخذون اللغة عن حرشة الضباب، وأكلة اليرابيع، على حين يأخذها الكوفيون من أكلة الشوايز وباعة الكواميخ» (٤).

(٣) المزهج ١ ص ٢١٠.

(٢) ج ١ ص ٤١.

(١) حضارة العرب ص ٥٣٢.

(٤) حرشة الضباب = الصيادون - اليرابيع = جمع يربوع وهى دويبة. الشوايز الألبان الشخينة، الكواميخ = المخللات يشهى بها الطعام.

مع أن لغتنا العربية التي تتمثل في المعاجم جمعت في معظمها بروايات البصريين، وحسبنا أن نذكر في هذا المجال أن أول عمل معجمي قام به الخليل بن أحمد عميد مدرسة البصرة هو معجم العين.

ومن الحق أن نذكر بجانب ذلك أننا لو طبقنا منهج البصريين في أخذ اللغة لتجنبنا لغة قريش، لأنها خليط من اللهجات كما قلت سابقاً، ولأن أصحابها كانوا يقومون برحلات متعدّدة صيفا وشتاء إلى أطراف الجزيرة العربية في اليمن، وفي الشام، ولكن الحق يفرض علينا سلطانه في هذه القضية، وهو أن لغة القرآن الكريم - كما يقول الفراء - أفصح أساليب العربية على الإطلاق (١).

من أجل ذلك أحب أن أبين هنا أن لغة القرآن الكريم لم تكن لغة لهجة واحدة ولكن من كمالها أن تكون مشتملة على كثير من لغات العرب الأخرى ليكون التحدى أتم والمعجزة أبلغ.

وقد لمس هذا المعنى الإمام ابن الجزرى فأصاب المحز حينما قال: «لو جاء القرآن الكريم كله بالأفصح لكان على غير النمط المعتاد في كلام العرب من الجمع بين الأفصح والنصيح. فلا تتم الحجة من الإعجاز إذ يقال مثلاً: إنه جاء بما لاقدرة للعرب على جنسه، كما لايصح أن يقول البصير للأعمى: قد غلبتكَ بنظري، لأن الأعمى يقول له: إنما تتم لك الغلبة إذا كنت قادراً على النظر، وكان نظرك أقوى من نظري، أما إذا فقد أصل النظر فكيف تصح المعارضة؟» (٢).

ولعنى بعد هذا العرض أكون قدوفيت الموضوع حقّه في قضية غريب القرآن الكريم وأمل أن أكمل هذا البحث بقضية أخرى تعالج ما ورد في القرآن الكريم من كلمات أعجمية فيآلى اللقاء في مقال آخر إن شاء الله.

\*\*\*

(١) العربية بوهان فك ص ٥.

(٢) نقل هذا النص من مقال للمرحوم الشيخ عبدالجواد رمضان نشر بمجلة الأزهر المجلد ٢٢ ص ٦٠٠.

## مصادر البحث ومراجعته

- ١- الإتيقان فى علوم القرآن: لجلال الدين السيوطى - طبعة الثالثة - مطبعة الحلبي.
- ٢- إعجاز القرآن: مصطفى صادق الرافعى - مطبعة الاستقامة - طبعة سادسة.
- ٣- العربية - يوهان فك ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار - مطبعة دار الكتاب العربى.
- ٤- الاقتراح : لجلال الدين السيوطى - مطبعة دائرة المعارف النظامية - طبعة أولى - حيدر آباد.
- ٥ - حضارة العرب : للدكتور غوستاف لوبون - ترجمة عادل زعير طبع دار إحياء الكتب العربية.
- ٦- الزينة فى الكلمات الإسلامية والعربية للرازى - تحقيق حسين فيض الله الهمداني طبع دار الكتاب العربى - طبعة ثانية ١٩٥٧ م.
- ٧- الطراز: ليحيى بن حمزة العلوى - مطبعة المقتطف بمصر ١٩٢٤ هـ.
- ٨ - فى الأدب الجاهلى - للدكتور طه حسين - مطبعة دار المعارف - مصر .
- ٩- لغات القرآن: لأبى حيان الأندلسى - مخطوط - التيمورية رقم ٧٤ - لغة.
- ١٠- مجلة الأزهر.
- ١١- المزهرة: جلال الدين السيوفى - مطبعة السعادة.
- ١٢- مجلة الفكر الإسلامى.
- ١٣ المسائل لابن قتيبة - مخطوط - مصور رقم ٢٠٩٦٧ - مكتبة جامعة القاهرة.
- ١٤- مفتاح السعادة - لطاش كبرى زاده - دائرة المعارف النظامية - الهند.
- ١٥- مقدمتان فى علوم القرآن - تحقيق أرثر جفرى - مطبعة السنة المحمدية.
- ١٦- مولد اللغة: لأحمد رضا العاملى - نشر دار مكتبة الحياة - بيروت.
- ١٧- الوسائل فى مسامرة الأوائل: لجلال الدين السيوطى.

\*\*\*

## ٦. قضية الكلمات الأعجمية في القرآن الكريم (\*)

في

### ضوء الدراسة والبحث

لم تكن اللغة العربية قبل نزول القرآن الكريم لغة ضعيفة في مفرداتها، وتراكيبها، وألفاظها ومعانيها، بل كانت لغة تحمل في طياتها عناصر الحياة، وقوة التعبير، وجمال الكلمة، ورشاقة الألفاظ، وغزارة المعاني.

أجل، لم تكن اللغة العربية بلغت سن الشيخوخة، يدب في أوصالها الوهن، ويعتربها الضعف لتلفظ أنفاسها الأخيرة، ولكنها كانت في طور الشباب، قوية فتية، تسحرك بألفاظها، وتدهشك بمعانيها، وتأخذ بمجامع قلبك، حينما تصغى إليها في مجالات التعبير المختلفة: شعرا وخطابة، ومحاورة، وأمثالا.

وهذه اللغة التي بلغت القمة في التعبير عن المعاني المختلفة، المحسوسة أو المعقولة، في ألفاظ جزلة، وعبارات متأخية، وكلمات عذبة، هذه اللغة نزل بها القرآن الكريم، ليتحدى من يملكون ناصية هذه اللغة في مجال فصاحة الكلمة، وبلاغة المعنى، وجمال الأسلوب، «فأقر جميعهم بالعجز وأذعنوا له بالتصديق، وشهدوا على أنفسهم بالنقص إلا من تجاهل منهم وتعامى، واستكبر وتعاشى، فحاول تكلف ما قد علم أنه عنه عاجز، ورام ما قد يقن أنه عليه غير قادر، فأبدى من ضعف عقله ما كان مستورا، ومن عى لسانه ما كان مصونا، فأتى بما لا يعجز عنه الضعيف الأخرق، والجاهل الأحمق، فقال: والطاحات طحنا، والعاجنات عجننا، فالخابزات خبزنا، والثاردات ثردنا، واللائمات لقمنا، ونحو ذلك من الحماقات المشبهة دعواه الكاذبة» (١).

واستطاعت اللغة العربية أن تستقى من هذه المعجزة الخالدة ما أعانها على التطور

(\*) نشر في مجلة الوعي الإسلامي - نوفمبر سنة ١٩٧١.

(١) انظر: مقدمة تفسير الطبرى: ٦/١.

العجيب في صيغها وتراكيبها ومفرداتها، وأساليبها، فبلغت بالقرآن الكريم درجة من الرقى ليس بعدها درجة.

وقد لفتت هذه المكانة التي وصلت إليها العربية أنظار كثير من المستشرقين المتعصبين منهم وغير المتعصبين، فهذا (آرنست رينان) يقول في كتابه: (تاريخ اللغات السامية) ما نصه: «من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القويّة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها، ومن يوم علمت ظهرت لنا في حُلل من الكمال إلى درجة أنّها لم تتغيّر أى تغيير أى تغيير يذكر حتى أنه لم يعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة»<sup>(١)</sup>، وأعجبنى ما كتبه (جون فرن) في قصة خيالية أشاد فيها بلغة القرآن، ذلك لأنه بنى قصته الخيالية «على سباح يخترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا، أو يدنوا من وسطها، ولما أرادوا العودة إلى ظاهر الأرض بدأ لهم أن يتركوا هنالك أثرا يدل على رحلتهم، فنقشوا على الصخر كتابة باللغة العربية، ولما سئل (جول فرن) عن وجه اختياره للغة العربية قال: إنها لغة المستقبل، ولا شك أنه يموت غيرها، وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه»<sup>(٢)</sup>.

ولما كانت لغة القرآن الكريم لغة التحدى والإعجاز على هذا المستوى الرفيع من البلاغة والفصاحة، فإنى لا أستطيع أن أقبل ما يدعيه بعض العلماء والرواة من أن القرآن التكريم اشتمل على كلمات أعجمية، ليست عربية الصنع، وقبل أن أعرض رأيي في هذه القضية أرى أن أبسط آراء العلماء حولها، ليكون القارئ على بينة من أمرها. ثم أختتم بحتى برأى الذى أراه في هذا الموضوع:

١- أما الكلمات الأجنبية التي نازح حولها الجدل، واحتدم النقاش، فهذا بعض منها:

١- ما ورد بلسان الحبشة: قال الطبرى: حدثنا عنبة عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عن أبي موسى: «يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ»<sup>(٣)</sup> قال: الكفلان - ضعفان من الأجر بلسان الحبشة.

(١) نقل هذا النص من كتاب: «دراسات في العربية وتاريخها» للشيخ محمد الحضر حزين ص ١٩.

(٢) المرجع السابق نفسه ص ١٤.

(٣) الحديد: ٢٨.

وعن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ (١) قال: بلسان الحبيشة: إذا قام الرجل من الليل، قالوا: نشأ.

= وعن أبي إسحاق عن أبي ميسرة: ﴿يَا جِبَالَ أُوَيْبِي مَعَهُ﴾ (٢) سبجى بلسان الحبيشة.

وحدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن قوله: ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (٣) قال: هو بالعربية: الأسد، وبالفارسية: شار، وبالحبيشية قسورة (٤).

وقال السيوطى فى الإتقان = الأواه = الموقن بلسان الحبيشة. الدرر: المضى: بلسان الحبيشة (الجبت): اسم الشيطان بلسان الحبيشة (٥). وقال الزركشى فى البرهان فى علوم القرآن: المشكاة: الكوة بلسان الحبيشة (٦).

٢- ما ورد بلسان الفرس:

الأباريق: جمع إبريق: التنور - الدينار: السرادق - الاستبرق: الزنجبيل.

٣- ما ورد باللسان الرومانى:

الرقيم: اللوح، القسطاس: العدل، طففا: قصدا.

٤- ما ورد باللسان العبرى:

كيل بعير = البعير: الحمار. الأليم - المؤلم. درست = قرأت. هدنا = تبنا. راعنا = كلمة

سب.

الرحمن: ذهب المبرد وثعلب إلى أنه عبرانى، وأصله الخاء المعجمة.

(١) المزمّل: ٦.

(٢) سبأ: ١٠.

(٣) المدثر: ٥١.

(٤) الطبرى ج ١ ص ٨.

(٥) الإتقان ج ١ ص ١٣٨.

(٦) البرهان فى علوم القرآن ص ٢٨٧، ٢٨٨.

٥- ما ورد باللسان القبطي:

الملة الآخرة = الأولى: والقبط يسمون: الآخرة:الأولى، والأولى: الآخرة. بطائنها =  
ظواهرها: وراءهم ملك: أمامهم. اليمّ = البحر.

٦- السريانية: الطور: جبل.

٧- اليونانية: سريا: النهر الصغير.

٨- الزنجية: حصب جهنم: حطب جهنم: وقولوا حطة: صوابا.

٩- النبطية: «رہوا: سهلا. سيدها: زوجها بلسان النبط، قال أبو عمرو: لا أعرفها في لغة  
العرب.

١٠- كلمات مختلف في نسبتها:

السجل: قيل حبشى، وفي المحتسب لابن جنبي: فارسي معرب.

السندس: قيل: رقيق الديباج بالفارسية، وقيل الرقيق من الستر بالهندية.

وقد أفرد السيوطي هذه الكلمات الأعجمية بالتصنيف، وسماها (المهذب فيما وقع في  
القرآن من المعرب).

١١- كلمات أعجمية غير منسوبة<sup>(١)</sup>.

وقد نظم تاج الدين السبكي منها سبعة وعشرين لفظاً في أبيات جاء فيها:

السلسبيل، وطه، كورت، بيع	روم، وطويى، وسجيل، وكافور
والزنجبيل، ومشكاة سرادق مع	استبرق، صلوات سندس طور
كذا قراطيس ربانيهم وغسّا	قُ دینار والقسطاس مشهور
له مقاليد فردوس يعدد كذا	فيما حكى ابن دريد فيه تنور

(١) انظر في هذا الموضوع: الطبرى ج ١ ص ٦، الإنقان: ج ٢ ص ١١٩ طبع دار التراث، البرهان: ص ٢٨٧ و  
٢٨٨.

وقد ذيل الحافظ بن حجر على هذه الأبيات، وذيل السيوطي عليها بالباقي وهي بضع وستون، فتمت أكثر من مائة لفظة (١).

## ب- آراء العلماء حول هذه الكلمات؛

### ١. رأى من يقول: إنها أعجمية؛

يستند هؤلاء في هذا الرأي إلى ما روى سعيد بن جبير قال: قالت قريش: لولا أنزل هذا القرآن على رجل (أعجميا، وعربيا) فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ (٢) فأنزل الله بعد هذه الآية في القرآن بكل لسان (٣).

وعن أبي ميسرة قال: في القرآن من كل لسان (٤).

ومن العلماء الذين يرون هذا الرأي الإمام (الجويني)، ففي رأيه أنه لا يستنكر وقوع المعرب في القرآن الكريم، بل يرى أن له فائدة في مجال البلاغة والبيان، قد لا يشعر بها كثير من الناس، لأنها تخفى عليهم بما تشتمل عليه من دقة البيان، وسر الإعجاز. استمع إليه يقول مدافعا عن كلمة (استبرق) ما نصه: «فإن قيل: إن استبرق ليس بعربي، وغير العربي من الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة، فنقول: لو اجتمع فصحاء العالم، وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة، ويأتوا بلفظ يقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عن ذلك. وذلك لأن الله تعالى إذا حث عباده على الطاعة، فإن لم يرغبهم فيها بالوعد الجميل، ويخوفهم بالعذاب الويل، لا يكون حثه على وجه الحكمة.. إلى أن يقول:

ثم إن الوعد بما يرغب فيه العقلاء، وذلك منحصر في أمور: الأماكن الطيبة، ثم المآكل، والمشارب، ثم الملابس الرقيقة، وكان ينبغي أن يذكر من الملابس ما هو أرفعها، وأرفع الملابس في الدنيا الحرير، ثم إن الثوب من غير الحرير لا يعتبر فيه الوزن والنقل، وربما يكون

(١) الاتقان جـ ص ١١٩، مفتاح السعادة ص ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤.

(٢) - فصلت: ٤٤.

(٣) - الطبري ج ١ ص ٨.

(٤) المرجع السابق والصفحة.

الخفيف أرفع من الثقيل الوزن، وأما الحرير فكلما كان ثوبه أثقل كان أرفع، فحينئذ وجب على الفصيح أن يذكر الأثقل الأثمن، ولا يتركه في الوعد، لئلا يقصر في الحث والدعاء.

ثم إن هذا الواجب الذكر، إما أن يذكر بلفظ واحد موضوع له صريح، أو لا يذكر بمثل هذا، ولا شك أن الذكر باللفظ الواحد الصريح أولى، لأنه أوجز وأظهر في الفائدة، وذلك (استبرق)، فإن أراد الفصيح أن يترك هذا اللفظ، ويأتى بلفظ آخر لم يمكنه، لأن ما يقوم مقامه، أما لفظ واحد أو ألفاظ متعددة. ولا يجد العربي لفظاً واحداً يدل عليه، لأن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس، ولم يكن لهم بها عهد، ولا وضع في اللغة العربية للدياج الثمين اسم، وربما عربوا ما سمعوا من العجم، واستغنوا عن الوضع لقلة وجوده عندهم، وندرة تلفظهم به.

وأما إن ذكره بلفظين فأكثر فإنه يكون قد أخل بالبلاغة، لأنه ذكر لفظين بمعنى يمكن ذكره بلفظ - تطويل، فعلم بهذا أن لفظ (استبرق) يجب على كل فصيح أن يتكلم به في موضعه، ولا يجد ما يقوم مقامه (١).

## ٢. رأي من يقول: إنها عربية؛

على رأس هؤلاء الإمام الشافعي رضى الله عنه، فقد أنكركل الإنكار أن تكون هذه الكلمات أعجمية الصنع، لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين. ولا يمكن أن يصدق العقل، أو يطمئن القلب إلى مثل هذه الروايات، التي تدعى أعجمية بعض الكلمات، فالقرآن الكريم في نظر الإمام الشافعي من ألفه إلى يائه عربي فصيح، لم يستعر كلمة من غير لغة العرب، لأنه ليس في حاجة إليها، بل أحاط بهذه اللغة احاطة كاملة، لأنه من صنع الله، وصنع الله لا يتوقف على معونة في كلمة أو كلمات، تقدم إليه من مختلف اللغات.

وكان الشافعي صريحا كل الصراحة في هذا الاتجاه، مؤمنا كل الإيمان بهذا الرأي. لدرجة أنه قدم النصيحة خالصة، حارة ملتهبة لهؤلاء الذين يدعون ما يدعون ليركوا هذا الانحراف في الرأي، حتى يسلم لكتاب الله جلاله وسلطانه.

وأنى أترك المجال للشافعي، ليعرض علينا رأيه، معزّزاً بالحجة، مدعماً بالبرهان، قال الشافعي في الرسالة:

(١) الاتقان ج١ ص ١٣٦، ١٣٧.

«فقال منهم قائل: إن في القرآن عربيا وأعجميا» فرد الإمام على هذا الادعاء بقوله: «والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شئ إلا بلسان العرب، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي» إلى أن يقول:

فإن قال قائل: ما الحجة في أن كتاب الله محصن بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره؟ فالحجة في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ (١) فإن قال قائل: فإن الرسل قبل محمد كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة، وإن محمدا بعث إلى الناس كافة، فقد يحتمل أن يكون بعض بلسان قومه خاصة، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه، وما أطاقوا منه، ويحتمل يكون بعث بالستتهم، فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم؟ ويرد الشافعي على هذا الاعتراض بقوله.

فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون بعضهم تبعاً لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان التابع على التابع.

وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي، ولا يجوز والله أعلم أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد بل كل لسان تبع للسانه، وكل أهل دين قبله، فعليهم اتباع دينه».

بهذا المنطق القوي رد الشافعي هذا الاعتراض، ولكنه لم يكتف بذلك فوثق هذا الرد بكتاب الله تعالى في وضوح بيده الباطل، وصراحة تكشف البهتان، فيقول: وقد بين الله ذلك في غير آية من كتابه: قال الله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ (١٩٦) نزل به الروح الأمين (١٩٣) على قلبك لتكون من المنذرين (١٩٤) بلسان عربي مبين (٢)، وقال: ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ (٣) وقال: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتذرع أم القرى ومن حولها﴾ (٤) وقال: ﴿حم والكتاب المبين. إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ (٥) وقال: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون﴾ (٦).

(٢) الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥.

(١) إبراهيم: ٤.

(٤) الشوري: ٧.

(٣) الرعد: ٣٧.

(٦) الزمر: ٢٨.

(٥) الزخرف: ١ - ٣.

قال الشافعي: فأقام حجته أنه كتاب عربي في كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه جل ثناؤه كل لسان غير لسان العرب في آية من كتابه، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١).

وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ (٢)، ويختتم الشافعي دفاعه عن كتاب الله تبارك وتعالى بهذه النصيحة الغالية فيقول: «فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين، والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه، وإدراك نافلة خير لا يدعها إلا من سفه نفسه، وترك موضع حظه، وكان يجمع مع النصيحة لهم قياما بياضاح حق، وكان القيام بالحق، ونصيحة المسلمين من طاعة الله، وطاعة الله جامعة للخير» (٣).

بهذا الرد المقنع، وبهذه النصيحة الخالصة دافع الإمام الشافعي عن قضية عروبة هذه الكلمات، دفاعاً حاراً، لزم فيه المنطق القوي، والحجة البالغة والدليل القرآني القاطع.

وإني حرصت كل الحرص على تسجيل عبارات الشافعي بنصها في هذا المجال، لأنها تحمل من حرارة الدفاع عن كتاب الله أكثر مما تحمل عباراتي.

وفي هذا الخط الذي رسمه الشافعي اتجه الإمام الطبري في تفسيره هذا الاتجاه وكأنه بآرائه التي بسطها في هذه القضية يضع الدلائل الواضحة على صحة رأى الشافعي، ذلك لأنه يرى أن هذه الكلمات الأعجمية، انفقت بألفاظها ومعانيها مع الكلمات العربية، فليس من المنطق أن نقول: إنها غير عربية بل هي عربية أعجمية: يقول الطبري: «ولم يستنكر أن يكون من الكلام ما تتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد، فكيف بمعنيين معاً؟ ويقول أيضاً، كما قد وجدنا اتفاق كثير منهم فيما قد علمناه من الألسن المختلفة. وذلك كالدرهم، والدينار، والدواة والقلم والقرطاس وغير ذلك مما يتعب إحصاؤه، ويميل تعداده.

(١) النحل: ١٠٣.

(٢) فصلت: ٤٤.

(٣) الرسالة: ٥٠.

على أن الطبري لم ينكر هذه الآثار المروية عن ابن عباس، أو عن سعيد بن جبير، بل يقرر صحتها من وجه آخر، غير ما يدعيه هؤلاء الذين يقررون أنها أعجمية فيقول: «فلو أن قائلها قال فيما ذكرناه من الأشياء التي عددنا، وأخبرنا اتفاقه في اللفظ والمعنى بالفارسية والعربية، وما أشبه ذلك عما سكتنا عن ذكره، ذلك كله عربى لا فارسى، أو قال: بعضه عربى، وبعضه فارسى، أو قال: كان مخرج أصله عند العرب، فوقع إلى العجم فنطقوا به، أو قال: كان مخرج أصله عند الفرس، فوقع إلى العرب فأعربته - كان مستجهداً إلى أن يقول: بل الصواب في ذلك عندنا أن يسمى عربياً أعجمياً، أو حبشياً عربياً إذا كانت الأمتان له مستعملتين إلى أن يقول: «وذلك هو معنى ما روينا عنه القول في الأحرف التي مضت في صدر هذا الباب من نسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الحبشة، ونسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الروم، لأن من نسب شيئاً من ذلك إلى ما نسبه إليه لم ينف بنسبته إياه إلى ما نسبه إليه أن يكون عربياً»<sup>(١)</sup>.

وتتفق وجهة نظر أبي عبيدة معمر بن المثنى مع الإمام الشافعى والطبري، فيقول: «نزل القرآن بلسان عربى مبین، فمن زعم أن فيه غير العربية، فقد أعظم القول، ومن زعم أن (طه) بالنبطية فقد أكبر، وقد يوافق اللفظ اللفظ، ويقاربه، ومعناهما واحد، وأحدهما بالعربية، والآخر بالفارسية أو غيرها»<sup>(٢)</sup>.

ومع أن أبا عبيدة دافع عن عروية هذه الكلمات إلا أن الإمام اللغوى الزبيدى صاحب تاج العروس ينسب إلى أبى عبيدة رأياً آخر يوفق بين المانعين والمجوزين يقول: «قال أبو عبيدة: والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً وذلك أن هذه الحروف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربتها بألستها، وحولتها من ألفاظ العجم إلى ألفاظها، ثم لما نزل القرآن، وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال: إنها عربية، فهو صادق، ومن قال: عجمية فهو صادق»<sup>(٣)</sup>.

(١) الطبري ج١ ص ٩.

(٢) مجاز القرآن ج١ ص ١٨.

(٣) تاج العروس ص ٩.

## ج: رأى ومناقشة:

فى رأبى أننا إذا أردنا أن نصل إلى حل حاسم لهذا الإشكال، فإنه لا بد من الرجوع إلى التاريخ العربى لنستفتيه فى هذه القضية التى كثر فيها الجدل، واحتدم النزاع بين العلماء.

أننا إذا رجعنا إلى التاريخ ليدلنا على كلمة (عرب) فماذا نجد؟ نجد اختلافا كبيرا بين رجال اللغة من العرب فى مدلول هذه الكلمة، فقد قال ابن منظور فى كتابه الكبير: لسان العرب ما نصح: «واختلف الناس فى العرب لم سموا عربا؟ فقال بعضهم أول ما أنطق الله لسانه بلغة العرب يعربُ بن قحطان، وهو أبو اليمن كلهم، وهم العرب العاربة، ونشأ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام معهم، فتكلم بلسانهم، فهو وأولاده العرب المستعربة. وقيل: إن أولاد إسماعيل نشثوا بعربة، وهى من تهامة، فنسبوا إلى بلادهم.

ثم قال صاحب اللسان، وكل من سكن بلاد العرب، وجزيرتها ونطق بلسان أهلها فهم عرب، يمينهم، ومعدهم (١).

والمستشرقون وعلى رأسهم المستشرق (ولفنسون) فى كتابه (تاريخ اللغات السامية): يرى أن كلمة (عرب) كانت مستعملة فى اللغة العبرية القديمة لتدل على أهل العربة (الصحراء) أى لنوع خاص من قبائل الجزيرة العربية (٢).

ويرى هذا المستشرق أن ما يقال فى المعاجم اللغوية العربية من أن هناك فرقا بين كلمتى عربى وأعرابى، وتخصيص الأولى بسكان المدن، والثانية بسكان البادية فلم يحدث الا فى عصور قريبة من ظهور الإسلام أما قبل ذلك فلم يكن هناك فرق مطلقا، بل كان كل من الكلمتين يدل على سكان البادية فحسب، أما سكان المدن والأمصار، فكانوا ينسبون إلى قبائلهم، ويعرفون بمناطقهم (٣).

(١) لسان العرب: مادة: عرب.

(٢) تاريخ اللغات السامية: ص ١٦٤.

(٣) المرجع نفسه والصفحة.

ويرى مرة أخرى أن كلمة عبرى تؤدي المعنى الذى تؤديه كلمة عربى نفسها، أى أن العبريين هم قبائل رحل كانت تنتقل بخيامها، وإبلها من مكان إلى آخر.

وقد استدل على هذه النظرية بأن كلمة عبرى مشتقة من الثلاثى عبر الذى معناه بالعبرية والعربية: ذهب، ورحل وقطع مرحلة من الطريق، أى أن كلمتى عبرى وعربى مُشتقتان من ثلاثى واحد هو عبر، فحدث قلب مكانى فى هذه الكلمة الثلاثية فصارت عرباً<sup>(١)</sup>.

وفى رأى أن المعاجم اللغوية تحدثت عن هذه التفرقة فعلا، ولكنها مع ذلك نصت أيضا على أن كل من سكن بلاد العرب، وجزيرتها، ونطق بلسان أهلها فهم عرب، يمينهم، ومعدهم كما قدمت.

وأما القرن الذى ظهرت فيه هذه الكلمة، فقد حددته النقوش والآثار التى اكتشفت فى عصرنا الحديث، فقد أشار المستشرق لوبون فى كتابه (حصارة العرب) إلى آثار الأشوريين التى تحدثت عن العرب فقال: «وذكر العرب قبل الميلاد بتسعمائة سنة فى بلاغ (سلما نصر الثاني) وأدت ملكتان عربيتان فروض الطاعة (تيفلا نفاصر) قبل الميلاد بنحو ثمانمائة سنة، واستعان (بانيال) بجيوش عربية عندما رفع راية العصيان»<sup>(٢)</sup>.

ويقسم المؤرخون العرب إلى قسمين: بائدة، وباقية. ومن العرب البائدة. عاد، ومسكنهم الأحقاف فى اليمن، وثمود، ومسكنهم الحجر فى جهة معان، ومدائن صالح، وطسم، ومسكنهم اليمامة، وعمليق، ومسكنهم عمان، والحجاز وتهامة، وبعض نجد، وتيماء وبترا، وفلسطين، وهم القوم الجبارون الذين تهيئهم قوم موسى إذ قالوا: «إن فيها قوما جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها».

ومنهم جالوت الذى قاتل داود، فقتله داود عليه السلام، وجرهم ومسكنهم باليمن، ومن بقاياهم قوم هاجروا إلى مكة، وهم أصهار إسماعيل عليه السلام ثم بادوا، ووبار.. ومسكنهم اليمن فى وبار المسماة باسمهم، وقد هلكوا.

والعرب الباقية: أولاد قحطان، وأولاد عدنان<sup>(٣)</sup>.

(٢) حصارة العرب ص ٩١.

(١) المرجع نفسه ص ١٦٥.

(٣) تاريخ الأدب لحنى ناصف ٨.

وليس ثمة شك في أن هذه القبائل العربية كانت تتكلم بلغة واضحة المعالم بينة السمات، هذه اللغة هي العربية، والعربية من أقدم اللغات السامية كما نصّت على ذلك كتب العبريين، بل إن العرب أنفسهم أقدم من العبريين في تاريخ وجودهم على هذه الأرض، وما زالت كتبهم تقص علينا الشيء الكثير من أخبار العمالقة، وأهل سبأ الذين كانوا يقيمون بجنوب جزيرة العرب.

على أن هذه القبائل العربية لم تغلق على نفسها أبواب مساكنها، بل اختلطت اختلاطاً شديداً بغيرها من أجناس الأمم، اختلطوا بالمصريين حينما انحلت قبائل من العمالقة مع عرب سوريا، واستولوا على مصر في حملة معروفة في التاريخ المصري القديم بحملة الهكسوس سنة ٢٠٠٠ ق.م وعرفوا بالرعاة، ودام سلطانهم قروناً كثيرة (١).

وتنص الكتابات المسمارية على أن قبائل ثمود التي كانت تقيم في بلاد الحجاز اشتبكت في معارك طاحنة مع سرجون ملك آشور الذي مزقهم كل ممزق، وأجلى البطون الثمودية الثائرة في بلاد العرب إلى مدينة غزة بفلسطين (٢).

وقدماء اللحيانيين الذين كانوا يقيمون في الحجاز عرفوا بالقوة والعظمة حتى كان الرومان يستأجرون منهم الجنود والعساكر (٣).

لا شك أن هذا الاختلاط الذي حدث بين العرب وغيرهم في تاريخهم القديم أدى إلى التفاعل اللغوي، مما جعل اللغة تتطور في قوة حتى اكتمل بناؤها واتسعت مفرداتها بفعل هذا الاحتكاك.

ولا أدل على ذلك من اعتراف المستشرقين أنفسهم بهذه الظاهرة فقد قال (ليفنسون): «إن اللغة العربية تشتمل على عناصر تدل على أنها بصورتها الحالية، ليست أصلية قديمة، بل إنها صيغ مرت عليها تقلبات كثيرة وتغييرات في حين أن هذه الكلمات توجد في العبرية أو

(١) حضارة العرب ص ٩٠.

(٢) حضارة العرب ١٧٤.

(٣) المرجع نفسه ص ١٧٤.

الآرامية دون أن يظهر عليها شيء من آثار هذا التبديل، فمثلا كلمة (قول) تؤدى بالعبرية معنى = صوت. أما فى العربية فلا تطلق إلا على جملة أصوات مجتمعة، وكذلك (أمر) تدل على الكلام العادى، وتدلل فى العربية على الطلب بشدة<sup>(١)</sup>.

وقد استطاعت العربية بما تحمل من عناصر الحياة والتطور أن تؤثر - كما تقول روايات المستشرقين أنفسهم - (فى النبط الآراميين) فكان ذلك من أهم الأسباب التى حملتهم على نسيان لغتهم الآرامية، وإيجادهم لأنفسهم مزيجا من لغة الآراميين والعرب، ولم يكن هذا المزيج مفهوما عند العرب فأطلقوا عليه الرطانة النبطية<sup>(٢)</sup>.

من هذا العرض السابق أستطيع إن أقول: أن هذه اللغة العربية لغة قديمة نكوت بمرور الزمن، وعبر التاريخ، وسارت فى طريق التطور بخطى واسعة حتى وصلت إلى ما قبل الإسلام إلى الذروة من التقدم والرقي، على حين تجمدت اللغات السامية الأخرى، لتصبح أثرا بعد عين.

ومن المنطق أن أقول: أن لغة احتكت بغيرها من اللغات الأخرى، فأثرت فيها، ووصلت إلى هذه الدرجة من التطور لابد أن تكون موردا لغيرها من اللغات الأخرى، تمدها بما تحتاج إليه من مفرداتها الواسعة، وبمرور الزمن أصبحت هذه المفردات العربية لبنات فى بناء لغات هذه الأمم، ولا يصح فى مجال التفكير السليم أن نقول: إن القرآن الكريم استعارها من هذه اللغات، إذا قلنا ذلك، فهذا تحكم لا تسنده إلا هذه الأخبار التى ذكرها الرواة، وهى أخبار واهية تتعارض مع صريح القرآن الكريم حينما يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾<sup>(٣)</sup>.

ومن العجب حقا أن ندعى أن مفردات اللغة العربية التى عاشت هذا العمر الطويل وتطورت هذا التطور الكبير عبر التاريخ، وعبر الأجيال. تمثلها هذه المعاجم اللغوية، أو هذه الروايات التى جمعها لنا رواة العرب حينما بدءوا بدوتون اللغة.

(١) تاريخ اللغات السامية ١٦٩.

(٢) المرجع نفسه ص ١٧٣.

(٣) يوسف: ٢.

أجل لقد أحس بهذه الحقيقة راوية من كبار الرواة، وعمد من عمداء اللغة، إنه أبو عمرو ابن العلاء الذى يقول: «ما انتهى إليكم مما قالته العرب الا أقله ولو جاءكم لجاءكم علم وافر، وشعر كثير» (١).

على أن العقل لا يمكن أن يسلم بأعجمية هذه الكلمات من ناحية أخرى، فهذه الكلمات كمايقول السيوطي: أكثر من مائة لفظة، وهو عدد قليل جدا بالنسبة إلى كلمات القرآن الكريم التى تبلغ فى رواية الفضيل بن شاذان عن عطاء بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة، وأربعمائة وسبع وثلاثون كلمة (٢).

فما السر إذا فى أن يمد القرآن الكريم يده لأخذ هذه الكلمات المائة من لغات العجم. هل اللغة العربية فقيرة إلى هذا الحد، فتطلب المعونة بهذه الكلمات، كيف ذلك؟ وهى اللغة التى لا تستطيع أن تجاريها لغة أخرى فى مجال الاتساع، كيف ذلك؟ وهى اللغة التى تحفظ للمعنى الواحد المتين من الألفاظ.

استمع إلى السيوطى يقول فى المزهري: «إن العجم لا تعرف للأسد أسماء غير اسم واحد، فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم.

وقال حدثنى أحمد بن محمد بن بندار قال: سمعت أبا عبدالله بن خالويه الهمداني يقول: جمعت للأسد خمسمائة اسم، وللحية مائتين.

ويروى ابن فارس قصة الأصمعي والرشيد، وخلاصتها. «أن الرشيد سأل الأصمعي عن شعر لابن حزام المعكلي، ففسره، قال: يا أصمعي، إن الغريب عندك لغير غريب، قال: يا أمير المؤمنين، ألا أكون كذلك، وقد حفظت للحجر سبعين اسما؟» (٣).

ويجدد بى أن أعزز رأى هذا برأىين لرجلين من أعلام الفكر فى العالم العربى فى وقتنا الحاضر، وهما الموحومان الدكتور عبدالوهاب عزام، والشيخ أحمد شاکر.

(١) الاقتراح: ٢٧.

(٢) البرهان فى علوم القرآن ج ١ ص ٢٤٩.

(٣) المزهري ج ١ ص ٣٢٥.

أما الدكتور عزام فبرى: أن اللغات السامية وجاراتها تبادلت ألفاظا فى عصور متطاولة قبل الإسلام، فدخل فى الفارسية مثلا ألفاظ سامية، فرب لفظ فارسى يظن أصلا للفظ عربى هو فى الحقيقة لفظ سامى تسرب إلى الفارسية فى العصور القديمة، وقد بعد بالباحثين عن الصواب ظنهم أن العربية لم تهب اللغات الأخرى من ألفاظها إلا فى العصور الإسلامية<sup>(١)</sup>.

وأما المرحوم الشيخ أحمد شاكرا، فبرى: أن العرب أمة من أقدم الأمم، ولغتها من أقدم اللغات وجودا، كانت قبل إبراهيم وإسماعيل، وقبل الكلدانية والعبرية والسريانية وغيرها، بله الفارسية، وقد ذهب منها الشيء الكثير بذهاب مدينتهم الأولى قبل التاريخ، فلعل الألفاظ القرآنية التى يظن أن أصلها ليس من لسان العرب، ولا يعرف مصدر اشتقاقها لعلها من بعض ما فقد أصله<sup>(٢)</sup>.

وبعد، فلعلى بهذا العرض لهذه القضية استطعت أن أضع النقاط على الحروف دفاعا عن كتاب الله العربى، هذا من ناحية، ولعلى من ناحية أخرى أسد الباب أمام هولاء اللغويين المحدثين الذين يدعون أن القرآن الكريم سار على منهج التعريب، حينما أخذ عن الفارسية والحبشية وغيرهما.

ونحن نلجأ إلى التعريب، لأننا لم نعش فى أعماق اللغة، لنستخرج الكلمة الدالة، واللفظة المعبرة، وذلك لعجزنا عن الإحاطة باللغة من ناحية، ولإيثار مد اللغة العربية بكلمات جديدة سيرا على مبدأ التطور اللغوى من ناحية أخرى إن صح لنا أن نعرب الوف الكلمات الوافدة فى عصر تقاربت فيه اللغات، وتمازجت الأفكار، فإنه لا يصح مطلقا أن نتخذ من القرآن ذريعة نعتمد عليها فى شرعية هذا الغزو الأجنبى. فإنه كلام الله الذى لا يأتى الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

\*\*\*

(١) مقدمة العرب للحوالىفى: ص ٤.

(٢) من مقدمة الشيخ شاكرا ص ١٣.

## مصادر البحث ومراجعته

- ١- الإتقان فى علوم القرآن - جلال الدين السيوطى - طبعة ثالثة - مطبعة الحلبي . وطبعة دار التراث
- ٢- الاقتراح: جلال الدين السيوطى - طبع الهند.
- ٣- البرهان فى علوم القرآن للزركشى - تحقيق محمد أبى الفضل - مطبعة عيسى الحلبي .
- ٤- تاج العروس للزبيدى - المطبعة الوهبيّة .
- ٥ - تاريخ الأدب حفى ناصف - مطبعة جامعة القاهرة - طبعة ثانية .
- ٦- تاريخ اللغات السامية الدكتور إسرائيل ولفنسون - طبعة أولى ١٣٤٨ هـ القاهرة .
- ٧- تفسير الطبرى - المطبعة الميمنية .
- ٨ - حضارة العرب - الدكتور نموستاف لوبون - ترجمة عادل زعيتر طبع دار إحياء الكتب العربية .
- ٩- دراسات فى العربية: الشيخ محمد الخضر حسين .
- ١٠- الرسالة للإمام الشافعى تحقيق الشيخ أحمد شاكِر - طبعة أولى سنة ١٩٤٠ .
- ١١- لسان العرب لابن منظور - عدة طبعات .
- ١٢- مجاز القرآن لأبى عبيدة - تحقيق محمد فؤاد سزكين - طبع مؤسسة الرسالة .
- ١٣- المزهَر - جلال الدين السيوطى - مطبعة السعادة .
- ١٤- المعرّب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم لأبى منصور الجواليقى .
- ١٥- مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده - دائرة المعارف النظامية - الهند .

\*\*\*

## ٧. الشواهد الشعرية وغريب القرآن (\*)

تهديد:

يقسم نقاد الشعر العربي الشعراء إلى طبقات. ومنزلة الشعر العربي القديم كانت سبباً قوياً لهذا التقسيم.

والحقيقة أن الخط الفاصل بين القديم والحديث خط دقيق جداً، فكل شاعر يعيش في زمنه هو حديث بالنسبة له، ولكنه قديم بالنسبة لمن جاء بعده. يقول ابن رشيق: «كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله».

ولمنزلة الشعر القديم يروي الأصمعي: أنه جلس إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج فمأسمعه يحتج بيت إسلامي.

ويفسر ابن رشيق هذه المنزلة فيقول: «وليس ذلك لشيء إلا لاحتجهم في الشعر إلى الشاهد، وقلة ثقتهم بما يأتي به المولود».

على أن نظرة ابن قتيبة بالنسبة لمنزلة الشعر القديم تختلف كل الاختلاف عن نظرة أبي عمرو وأصحابه، ذلك أن ابن قتيبة يرى أن الشعر هبة سماوية لا ينفرد بها جيل، أو يستأثر بها عصر، أو يسيطر عليها زمن فيقول: «لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص بها قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره».

على أية حال فالذي أود أن أذكره هنا أن النقاد قسموا الشعراء بالنسبة إلى الزمن إلى أربع طبقات:

جاهلي قديم، ومخضرم: وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام. وإسلامي. ومحدث. ثم صار المحدثون طبقات: أولى، وثانية على التدرج هكذا في الهبوط إلى وقتنا هذا.

ويعقد البغدادي في خزانة الأدب فصلاً عن الكلام الذي يستشهد به في اللغة والنحو

(\*) نشر في مجلة الوعي الإسلامي - فبراير ١٩٧٧.

والصرف. وبعد أن وافق النقاد فى تقسيم الشعراء إلى الطبقات الأربع السابقة ذكر أن الطبقتين الأوليين يستشهد بشعرهما إجماعاً، وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها،.... وأما الرابعة فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقاً.

وهناك وجهة نظر أخرى حول الاستشهاد بشعر الطبقة الرابعة فقد رأى بعض العلماء أن توافر الثقة بالشاعر يضمن النفس بالاحتجاج بشعره حتى ولو تأخر زمنه، وعلى رأس هؤلاء القائلين بهذا رأى الإمام الزمخشري والإمام الرضى حيث استشهد بشعر أبى تمام فى عدة مواضع فى شرح الرضى على الكافية. واستشهد الزمخشري أيضاً فى تفسير أوائل البقرة من (الكشاف) بيت من شعره وقال: «وهو وأن كان محدثاً لا يستشهد بشعره فى اللغة فهو من علماء العربية».

### معنى غريب القرآن:

القرآن الكريم - وإن نزل بلغة العرب - يحتوى على كلمات تحتاج إلى بيان وإيضاح ، لأنها قد تكون لغة لقبيلة «أو تكون مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب كالظلم، والكفر ، والإيمان ونحوها مما نقل عن مدلوله فى لغة العرب إلى المعانى الإسلامية المحدثه».

وقد بدأت حركة الكشف عن هذه الكلمات الغامضة على يد رسول الله ﷺ ، فقد سأله أعرابى عن قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قائلاً: وأينا لم يظلم نفسه؟ ففسر له النبى عليه الصلاة والسلام الظلم بالشرك واستشهد عليه بقوله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ويوضح ابن قتيبة فى كتابه «المسائل» أن «العرب لانتوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه بل لبعضها الفضل فى ذلك على بعض، والدليل عليه قول الله عزوجل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] ثم قال: «ويدل عليه قول بعضهم: يارسول الله أنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه، ونحن العرب حقا، فقال: إن ربي علمنى فتعلمت».

وكان الصحابة رضى الله عنهم يسمون هذا الغريب : «إعراب القرآن». ولا يقصدون به معنى: الإعراب النحوى، لأنهم كما يقول الرافعى كانوا: «يستبينون معانيه، ويخلصونها» وقد روى أبو هريرة : «أعربوا القرآن، والتمسوا غرائبه».

وقد لمس هذا المعنى الزمخشرى فى كتابه: «أساس البلاغة» فقال: «وتكلم فأغرب إذا جاء بغرائب الكلام ونوادره، وتقول: فلان مغرب كلامه ومغرب فيه، وفى كلامه غرابة، وغرب كلامه، وقد غربت هذه الكلمة أى غمضت فهى غريبة، ومنه قول الأعرابي: ليس هذا بغريب، ولكنكم فى الأدب غرباء».

### الشواهد الشعرية والغريب:

مما لاشك فيه أن اهتمام الرواة بالشعر العربى، وجمعه وروايته، وإقامة الدراسات حوله لتقده كان من أجل القرآن الكريم لتفسير غريبه، وتوضيح معانيه. والدليل على هذا قول ابن عباس رضى الله عنهما: «إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب» ولاهتمام العلماء بالقرآن الكريم كان الشافعى الفقيه الكبير يخفظ عشرة آلاف بيت من شعر هذيل بإعرابها، وغريبها ومعانيها.

وحدثوا عن ابن الأبارى أنه كان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت من الشعر من أجل القرآن الكريم.

وقد أشاد الرافعى بهذه العناية الفائقة التى وجهها العلماء إلى الشعر العربى من أجل القرآن الكريم فقال: «توسع أهل اللغة فى شواهد القرآن، ونقبوا عنها... إلى أن يقول: فلا يعرف فى تاريخ العلوم اللسانية قاطبة شواهد تبلغ عدتها أو تقاربها أو تكون منها على نسبة متكافئة، فإن ما أحصوه من شواهد القرآن فيما ذكروا ثلاثمائة ألف بيت من الشعر ولعمر أبىك إنها لمعجزة فى فنها، ولو بلغت الشواهد نصف هذا القدر لكانت المعجزة كاملة».

ويسوق لنا الإمام اليبضاوى فى تفسيره قصة تبين لنا فى وضوح كيف كان يعجز بعض الصحابة عن فهم معانى بعض هذا الغريب، فإذا ما فسر هذا الغريب بشعر قالته العرب استراحت النفس إلى هذا التفسير، وأطمأن القلب ألى هذا البيان . فى قوله تعالى:

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧]. يقول البيضاوي: أى على مخافة بأن يهلك الله قوماً قبلهم فيتخوفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوفون أو على أن ينقص شيئاً بعد شيء فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، من تخوفته إذا تنقصته.

وهذا التفسير لمعنى التخوف ما كان معروفاً لولا هذه الحادثة التى ساقها البيضاوي عقب تفسيره لهذه الكلمة فقد قال: روى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل، فقال: هذه فى لغتنا. التخوف: التنقص، فقال: هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها؟ قال نعم. قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخوف الرحل منها تامكاً قرداً      كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر: عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم، ومعانى كلامكم.

ويعرض لهذه الكلمة الغريبة القالى فى كتابه الأمالى مفسراً بعض الكلمات الغامضة فى بيت الاستشهاد فيقول: التامك: المرتفع من السنام. والقرد: المتلبد بعضه على بعض. والسفن: المبرد.

ولم يكتف أبو على القالى بهذا البيت المستشهد به لتوضيح كلمة: «تخوف» بل يشفع ذلك البيت بيت آخر فيقول «وأخبرنى أبو بكر بن الأنبارى عن أبيه قال: أتى أعرابى إلى ابن عباس فقال:

تخوفنى مالى أخ لى ظالم      فلا تخذلنى اليوم ياخير من بقى

فقال: تخوفك: أى تنقصك؟ قال: نعم، قال الله أكبر: ﴿يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾.

وتواجهنا فى آسالى القالى كلمة أخرى غريبة وهى كلمة: «يحصص» من قوله تعالى ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤١].

قال أبو على: قرأت على أبى بكر الأنبارى فى قوله عز وجل: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أقوالاً: قال قوم: يمحصهم: يجردهم من ذنوبهم، واحتجوا بقول أبى دؤاد الأيدى يصف قوائم الفرس.

صم النور صحاح غير عائرة ركبى فى محصاء مللقى العصب

النور : شبه النوى التى تكون فى باطن الحافر . ومحصاء : أراد قوائم منجرداء لىس فىها إلا العصب والجلد والعظم . ومنه قولهم : اللهم محص عنا ذنوبنا . قال : وقال الخليل : معنى قوله عزوجل : وللمحص : وليخلص . وقال أبو عمرو وإسحاق بن نزار الشىبانى : وللمحص : وليكشف واحتج بقول الشاعر :

حتى بدت قمرأوه وتمحصت ظلماؤه ورأى الطريق المبصر

قال : ومعنى قولهم : اللهم محص عنا ذنوبنا أى اكشفها ، وقال آخرون : أطرحتها عنا . وقال أبو على : هذه الأقوال كلها فى المعنى واحد ألا ترى أن التخليص تجريد ، والتجريد كشف ، والكشف طرح لما عليه .

وقد فاضت كتب التراث الإسلامى بهذه الشواهد الشعرية التى خدمت القرآن الكريم فى توضيح غريبه ، وكشف معانيه .

وإلى القارىء نماذج من هذه الشواهد ليدرك مدى ما بذل هؤلاء العلماء من جهد صادق فى مجال القرآن الكريم .

**من هذه النماذج :**

كلمة ( زنىم ) من قوله تعالى ﴿ عَتَلْ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴾ [ القلم : ١٣ ] فقد سئل ابن عباس عنها فاستشهد فىها بقوله :

زنىم نداعاه الرجال زيادة كما زىد فى عرض الأديم الأكارع

وعن ابن ملكة قال : سئل ابن عباس عن « الليل وما وسق » فقال : وما جمع ، ألم تسمع قول الشاعر :

إن لنا قلائصاً حقائقا مستوسقات لو يجدن سائقا

وأستلة نافع بن الأزرق لابن عباس حول كلمات من غريب القرآن الكريم مشهورة سجلتها معظم الكتب التي ألفت في الدراسات القرآنية. وكانت إجابة ابن عباس عن هذه الأسئلة بالشعر العربي ليؤكد أن هذه الكلمات ليست غريبة عن اللغة، وإن كان لا يدركها الكثير من العرب.

ومن أسئلة نافع سؤاله عن قوله الله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٧]. قال ابن عباس: حلق الرفاق. قال نافع: وهل تعرف العرب ذلك قال نعم، أما سمعت عبید ابن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

وسأله عن قوله تعالى: ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩]: نضجه أما سمعت قول القائل:

إذا ما مشت وسط النساء تأودت كما افتر غصن ناعم النبت يانع

وسأله عن قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] قال: الوسيلة.

الحاجة. أما سمعت قول عترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضي

وسأله عن قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَبْسُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الرعد: ٣١] قال: أفلم يعلم. أما سمعت

قول مالك بن عوف.

لقد يبس الأقوام أنى أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائبا

وسأله عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٩] قال: لاتعرق من شدة حر الشمس،

أما سمعت قول القائل:

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر

### الغريب والمجاز:

وإذا تجاوزنا هذا الغريب إلى المعاني والمجاز فإننا نرى كثيرا من الشواهد الشعرية جاءت لتوضح هذه المعاني، وتكشف لنا أسرار هذا المجاز.

ويطالعنا أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي في كتابه: «جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام» بطائفة من الشعر الذي استشهد به في مجالى المعانى والمجاز.

يقول أبو زيد: «وفى القرآن مثل ما فى كلام العرب من اللفظ المختلف ومجاز المعانى فمن ذلك قول امرئ القيس:

قفا فاسألا الأطلال عن أم مالك      وهل تخبر الأطلال غير التّهالك

فقد علم أن الأطلال لا تجيب إذا سئلت، وإنما معناه: قفا فاسألا أهل الأطلال، وقال الله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢].

وقال السماخ بن ضرار التغلبي:

أعائش ما لقومك لا أراهم      يضيعون الهجان مع المضيع

(لا) هنا زائدة، والمعنى: ما لقومك أراهم. وقال تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] (لا) هنا زائدة. والمعنى: غير المغضوب عليها والضالين.

قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

وكل أخ مفارقه أخوه      لعمر أيبك إلا الفرقدان

فجعل (إلا) بدلا من الواو، والمعنى: والفرقدان كذلك. وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائرَ الإثمِ والفَواحشِ إِلاَّ اللّٰمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] (إلا) ها هنا بدل من الواو. والمعنى: واللمم. وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمُ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨].

وقال امرؤ القيس بن حجر:

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى      كبرت وألأ يحسن السرّ أمثالى

السر: النكاح، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَّا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥]

وقال زهير:

ويُنغض لى يوم الفِجار وقد رأى      خيولا عليها كالأسود ضوارى

ينغض: يرفع رأسه . قال تعالى: ﴿فَسَيَنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] أى يرفعونها ويحركونها بالاستهزاء.

وقال النابغة:

تَلَوْتُ بَعْدَ افْتِضَالِ الْبُرْدِ مِثْرَهَا      لَوْتُ عَلَى مِثْلِ دِعْصِ الرَّمْلَةِ الْهَارِي

الهاري: المهتمد من الرمل . قال الله تعالى: ﴿عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩] أى مهتمد.  
وقال الأعشى:

كَأَنَّ مَشِيئَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا      مَوْرُ السَّحَابَةِ لَارِثٌ وَلَا عَجَل

وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩] والمور: الاستدارة والتحرك.  
وقال الأعشى:

أَمْ غَابَ رَبِّكَ فَاغْتَرْتِكَ خِصَاصَةً      فَلَعَلَّ رَبِّكَ أَنْ يُؤْوِبَ مُؤِيدَا

الرب: السيد، قال الله تعالى: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠] أى إلى سيدك.  
وقال الأعشى:

تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ قَسَرْتِ مَرْتَحَلًا      يَارَبَّ جَنْبِ أَبِي الْأَوْصَابِ وَالْوَجَعَا

عليك مثل الذى صليت فاغتمضى      نوما فإن جنب الحبي مضطجعا

الصلاة ها هنا: الدعاء تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]  
وقال الأعشى يذكر النعمان:

وخرت تميم لأذقانها      سجودا لذى التاج فى الممعمه

الأذقان: لوجوه كقوله تعالى: ﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقال لبيد:

وما الناس الا عاملان فعامل      يتبر ما بينى وآخر رافع

يتبر: أى ينقص قال الله تعالى: ﴿مُتَبِّرًا مَا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٩]

وقال أمية بن أبي الصلت:

وفيها لحم ساهرة وبحرٍ وما فاهوا أبداً مقيمٌ

الساهرة : الفلاة . قال الله عز وجل : ﴿إِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات : ١٤]

وقال أمية بن أبي الصلت:

نفشت فيه عشاءً غنمٌ لرعاءٍ ثم بعد العتمة

النفش : الرعى بالليل . قال الله تعالى : ﴿إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء : ٧٨] .

وقال أمية بن أبي الصلت:

لقيت المهالك في حربنا وبعد المهالك لاقيت غياً

غى : واد في النار . قال الله تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم : ٥٩]

وقال أبو ذؤيب:

إذا سمعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوبٍ عواسلٌ

لم يرج : لم يخف . وقال الله تعالى : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح : ١٣] أى لاتخافون .

هذه أمثلة متعددة اقتبستها من كتاب الجمهرة ثبت أن الشواهد الشعرية ضرورة ملحة في توضيح معانى غريب القرآن، وكشف الستار عن مجاز الكلمات القرآنية التي لا تستطيع المعاجم اللغوية أن تفي بإيضاحها، وبيان المقصود بها .

ويعلق صاحب جمهرة أشعار العرب على هذه الشواهد بعد أن ساق هذه الأمثلة الكثيرة بقوله : (والأخبار في هذا لعمرى تطول ، والشواهد تكثر غير أننا اقتصرنا من ذلك على ما حكيناه في كتابنا هذا) .

**أول مصنف في غريب القرآن،**

لعلنا إذا بحثنا مدققين عن أول مصنف يطالعنا في مضمار غريب القرآن نجد كتاب

«مجاز القرآن» لأبي عبيدة معمر بن المثنى، ذلك لأن السيوطى فى كتابه: «الوسائل فى مسامرة الأوائل» ينصر على أن أول من صنف فى غريب القرآن هو: أبو عبيدة معمر بن المثنى، «لأنه جاء بعد قتادة بن دعامة السدوسى المتوفى ١١٧ هـ وأبى عمرو بن العلاء المتوفى ١٥٤ هـ»، وهما لم يخلفا لنا أثراً مكتوباً وإنما كانت الأخبار تنقل عنهما مشافهة».

وكتاب: مجاز القرآن» لأبى عبيدة وإن كان يحمل اسم المجاز فهو فى حقيقة أمره كتاب يدور حول الغريب من الكلمات القرآنية، وتفسير هذا الغريب بالشعر وكلام العرب.

وقد التبست كلمة «المجاز» هذه على المرحوم الاستاذ عبد العزيز البشرى فقد ذهب إلى أن كتاب (مجاز القرآن) لأبى عبيدة يدور حول بيان الحقيقة من المجاز فى القرآن الكريم.

وقد رد الاستاذ المرحوم أمين الخولى على الاستاذ البشرى هذا الظن وبين «أن الحق الذى قاله القدماء، وتنطق به القطعة المحفوظة بدار الكتب المصرية من كتاب أبى عبيدة نفسه - الحق أن هذا الكتاب فى تفسير القرآن».

وقد استدل أمين الخولى بقول ابن تيمية عنه فى كتاب «الإيمان» إذ يقول: «أول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه، ولكنه لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة، وإنما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية».

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن الزميل المرحوم الدكتور حفى شرف وقع فى هذه الشبهة أيضاً ولم ينتبه إلى أن (المجاز) ليس هو ما يقابل الحقيقة بل ما يعبر به عن الآية أو لتوضيح الغريب وبيانه. قال الدكتور حفى شرف: بصدد الحديث عن صاحب المجاز «كان كل همه معرفة الحقيقة والمجاز للالفاظ القرآنية وقرينها بما جاء مثيلاً لها فى الأدب العربى مما جعل كتابه يعتبر بحق النواة الأولى للبحوث البيانية».

### الدافع لتأليف (مجاز القرآن):

ولانسى أن نذكر أن الدافع لتأليف هذا الكتاب سؤال وجه إلى أبى عبيدة فى مجلس الفضل بن الربيع حول غريب آية قرآنية، يحدثنا ذلك ياقوت عن أبى عبيدة فيقول: «ثم

دخل رجل فى زى الكتاب له هيئة، فأجلسه إلى جانبى وقال له: أتعرف هذا؟ قال : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه ، فدعا له الرجل ، وقرظه لعقله هذا، وقال لى : إني كنت إليك مشتاقًا، وقد سألت عن مسألة، افتأذن لى أن أعرفك إياها فقلت: هات. قال : قال الله عزوجل : ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصفات: ٦٥] وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف، فقلت: إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم. أما سمعت قول امرئ القيس:

أبقتلنى والمشرّف مضاجعى      ومسنونة زرق كانياب أغوال

وهم لم يرو الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك، واستحسنه السائل، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتابا فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه، وما يحتاج إليه من علمه، فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابى الذى سميته «المجاز». وسألت عن الرجل السائل فقيل لى: «هو من كتاب الوزير وجلسائه وهو إبراهيم بن إسماعيل الكاتب».

وبعد هذا الكتاب ظهرت كتب أخرى فى الغريب أهمها كتاب:

تفسير غريب القرآن لابن قتيبة:

وقد بين ابن قتيبة فى مقدمة كتابه أن كتابه: «مستنبط من كتب المفسرين وكتب أصحاب اللغة العالمين، لم نخرج فيه عن مذاهبهم، ولا تكلفنا فى شىء منه بآرائنا غير معانيهم بعد اختيارنا فى الحرف أولى الأقاويل فى اللغة».

ويعيب ابن قتيبة على قوم التمسوا منكر التأويل، ومنحول التفسير، فقد نحل قوم التفاسير المنحولة، والروايات المنكورة، وكان الأحرى بهم أن يعتمدوا على كلام العرب ليكون منارا لهم يهديهم ويرشدهم، لأن القرآن كتاب كريم نزل بلسان عربى مبين.

يقول ابن قتيبة: «ونبذنا منكر التأويل، ومنحول التفسير، فقد نحل قوم ابن عباس أنه قال فى قول الله عز وجل : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١] أنها غورت من قول الناس بالفارسية: كورد بكرد.

وقال آخر فى قوله: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلاً﴾ [الإنسان: ١٨] أراد سلقى سبيلاً إليها يا محمد.

وقال الآخر فى قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]: إن الإبل: (السحاب).

وقال الآخر فى قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]: إن الزينة: المشط. ثم يختم ابن قتيبة مقدمته بقوله: «مع أشياء لهذا كثيرة لاندري: أمن جهة المفسرين لها وقع الغلط؟ أم من جهة النقلة».

أمثلة من الشواهد الشعرية فى كتاب (تفسير الغريب):

﴿مَأْوَأَكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الحديد: ١٥] أى هى أولى بكم. قال لبيد:

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها

﴿عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ [النبا: ٣٦] أى كثيرا. يقال: أعطيت فلانا عطاء حساباً وأحسبت فلانا أى أكثر له. قال الشاعر:

ونقفى وليد الحى إن كان جائعاً ونَحِسُّبه إن كان ليس بجائع

﴿يَوْمٌ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] أى عن شدة من الأمر. قال الشاعر:

فى سنة قد كشفتُ عن ساقها حمراء تَبْرِى اللحم عن عرقها

«الجبلية» [الشعراء: ١٨٤] الخلق. يقال: جبل فلان على كذا، وكذا أى خلق.

قال الشاعر:

والموت أعظم حادث مما يمرّ على الجبله

على أن رواة شعر الشواهد فى مجال غريب القرآن ومعانيه لم يأنفوا من الاستشهاد بسفهاء العرب وأجلافهم، ولم يتورعوا عن رواية الأشعار: «التى فيها الخنا والفحش لأنهم يريدون منها الألفاظ، وهى حروف طاهرة» ويروى لنا الرافعى فى هذا الشأن خبرا طريفا يدل

على قدسية الألفاظ وطهارة الكلمات. قال: «روى أبو حاتم عن الجرمي أنه أتاه أبو عبيدة معمر بن المثنى الراوية بشيء من كتابه في تفسير غريب القرآن. قال الجرمي: فقلت له: ممن أخذت هذا يا أبا عبيدة فإن هذا تفسير خلاف تفسير الفقهاء؟ فقال: هذا تفسير الأعراب البوالين على أعقابهم فإن شئت فخذ، وإن شئت فذر».

وقبل أن اختتم الحديث في شواهد غريب القرآن أود أن أشير إلى رأى الدكتور طه حسين فى كتابه: «فى الأدب الجاهلى» حول استدلال ابن عباس على الكلمات القرآنية الغريبة بالشعر العربى، فقد أنكر طه هذه القصة. واعتمد على انكاره هذه القصة بأنها قد وضعت فى تكلف وتصنع لتثبت أن ألفاظ القرآن الكريم كلها مطابقة للفصحى من لغة العرب، أو أن هذه القصة مدسوسة عليه «فقد كان له مولى وهو «عكرمة» يدس عليه كثيرا من الأخبار».

والحق أنه لا داعى لهذا الإنكار، أو لهذه الاحتمالات والافتراضات فعبد الله بن عباس يعلم أن الشعر ديوان العرب، وهو المصدر الوحيد الذى يلجأ إليه فى تفسير غريب القرآن. وقد قال: «الشعر ديوان العرب فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلسان العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه».



## ٨. أدوات المفسر (\*)

أنا مؤمن بحرية الفكر، لأن الفكر الذليل لا يكون نتاجه إلا الانحلال والضعف، والجهل والفوضى.

وأنا مؤمن بحرية الفكر، لأن الفكر الحر يفتح أبواب المعرفة فتزدهر الحضارة، وتتقدم الأمم.

وأنا مؤمن بحرية الفكر، لأن الإسلام يعتبر الفكر خلية من خلايا تكوينه، ولبنة حية في بنائه الشامخ.

وقد تعددت في القرآن الكريم مادة «فكر» ومشتقاتها في ثمانية عشر موضعاً<sup>(١)</sup>، ولكن هذا الفكر الذي أؤمن به له مجال لا يتعداه، وحدود لا يتجاوزها، وإلا أصبح مardاً خطراً، يخرّب ولا يعمر، يفسد ولا يصلح، يهدم ولا يبني. وإنني لا أستطيع أن أقف حجر عثرة في طريق هؤلاء المفكرين الأحرار الذين يحاولون أن يخضعوا كتاب الله للتفسيرات العصرية، لأن من حقهم أن يفكروا، وليس تفسير كتاب الله وقفاً على طائفة معينة من الناس، أو فئة مميزة من العلماء، ذلك لأن الإسلام دين الحرية، ودين التفكير، يحارب التقليد ويتحداه، ويحتضن العقل ويتبناه.

غير أن حرية التفكير في مجال كتاب الله مقيدة بقيود محددة، فتفسير كتاب الله توضيح لمعانيه، وتبيان لأحكامه، وكشف لأسراره وهذا لا يتأتى لكثير من العلماء أو المثقفين.

ومن أجل هذا الخطأ في التفسير رأينا بعض أصحاب رسول الله ﷺ يتخرجون من السير في هذا الطريق الوعر، فقد تفسر الآية بمعنى غير مراد، وفي هذا الهلاك الذي ليس بعده

(\*) نشر في مجلة الفكر الإسلامي (بيروت) العدد الثاني ذو الحجة - ١٣٩١ - فبراير سنة ١٩٧٢.

(١) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم في مادة : فكر.

هلاك، فأبو بكر الصديق رضى الله عنه حينما سئل عن قوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (١) قال: أى سماء تظلنى، وأى أرض تقلنى إن قلت فى كتاب الله ما لا أعلم.

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما قرأ على المنبر «وفاكهة وأبا» (٢) قال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: لعمرك إن هذا هو التكلف يا عمر (٣).

وقد كان الأصمعى الراوية الكبير يسير على هذا المنهج، يستخرج من التفسير، ويخشى خطره مع أنه كما يقول ابن الأنباري: كانت له «يد غراء فى اللغة لا يعرف فيها مثله وفى كثرة الرواية» (٤).

يحدثنا ابن الأنباري عن موقف طريف فى هذا المجال حدث بين الأصمعى وبين أبى عبيدة معمر بن المثنى. قال التوزي: بلغ أبأ عبيدة أن الأصمعى يعيب تأليفه كتاب المجاز (٥) فى القرآن الكريم، وأنه يفسر ذلك برأيه، فسأل أبو عبيدة عن مجلس الأصمعى فى أى يوم هو؟ فركب حماره، ومر بحلقة الأصمعى، فنزل عن حماره وسلم عليه، وجلس عنده، وحادثه ثم قال له: يا أبأ سعيد، ما تقول فى الخبز؟ قال الأصمعى: هو الذى تخبزه وتأكله، فقال له أبو عبيدة: فرت كتاب الله برأيك، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا﴾ (٦).

فقال له الأصمعى: هذا شىء بان لى فقلته، ولم أفسره برأى، فقال له أبو عبيدة: وهذا الذى تعيبه علينا: كله شىء بان لنا، فقلناه، ولم نفسره برأينا، ثم قام فركب حماره وانصرف (٧).

(١) النساء: آية ٨٥.

(٢) عبس: آية ٣١.

(٣) مقدمتان فى علوم القرآن ص ١٨٣ تحقيق آرثر جفري. مطبعة السنة المحمدية - القاهرة.

(٤) نزهة الألباء ص ٧٦.

(٥) المجاز لأبى عبيدة طبع بتحقيق الأستاذ محمد فؤاد سزكين.

(٦) يوسف: آية ٣٦.

(٧) نزهة الألباء ص ٧٣.

ونحن لانميل إلى رأى الأصمعى فى هذا ، فهو رأى متزمت يقوم على المبالغة فى الحرص ، واتقاء الشبهات . والعلم لا يزكو ولا يتطور إذا كان شعاره هذا المنهج الأصمعى .  
وفى رأى أن كل من كملت له أدوات التفسير التى تساعده على أداء مهمته الخطيرة وتأخذ بيده فى هذا الطريق الشائك الوعر ليصل إلى مرفأ السلام - من حقه أن يفسر ، ومن حقه أن يجتهد ، ومن حقه أن يدلى بدلوه بين الدلاء فما هى إذن هذه الأدوات؟ .

### ١ - إتقان اللغة العربية والتبحر فيها؛

وهذا الإتقان بطبيعة الحال يقتضى الإمام بالشعر العربي ، فهو الديوان الذى يرجع إليه ليزيل اللبس ، ويوضح الغامض . والقرآن الكريم نزل بهذه اللغة ليتحدى أرباب القول ، ومن ثم عجزوا عن الإتيان بمثله مع أنّ لغته ليست غريبة عنهم .  
ولقد عرف لهذا الشعر منزلته ابن عباس الذى كان من منهجه فى التفسير أنه إذا خفى عليه الحرف من القرآن رجع إلى ديوانها فالتمس معرفة ذلك منه .

يحدثنا طلحة بن عمرو عن عطاء قال : سمعت ابن عباس إذا سئل عن عربية القرآن أنشد الشعر ، فقيل له : « ما زنيم »؟ من قوله تعالى : ﴿عَلَّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ (١) .  
قال ابن عباس :

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد فى عرض الأديم الأكارع .

وعن ابن مليكة قال : سئل ابن عباس عن « وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ » (٢) فقال : وما جمع . ألم تسمع إلى قول الشاعر :

إن لنا قلائصاً حقائقاً مستوسقات لو يجدن سائقاً

وعن ابن صالح قال : سمعت ابن عباس يشد للناس هذا البيت فى قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ (٣) .

(٣) إبراهيم : ٤٨ .

(٢) الإنشاق : ١٧ .

(١) القلم : ١٣ .

وما الناس بالناس الذين عهدتهم وما الدار بالدار التي كنت أعرف (١).

وإتقان اللغة يستلزم معرفة الكلمات القرآنية المتشابهة التي يعز فهمها على كثير من الناس، وحتى في عصر الازدهار اللغوي يحدثنا التاريخ أن أعرابياً توقف ذهنه في إدراك معانى بعض الكلمات القرآنية في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ (٢) ويتجه إلى النبی عليه السلام لیسأله عن الظلم بقوله: ﴿وَأَيْنَا لَمْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ﴾؟ فيجيبه النبی عليه السلام بأن الظلم في الآية هو الشرك، واستشهد عليه السلام بقوله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٣).

وقد أصاب ابن قتيبة الحقيقة حينما قرر في كتابه «المسائل» بأن العرب لاتستوى في المعرفة بجميع ما فى القرآن الكريم من الغريب والمتشابه، بل لبعضها الفضل فى ذلك على بعض، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (٤).

ويؤيد ابن قتيبة هذا المعنى بقول بعضهم: «يا رسول الله، إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه، ونحن العرب حقاً! فقال: إن ربي علمني فتعلمت» (٥).

وغريب القرآن الكريم كان موضع دراسة لعلماء الإسلام عبر القرون. ألف فيه أبو عبيدة معمر بن المثنى كتاب «المجاز» وألف فيه ابن قتيبة كتابه: تفسير غريب القرآن، ولأبى حيان الأندلسى كتاب: لغات القرآن، وقد عقد ابن النديم فى كتابه الفهرست باباً خاصاً للمؤلفات الإسلامية التى دارت حول غريب القرآن.

وإتقان اللغة أيضاً يقتضى إتقان قواعدنا نحوها وصرفها، فمن لم يكن ذا خبرة بهذه القواعد أفلتت من يده حقائق التفسير.

(١) انظر فى هذه المواضع ص ١٩٨، ص ١٩٩ من كتاب: مقدمتان فى علوم القرآن.

(٢) الأنعام: آية ٨٢.

(٣) لقمان آية ١٣، وانظر: اثر القرآن فى تطور النقد الأدبى ص ٢٧.

(٤) آل عمران: آية ٧.

(٥) المسائل لوحة ٤ نسخة مصورة رقم ٢٢٠٩٦٧ مكتبة جامعة القاهرة.

ومن أجل ذلك يقول الأصمعي: سمعت الخليل بن أحمد يقول: سمعت أيوب السجستاني يقول: «عامه من تزندق بالعراق لقلته علمه بالعربية» (١).

ولمكانة النحو في التفسير يوضح ابن قتيبة خطورة هذا العلم، وأثره في فهم المعنى، فيقول: «ولو أن قارئاً قرأ «فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون» (٢).

وترك طريق الابتداء بيان، وأعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب إن بالقول كما ينصبها بالظن لقلب المعنى من جهته، وأزاله عن طريقته، وجعل النبي عليه السلام محزوناً لقولهم: إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، وهذا كفر بمن عمده، وضرب من اللحن لا تجوز الصلاة به ولا يجوز للمؤمنين أن يتجاوزوا فيه (٣).

ويعدد الإمام الغزالي في كتابه (الإحياء) الأمثلة التي لا يكتفى فيها بظاهر العربية، لأنها لاتسعف في كثير من مجالات التفسير، فيقول مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ (٤) معناه: آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها، فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة، ولم تكن عمياء.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ (٥) أي حب العجل فحذف الحب.

وفي قوله عز وجل: ﴿إِذَا لَأَذُنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ (٦) أي ضعف عذاب الأحياء، وضعف عذاب الموتى، وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والموت، وكل ذلك جائز في فصيح اللغة.

ومن هذا القبيل ما ذكره الصفدي في كتابه «الغيث المسجم في شرح لامية العجم» حينما تعرض للآية القرآنية: «وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ» (٧) قال مانصه: «وهذه الآية ظاهرها

(١) الزينة: ص ١١٧. (٢) يس: آية ٧٦.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ١٢.

(٤) الإسراء: ٥٩. (٥) البقرة: ٩٣. (٦) الإسراء: ٧٥.

(٧) الكهف: ٨٦.

مشكل وهو مغمز للزنادقة، لأنهم يقولون: إن البرهان قد ثبت في المجسطي: أن الشمس قدر الأرض نحو مائة وستين مرة وكسوراً فكيف تدخل مع هذا القدر العظيم في عين من عيونها؟.

والجواب أن (في) هنا ليست ظرفية، وأنها على ما ذهب إليه ابن قتيبة بمعنى عند كقول الشاعر:

✽ حتى إذا أَلقت بدأ في كافر ✽ ...

أو بمعنى مع كقول الشاعر:

✽ وفي الشر نحاة حين لا ينجيك إحصان ✽

معناه : ومع الشر (١).

وقد حذر الإمام مالك بن أنس هؤلاء الذين يتجرءون على كتاب الله مفسرين من غير أن يتفقهوا في العربية فيقول - كما رواه البيهقي عنه - : «لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يُفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا» (٢).

٢- ومن أدوات المفسر معرفة أسباب النزول ، فكثير من الآيات القرآنية مرتبطة بأسباب نزولها، ولا تفسر إلا في ضوء هذه الأسباب وإلا لأخرجنا هذه الآيات عن حقائقها، وقلنا في كتاب الله بغير علم، فمثلاً قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ (٣). ظاهر هذه الآية عدم وجوب استقبال القبلة في الصلاة، وهذا خلاف الإجماع، وخلاف صريح الآية القرآنية الأخرى: ﴿ فَلَنْزُلَيْكَ قِبَلَهُ تَرْضَاهَا فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (٤). لو عرفنا أن الآية الأولى نزلت في نافلة السفر، وفيمن صلى بالتحري لزال الإلباس، واتضح وجه الحقيقة من التفسير.

(١) ج ١ ص ١٢٨ طبع سنة ١٢٩٠ هـ.

(٢) محاسن التأويل ج ١ ص ٨.

(٣) البقرة: ١١٥.

(٤) البقرة: آية ١٤٤.

ولم يقف علماء الإسلام مكتوفى الأيدى أمام معرفة أسباب النزول، فألفوا فيه كتباً متعدّدة، ومن أشهرها كتاب على بن المدينى شيخ البخارى، وكتاب الواحدى، وكتاب شيخ الإسلام ابن حجر، وكتاب السيوطى الحافل، المسمى: «بأسباب النقول فى أسباب النزول».

٣- ومن الأدوات معرفة الإسرائيليات، والوقوف على مصادرها، وبيان زيفها حتى لا يقع المفسر فيما وقع فيه كثير من المفسرين.

وقد قدم الأستاذان الفاضلان: الأستاذ محمد الذهبى والأستاذ محمود يونس بحثين حول الإسرائيليات فى القرآن الكريم، ألقياهما فى المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية. وقد كشف البحثان عن خطورة الإسرائيليات المحشوة بها كتب التفسير، ولا يحق لمفسر عصرى أن يعتمد على هذه الإسرائيليات لأنها من الكذب صيغت، ولأنها من أجل الفوضى فى التفسير صنعت، فعلى المفسر الواعى أن يفتن لهذه الإسرائيليات ويطررها بعيداً عن مجال كتاب الله.

ولنا أن نتساءل: ما السر الخفى وراء هذه الأكاذيب التى تفيض بها بعض كتب التفسير؟ وللإجابة عن هذا أترك المجال للأستاذ الفاضل الشيخ الذهبى ليحدثنا عن هذا السر الخفى فيقول: «لقد هال أعداء الإسلام ما أصبح له ولأهله من قوة، فتربصوا به الدوائر، وقد تفتحت عقولهم الماكرة، وقلوبهم الفاجرة عن مكر سيئ، وخداع بشع، فتظاهر نفر منهم بالدخول فى الإسلام، وقلوبهم خاوية، ونسجوا الكذب وأذاعوه فى خبث ومهارة... إلى أن يقول: ولاشك أن الإسرائيليات بما حوته من أباطيل وخرافات نسب الكثير منها إلى رسول الله ﷺ، وإلى صحابته رضوان الله عليهم، واتخذها بعض المشتغلين بالتفسير مادة يشرحون بها بعض نصوص القرآن الكريم، وتشكل خطراً بالغاً»<sup>(١)</sup>.

وعلى منوال هذه الإسرائيليات نسج كثير من المستشرقين فى العصر الحاضر، فقد قاموا بدراسات مختلفة حول القرآن الكريم، محشوة بالأباطيل والأكاذيب، وقد بينت ذلك فى بحثين نشرنا فى مجلة الوعى الإسلامى<sup>(٢)</sup>.

٤- ومن أدوات المفسر: الإحاطة بالحديث الشريف، والعلم الكامل بروايته والدراسة

(١) مجلة الأزهر أكتوبر سنة ١٩٦٨.

(٢) أحدهما بعنوان من دراسات المشرقين حول القرآن الكريم. الوعى الإسلامى: يونيو سنة ١٩٧٠. وثانيها بعنوان: جوانب من أخطاء المشرقين فى الدراسات القرآنية: الوعى الإسلامى: أكتوبر سنة ١٩٧٠.

الناقدة لسنده. ذلك لأن الحديث الشريف يفصل مجمل الآيات القرآنية، ويوضح المراد منها، وبخاصة في أحكام العبادات والمعاملات فمن لم تكن له دراسة بهذه السنة، وتصدى لتفسير كتاب الله قيل له: قف حيث أنت فليس كتاب الله نهياً لكل رأى، أو مطية ذلولاً لكل فكر.

٥- ومن أدوات المفسر: التقييد بالنصوص النقلية إذا قوى سند روايتها، وأعنى بها النصوص التى تقع فى دائرة المغيبات، والمغيبات هى الأمور التى تتعلق بالآخرة: من جنة ونار، ونعيم وعذاب، وحساب وعقاب، وموقف وحشر وصحف وصراط. فهذه المغيبات جميعها لاتخضع لعقل، أو تقع تحت تجربة أو توضع فى مخبار.

إنه ليس من المنهج العلمى - إذا كانت المغيبات هذا شأنها - أن تفسر بالاجتهاد العقلي، لأن العقل مرتبط بما تنقله إليه الحواس من خبرات وتجارب. وما عدا ذلك من أمور الغيب فهو قزم فى مجالها، صغير فى محيطها. لأن الغيب أكبر منه.

لهذا، فإننى لا أستسيغ التفسير العصرى الذى يقول مثلاً إن شجرة آدم التى أكل منها ناسياً هى رمز الجنس، ليقول بعد ذلك: إنه التجديد فى التفسير.

ولقد أصاب كبد الحقيقة الدكتور محمد عبدالله دراز حينما يقول فى كتابه: «نظرات جديدة فى القرآن» ما نصه: «ما فى القرآن الكريم من الأنباء التاريخية لاجدال فى أن سبيلها النقل لا العقل، وأنها تجيء من خارج النفس لامن داخلها»<sup>(١)</sup>.

وقد حذر القرآن الكريم من الرأى الذى لا يستند إلى دليل، والاجتهاد الذى لا يقوم على أصل، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد نعت السنة أيضاً على هؤلاء الذين يخوضون فى كتاب الله من غير أن يملكوا هذه الأدوات التى تذلل لهم الطريق، وتبين لهم الغامض، فيقول النبى عليه السلام: «من تكلم فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»<sup>(٣)</sup>.

(١) النبأ العظيم (نظرات جديدة فى القرآن) ص ٣٢.

(٢) الإسراء : ٣٦.

(٣) سنن أبى داود فى كتاب العلم.

وفى موضع آخر يقول عليه السلام : «من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»<sup>(١)</sup>.

٦- من أدوات المفسر: الإمام بمناهج كتب التفسير قديهما وحديثها ليكون المفسر العصرى على بينة من أمره، حتى لا تختلط عليه المناهج، فيضطرب تفسيره، وتهتز آراؤه وتضيع الحقيقة بين هذا الاهتزاز والاضطراب.

ولما كانت مناهج القدماء مختلفة فى مجال التفسير رأينا الإمام السيوطى يقوم بجهد كبير ليلم بهذه المناهج، ويضع النقاط على الحروف أمام المفسر حتى لا تفلت الحقيقة من يده، وكتابه: طبقات المفسرين لا يستغنى عنه مفسر فى هذا الباب.

إن السيوطى فى كتابه بين لنا أن المفسرين أربعة أنواع:

الأول: المفسرون من السلف والصحابة، والتابعين، وأتباع التابعين.

الثانى: المفسرون من المتحدثين، وهم الذين صنفوا التفاسير مورداً فيها أقوال الصحابة والتابعين بالإسناد.

الثالث: بقية المفسرين من علماء أهل السنة الذين ضموا إلى التفسير التأويل والكلام على معانى القرآن وإعرابه، وغير ذلك.

الرابع: من صنف تفسيراً من المبتدعة كالمعتزلة والشيعة، وأضرابهم ثم قال السيوطى: والذى يستحق أن يسمى بالمفسرين من هؤلاء القسم الأول، ثم الثانى، وعلى أن الأكثرين فى هذا القسم نقلة، وأما الثالث فمؤولة، ولم أستوف أهل القسم الرابع، وإنما ذكرت منهم المشاهير كالزمخشري، والرماني، والجبائى وأشباههم<sup>(٢)</sup>.

٧- ومن أعظم أدوات التفسير: الإخلاص والتجرد لخدمة هذا الكتاب العظيم. والإخلاص كلمة خفيفة على اللسان، ثقيلة فى الميزان لا يتصف بها إلا أولو العزم من الرجال.

(١) المرجع السابق. (٢) مقدمة: كتاب طبقات المفسرين طبع أوروبا.

وقد وضع صاحب كتاب مفتاح السعادة: ميزاناً دقيقاً لتعريف الإخلاص فيقول: «إن الإخلاص هو النية بشرط كون الباعث واحداً فقط، فمن صام للقربة، وقصد معه الحمية، أو حج للقربة مع قصد صحة المزاج بحركة السفر، أو تعلم العلم لله مع قصد العز بين العشرة، ونحو ذلك من أمثال هذه الخطرات التي يخف معها العمل، فقد خرج بهذه عن الإخلاص، وتطرق إليه الشرك، ولما كان الإنسان قلماً ينفك عن أمثال هذه الحظوظ قيل: «من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى فقد نجح» (١).

وهؤلاء المفسرون العصريون الذين يحسون بالحظوظ النفسية حينما يتعرضون لكتاب الله مفسرين وشارحين - مغرورون، يملأ الكبر جوانب نفوسهم، لأن الحظوظ النفسية تغلق أبواب المعرفة أمام المفسر، فيهرف بما لا يعرف، ويخطب خطب عشواء.

ومن أجل ذلك يشترط العلماء في المفسر أن يخلص لله، ويتجرد من الهوي، ويصفى قلبه من شوائب الحياة، لأن القرآن الكريم لا يعطى معانيه، ولا يكشف أسرارهِ إلا لهؤلاء الذين رسخوا في العلم، ومرنوا على التقوي، ودربوا على مجاهدة النفس.

يقول صاحب «مفتاح السعادة»: «... ولعل العمر لو أنفق في استكشاف أسرار القرآن، وما يرتبط بمقدماتها ولواحقها لانقطع العمر قبل استيفائها، وما من كلمة في القرآن إلا تحقيقها محوج إلى مثل ذلك وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسرارهِ بعد غزارة علومهم، وصفاء قلوبهم، وتوافر دواعيهم على التدبر، وتجردهم للطلب. وأما الاستيفاء فلا مطمع فيه، ولو كان البحر مداداً، والأشجار أقلاماً لنفد البحر قبل أن تنفذ أسرار القرآن».

٨- ومن أدوات المفسر ألا يطلب الدنيا بعلمه، لأن الدنيا والآخرة كالضرتين متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وككفتي ميزان في رجحان إحداهما خفة الأخرى، وكالمشرق والمغرب يستلزم قرب أحدهما البعد من الآخر.

فكيف يعد من زمرة العلماء المفسرين من أكل الدنيا بعلمه كما قيل:

وراعى الشاة يحمي الذئب عنها      فكيف إذا الرعاة لها ذئابُ

ولعلى بهذا القدر أكون قد ألقيت ضوءاً كاشفاً حول أدوات المفسر من وجهة نظري.

\*\*\*

## مصادر البحث ومراجعته

- ١- أثر القرآن في تطور النقد العربي - الدكتور محمد زغلول سلام - مطبعة دار المعارف.
- ٢- تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة - تحقيق السيد أحمد صقر - دار إحياء الكتب العربية.
- ٣- الزينة في الكلمات الإسلامية والعربية: أبو حاتم الرازي - تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني - مطابع دار الكتاب العربي.
- ٤- طبقات المفسرين: جلال الدين السيوطي - طبع أوروبا.
- ٥- الغيث المسجم في شرح لامية المعجم للصفدي طبع ١٢٩٠ هـ.
- ٦- مجلة الأزهر.
- ٧- المجاز لأبي عبيدة: تحقيق محمد فؤاد سزكين - نشر الخانجي.
- ٨- محاسن التأويل: ابن مالك.
- ٩- المسائل: ابن قتيبة - نسخة مخطوطة مصورة رقم ٢٠٩٦٧ مكتبة جامعة القاهرة.
- ١٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبدالباقي.
- ١١- مفتاح السعادة - طاش كبرى زاده - دائرة المعارف النظامية - الهند.
- ١٢- مقدمتان في علوم القرآن تحقيق أرثر جفري - مطبعة السنة المحمدية.
- ١٣- النبأ العظيم: دكتور محمد عبدالله دراز - دار القلم الكويت.
- ١٤- نزهة الالباب: عبدالرحمن محمد الأثباري - طبع ١٩٢٤ هـ.

\*\*\*

## ٩. تفسير القرآن بالقرآن (\*)

### معنى التفسير:

التفسير فى اللغة يرجع إلى معنى الإظهار والكشف، وأصله كما يقول الزركشى فى كتابه: «البرهان» مأخوذ من التفسرة.

والتفسرة كما يقول صاحب «اللسان»: هى البول يستدل به على المرض، وينظر فى الأطباء يستدلون بلونه على علة العليل، وكذلك المفسر يكشف عن شأن الآية، وقصصها، ومعناها، والسبب الذى أنزلت فيه، وهو كأنه تسمية بالمصدر، لأن مصدر فعل جاء أيضاً على تفعله نحو: جَرَبَ تجربة، أو كَرَمَ تكريمة.

وفى رأى ابن الأنبارى أن أصل التفسير مأخوذ من قول العرب: فَسَّرْتُ الدابة، وفسرَّتها إذا ركضتها وهى محصورة لينطلق حصرها، وعلى هذا المعنى يصير معناه إلى الكشف أيضاً.

ومعنى التفسير على هذا الرأى: كشف المغلق من المراد بلفظه. والفعل منه يأتى مزيداً وغير مزيد، يقال: فسرت الشيء أفسره تفسيراً، وفسرته أفسره فسراً، وقد سمى ابن جنى كتبه الشارحة: الفسر وهى مصدر فسر.

والرأى الذى أميل إليه، لأنه أوضح فى مجال الدلالات، وعلاقات المعانى أن التفسير أصله، سفر لافسر، وضعت الفاء موضع السين على أساس القلب المكاني، والقلب المكاني باب معترف به فى مجال اللغة، وسفر معناها: الكشف، يقال: سفرت المرأة سفوراً إذا ألفت خمارها عن وجهها وهى سافرة، وأسفر الصبح: إذا أضاء.

وإنما بنوه على التّفْعِيل فقالوا: التفسير، لأنه للتكثير كقوله تعالى: «يذَّبِحُونَ أبناءكم»، «وغلقت الأبواب» فكانه يتبع فى تفسيره سورة بعد سورة، وآية بعد أخرى.

والتفسير معناه فى اصطلاح المفسرين: علم نزول الآية وسورها وأقاصيصها، والإشارات

(\*) نشر فى مجلة الوعي الإسلامى - يوليو سنة ١٩٧٢.

النازلة فيها، وترتيب مكيتها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها، وعامها، ومطلقها، ومقيدها، ومجملها، ومفسرها.

ومما لا ريب فيه أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، ولغة العرب في هذه الفترة من التاريخ كانت مضرب المثل في رصانة الألفاظ، وبلاغة المعاني، وقوة التراكيب .

وقد برزت خصائصها كاملة في الشعر العربي مما جعل بعض العلماء يقول: «ولو وجد أرسطو في شعر اليونان ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال، والاستدلالات، واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظاً ومعنى، وتبحرهم في أصناف المعاني وحسن تصرفهم في وضعها، ووضع الألفاظ بإزائها، وحسن مأخذهم وتلاعبهم بالأقويل المخيلة كيف شاءوا - لزاد على ما وضع من قوانين الشعر».

ومع قوة اقتدارهم في فنون القول تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بمثله، أو بعشر آيات منه، أو بأقصر سورة من سوره، فعجزوا بعد أن حاولوا، وصدق الله العظيم حين يقول: ﴿قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ والجنُ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾.

ومما لا شك فيه أن هذا يدل على أن كلام الله لا يشبهه كلام في مجال الفصاحة والبلاغة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة.

ولنا أن نتساءل: هل القرآن الكريم الذي بلغ هذه الذروة في فصاحة الكلمة وبلاغة المعنى يفهمه العرب جميعاً، ولا يحتاجون في مجاله إلى بيان أو تفسير؟

وللإجابة عن هذا السؤال أقول: إن من المفكرين العرب من يرى هذا الرأي كابن خلدون الذي نص في مقدمته على: «أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه».

وفي رأيي أن ابن خلدون تجاوز الحقيقة في هذا الرأي، وذلك لما يأتي:-

١- لغة العرب لم تكن ممثلة في لهجة واحدة، حقا قال الرواة: إن القرآن الكريم نزل

بلهجة قريش لأن قريشا - كما يقول أبو نصر الفارابي في كتابه المسمى (بالألفاظ والحروف) - كانت أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق.

أو كما يقول أبو حاتم الرازي في كتابه: «الزينة» بصدد لهجة قريش: «إن رسول الله ﷺ الذي نزل القرآن الكريم على قلبه لينذر قومه أفصح العرب، وهو من قريش، من ولد إسماعيل، وولد إسماعيل أفصح من اليمن الذين هم من ولد يعرب بن قحطان».

ولكن مع هذه النصوص لأميل إلى أن القرآن الكريم نزل بلهجة قريش وحدها بل نزل بها وبغيرها من اللهجات العربية الأخرى لأن هنالك نصوصا تؤكد أن القرآن الكريم نزل بسبعة أحرف ليسر للعرب جميعا الانتفاع به، ومعنى ذلك أن هذه الأحرف تشتمل على كثير من اللهجات العربية، وحوادث اختلاف القراءات بين الصحابة تعددت سجلتها كتب الرواة والتاريخ. وإذا كان الأمر كذلك فإن كثيرا من الأحرف التي نزل بها القرآن لا يعرفها العرب جميعا، وتحتاج إلى بيان وتوضيح، وتفسير لمعانيها، والأمثلة على اختلاف مدلولات الكلمات باختلاف اللهجات كثيرة، وإلى القاريء طائفة منها لتكون دليلا على ما أقول:

ذكر إسماعيل بن عمرو المقرئ في كتابه الشهير (اللغات في القرآن) الأمثلة الآتية من سورة البقرة.

«رغدا» آية ٣٥ = الخصب بلغة طيء.

«فأخذتكم الساعة» آية ٥٥ = الموت بلغة عمان.

«رجزا» آية ٥٩ = العذاب بلغة طيء.

«اشتروا» آية ١٦ = باعوا بلغة هذيل.

«فلا رفث» آية ١٩٧ = الجماع بلغة مذحج.

ألا يدل هذا على اختلاف المدلولات بين اللهجات مما يؤكد أن العرب جميعاً لم يكونوا على مستوى واحد في فهم مدلولات القرآن الكريم.

٢- ذكر ابن قتيبة في كتابه (المسائل) أن العرب لا تستوى في المعرفة بجميع ما في القرآن

من الغريب والمتشابه، بل لبعضها الفضل فى ذلك على بعض ، والدليل عليه قوله تعالى :  
﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ ، ثم قال ابن قتيبة ويدل عليه قول  
بعضهم: يا رسول الله إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب مانعرفه، ونحن العرب حقا؟ قال:  
إن ربي علمنى فتعلمت».

٣- وقد ذكر ابن تيمية فى مقدمته «أصول التفسير» أنه يجب أن يعلم أن النبى ﷺ بين  
لاصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه فقوله تعالى: ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ يتناول  
هذا ، وهذا، وقد قال أبو عبدالرحمن السلمى: «حدثنا الذين كانوا يُقرئُوننا القرآن كعثمان  
ابن عفان، وعبدالله بن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ وسلم عشر آيات  
لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم، والعمل، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل  
جميعاً».

فهذه النصوص التى قدمتها ترد قول ابن خلدون السابق، وتشير إلى أن العرب لم يكونوا  
على درجة واحدة فى إدراك معانى القرآن، بل لبعضهم الفضل فى ذلك على بعض، وأن  
الذين لايدركون هذه المعانى من حقهم أن يدركوها فالنبى عليه الصلاة والسلام بينهم بين  
ماغمض عليهم، ويوضح ماخفى عنهم.

### الخطوة الأولى لتفسير القرآن الكريم:

وكان بيان النبى عليه السلام لما غمض، وتوضيح ماخفى، هو الخطوة الأولى لتفسير  
القرآن، وإليك الدليل:

١- لما نزل قوله تعالى: «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن» قال بعض  
الصحابة: وأيننا لم يظلم نفسه؟ ففسر النبى عليه الصلاة والسلام الظلم بالشرك، واستدل  
عليه بقوله تعالى: «إن الشرك لظلم عظيم».

٢- سألت عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ عن الحساب اليسير فى قوله تعالى: «فأما

من أوتى كتابه يمينه. فسوف يحاسب حساباً يسيراً» فيبين لها النبي عليه الصلاة والسلام أنه العرض يوم القيامة.

٣ - حديث عدى بن حاتم قال: لما نزلت: «حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» عمدت إلى عقال أسود، وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر في الليل، فلا يستبين لي، فغدوت على رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فقال: «إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار».

وهذه الخطوة الأولى من التفسير التي بدأت على يد النبي عليه الصلاة والسلام موضع اتفاق بين العلماء جميعاً، ذلك لأن السنة هي الضوء الكاشف لما أجمله القرآن ولم يفصله، والسنة هي التي حددت لنا عدد الصلوات، وعدد الركعات والسجودات في الصلاة، وهي التي بينت لنا مقدار النصاب في الزكاة، ولذلك رد عمران بن حصين على كل رجل كان يرى أن القرآن حوى كل شيء، فقال له: إنك رجل أحموق، أتجد الظهر في كتاب الله أربعاً لا يجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدد عليه الصلاة، والزكاة، ونحو ذلك ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله لنا مفسراً؟ إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، وأن السنة تفسر هذا.

هذا وقد ثار الجدل بين العلماء حول تفسير النبي ﷺ للقرآن هل فسر القرآن الكريم كله أو فسر جزءاً منه، أو فسر فقط ما أشكل من آياته؟

في رأيي أن النبي عليه السلام لم يفسر القرآن كله متبعا سورة ليفسر آياتها آية آية كما يفعل ذلك المفسرون، لأنه لو فعل ذلك لأغلق باب التفسير... ووقف الفكر عند هذا الحد، وبذلك يتعطل الاجتهاد ويتجمد الفكر، والإسلام من أخص خصائصه أن يتيح الطريق للأفكار العظشى أن تنهل من معين القرآن ماشاء لها أن تنهل، بشرط أن تكون أدوات التفكير متكاملة، ومن ثم ازدهر التفسير وتعددت مناهجه عبر القرون إلى يومنا هذا.

ولكن الذي يمكن أن يقال: إن النبي عليه الصلاة والسلام تناول في تفسيره الأمور التي تحتاج إلى بيان في العقيدة أو العبادة أو المعاملة أو السلوك، وما كان في إطار غير هذا الإطار تركه النبي ﷺ للعرب يفهمونه بلغتهم، وعلى مقتضى أساليبهم في فنون القول. ولا أستطيع في هذا البحث الموجز أن أبين مناهج التفسير المختلفة في عصر الصحابة أو

التابعين، ومن جاء بعدهم ، ولكن الذى أستطيع أن أتبينه هنا أن من أهم مصادر التفسير ومناهجه تفسير القرآن بالقرآن.

## تفسير القرآن بالقرآن؛

وتفسير القرآن بالقرآن يتوقف على الإدراك الواسع، والفهم الدقيق لآياته، والنظر إلى الآيات المتكررة وربطها بعضها ببعض، وجمعها فى إطار واحد لينظر إليها فى صورتها المتكاملة، وأن الإشعاعات الفكرية التى تعطىها هذه الصورة المتكاملة تزيل التناقضات، والاختلافات التى يرمى بها الجهلة كتاب الله، وكتاب الله منها بريء لأنه كتاب أحكمت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير.

وفهم القرآن ليس سهلاً، لأنه يحتاج إلى تصفية النفس من أكارها، والعقل من شبهاته، والقلب من خطراته، ولا أدل على ذلك من كلمة على كرم الله وجهه، وقد سئل : هل خصكم يا أهل البيت رسول الله ﷺ بشيء؟ فقال: ما عندنا غير ما فى هذه الصحيفة، أو فهم يؤتاه الرجل فى كتاب الله.

والزبيدى يبين أن مرتبة فهم كتاب الله مرتبة عظيمة ويستدل لذلك بقوله تعالى: «فهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما» فإنه تعالى خصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم، وجعله مقدما على العلم والحكم، فهذه الأمور تدل على أن فى فهم معانى القرآن مجالا رحبا، ومتسعا بالغا، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه.

وتفسير القرآن بالقرآن يتمثل فى صور متنوعة أذكر منها ما يأتى:

### ١. المعانى المتعددة للكلمة الواحدة.

ذلك لأن الكلمة الواحدة فى القرآن الكريم قد تنصرف إلى عشرين وجها أو أكثر أو أقل، ولا يوجد ذلك فى كلام البشر - من ذلك كلمة الهدى فهى:

= بمعنى البيان فى قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

= بمعنى الدين فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾.

- = وبمعنى الإيمان فى قوله تعالى : ﴿ويزيدُ الله الذين اهتدوا هدى﴾ .
- = وبمعنى الداعى فى قوله تعالى : ﴿ولكل قوم هاد﴾ .
- = وبمعنى الرسل أو الكتب فى قوله تعالى : ﴿فإما يأتينكم منى هدى﴾ .
- = وبمعنى الرشاد فى قوله تعالى : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ .
- = وبمعنى التوراة فى قوله تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾ .
- = وبمعنى الحجّة فى قوله تعالى : ﴿والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ .
- بعد قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه﴾ .
- = وبمعنى التوحيد فى قوله تعالى : ﴿إن تتبع الهدى معك تتخطف﴾ .
- = وبمعنى السنة فى قوله تعالى : ﴿وإننا على آثارهم مقتدون﴾ .
- = وبمعنى الإلهام فى قوله تعالى : ﴿أعطينى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ ... إلخ

## ٢- التكرار:

والتكرار تفسير وتوضيح، فقصة موسى عليه السلام ذكرها الله تعالى - كما قال بعضهم - فى مائة وعشرين موضعاً فى كتابه، ومع ذلك التكرار فإن الصورة لانهتز، لأنه تفنن فى القول، وإبداع فى التصوير، وأساليب مختلفة تساق لقصة واحدة، وفى هذا من البلاغة ما فيه.

على أن التكرار لا يخلو من زيادة مفيدة، ففى قصة موسى مثلاً نجد أن الله تعالى صور العصا فى سورة طه آية (٢٠) بأنها حية تسعي، وذكرها فى الأعراف آية (١٠٧) بأنها ثعبان ميبس، وفى موضع آخر - تهتز كأنها جان ولى مدبراً - :

ويعقب السيوطى فى الاتقان على صور العصا المختلفة بقوله : «إن خلقها خلق الثعبان العظيم، واهتزازها وحركتها كاهتزاز الجان وخفته» .

ويبين الزركشى بعض الأسباب التى من أجلها كررت القصة فى القرآن فيقول:

١- إن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل، فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها فيكون فيه إفادة لقوم، وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين، وهم الحاضرون.

٢- ومن الأسباب تسليية النبي عليه الصلاة والسلام، وتكرار هذه التسليية ليثبت قلبه دائماً في مجال دعوته إلى الحق كما قال تعالى: «وكلنا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك».

٣- إن الدواعى لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام فلهذا كررت القصة، دون الأحكام.

وإني أميل إلى رأى ابن فارس فى قوله: إن تكرار القصة نوع من الإعجاز القرآنى لبلغاء العرب وفصحائهم، فبعد أن عجزوا عن الإتيان بمثل آية، بين لهم وأوضح الأمر فى عجزهم، بأن كرر ذكر القصة فى مواضع إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأى نظم جاءوا، وبأى عبارة عبروا. ويؤيد هذه الفكرة الإمام الباقلانى فى إعجاز القرآن فيقول:

«ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت، بل هو على نهاية البلاغة، وغاية البراعة، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر».

على أن الناظر إلى قصص القرآن يجد أن الهدف من التكرار هو الهداية والعبرة، وكأن هذا التكرار يذكر الأمم دائماً بالمصير الوبيل الذى حل على هؤلاء الناس الذين وقفوا من دعوات أنبيائهم موقف التحدى والتكران.

### ٣- توضيح الفكرة بضروب من الاستدلالات المختلفة:

ومن تفسير القرآن بالقرآن أن الفكرة تتضح أبعادها وتنكشف جوانبها، إذا تعددت الاستدلالات عليها من واقع الحياة، وبذلك يطمئن القلب إليها. وتستريح النفس لها، ويؤمن العقل بها، والمثال على ذلك قصة البعث والإعادة:

وقد سلك القرآن الكريم لتفسير قصة البعث طرقاً مختلفة:

١ - قياس الإعادة على الابتداء بقوله تعالى: ﴿كما بدأكم تعودون﴾.

٢ - قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات بقوله تعالى: ﴿ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾.

٣ - قياس قدرة الإعادة على قدرة إخراج النار من الشجر الأخضر.

وقد ورد في هذا أن أبي بن خلف لما جاء بعظام بالية ففتها وذرهما في الهواء، وقال يا محمد: «من يحيى العظام وهى رميم؟» فأنزل الله تعالى: ﴿قل يحييها الذى أنشأها أول مرة﴾ ثم زاد الحجاج بقوله: «الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا».

٤ - احتمال اللفظ معنيين فى موضع، وتعيين واحد منهما فى موضع آخر:

ومن تفسير القرآن بالقرآن أن اللفظة أوا لكلمة تحتمل معنيين فى موضع ثم يعين أحد المعنيين فى موضع آخر وذلك كقوله تعالى: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة»، فيحتمل أن يكون السمع معطوفاً على «قلوبهم»، ويحتمل الوقف على «قلوبهم»، والابتداء بقوله (وعلى سمعهم) والاحتمال الأول أولى لقوله تعالى فى سورة الجاثية ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾.

وكقوله تعالى: ﴿ويستغفرون لمن فى الأرض﴾ والمراد بهم المؤمنون بدليل قوله تعالى فى موضع آخر: «ويستغفرون للذين آمنوا».

٥ - الاستنباط مع ضميمة أخرى تعين عليه:

وذلك كاستنباط على وابن عباس رضى الله عنهما أن أقل الحمل ستة أشهر من قوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ مع قوله تعالى: ﴿وفصاله فى عامين﴾، وعلى هذا الاستنباط جرى الإمام الشافعي.

وكاستنباط بعض المتكلمين أن الله خالق لأفعال العباد من قوله تعالى: ﴿وما تشاءون إلا أن

يشاء الله ﴿ مع قوله تعالى : ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾ فإذا ثبت أنه يخلق ما يشاء، وأن مشيئة العبد لا تحصل إلا إذا شاء الله أنتج أنه تعالى خالق لمشيئة العبد.

## ٦- رفع التناقض وإزالة الاختلاف:

وذلك كقوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ مع قوله تعالى ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾.

جمع بينهما بعض العلماء، فحمل الأول على التوحيد بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿ولا تقوتن إلا وأنتم مسلمون﴾، وحمل الثانية على الأعمال.

ومثله قوله تعالى: ﴿وإذا واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ مع قوله تعالى ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر﴾.

قيل: إن آية الأعراف تجري على الظاهر من أن الوعد كان ثلاثين ثم أتم بالعشر، فاستقرت الأربعون، ثم أخبر في آية البقرة بما استقر.

وقد سأل رجل بعض العلماء عن قوله تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، فأخبر أنه لا يقسم، ثم أقسم في قوله تعالى ﴿وهذا البلد الأمين﴾ فقال له: اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحضرة رجال، وبين ظهرائي قوم، وكانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزا، وعليه مطعنا، فلو كان هذا عنده تناقضاً لتعلقوا به، وأسرعوا بالرد عليه، ولكن القوم علموا وجهت، فلم ينكروا منه ما أنكرت، ثم قال له: إن العرب قد تدخل (لا) في أثناء الكلام وتلغى معناها، وأنشد عليه أبياتا.

## ٧- علم المبهمات:

ومن تفسير القرآن بالقرآن علم المبهمات، هكذا أطلق عليه علماء التفسير، والمراد به أن يهيم في موضع استغناء ببيانه في موضع آخر في سياق الآية، ويمثلون له بقوله تعالى: «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» فقد بين يوم الدين بقوله في موضع آخر في سياق الآية: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

وكقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فقد بينه بقوله: ﴿أَوَلَيْكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾.

## ٨- تفسير الألفاظ الغريبة:

وهو ضرب من تفسير القرآن بالقرآن، وتفسيرها بالسياق القرآني نفسه، ويمثلون له بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ هَلُوعًا﴾ وقد فسر السياق القرآني نفسه هذا الهلوع بقوله بعد ذلك: ﴿إِذَامَسَهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

## ٩- تفسير المراد بنص صريح يبين خفاءه:

لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ اضطرب الصحابة، لأنهم اعتقدوا أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى خواطر أنفسهم وحركات قلوبهم. فقالوا يا رسول الله: نزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها. فقال لهم النبي ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير. فأخذوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها في نص صريح وهو قوله: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى آخر السورة، وبعد نزولها علموا أنهم لا يحاسبون على خطرات النفس، وهو جس القلب.

ولما توفي عبدالله بن أبي، كبير المنافقين، كفه النبي عليه الصلاة والسلام في ثوبه، وأراد أن يستغفر له، ويصلي عليه، فقال عمر رضى الله عنه: أتصلى عليه وقد نهاك ربك؟ فقال ﷺ: إنما خيرتني ربي فقال: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة...». وسأزيد على السبعين وصلى عليه بناء على هذا الفهم الإنساني، ولكن القرآن وضع النقاط على الحروف ليزيل خفاء المعنى، ويمنع اللبس، حيث قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾.

## ١٠- الإجمال والتفصيل:

هناك آيات قرآنية وردت مجملة موجزة، وأخرى موضحة مفصلة في موضوع واحد،

ونحن إزاء هذه الآيات يجب ألا نقف عند المجمال وحده من غير نظر إلى الآيات التي فسرتة وفصلته، ولو فعلنا ذلك لوقعنا فى الخطأ لأننا أخذنا الحقيقة مغلفة ولاندرى ما بداخلها.

ويمثلون لهذا النوع من التفسير بقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ ولكن ما الذى يتلى علينا، ويحرم علينا أكله؟ لم تبينه هذه الآية، ولكنها أجملت ما يتلى فى هذا الموقف، وتعود الآيات بعد ذلك لتوضح هذا الذى يتلى فىقول تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ إلى آخر الآية.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فسرتها آية ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ \* إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

وبعد، فإن المنهج السليم لتفسير القرآن الكريم يجب أن يتناول أولاً وقبل كل شيء هذه الآيات المتعددة التى يفسر بعضها بعضاً، ولا يستطيع المفسر المنصف أن يبنى حكماً، أو يقرر رأياً أو يكشف معنى إلا بعد استيعابه الكامل لهذا اللون من التفسير، ألا وهو تفسير القرآن بالقرآن.

\*\*\*

## ١٠. نظرات في غريب القرآن الكريم (\*)

### ١. اللغة العربية أوسع اللغات:

سألت نفسي قبل أن أخطّ كلمة في هذا البحث: هل المعاجم العربية - ابتداءً من معجم الخليل بن أحمد المسمّى (العين) وانتهاءً بالمعجم الوسيط لذي قام بإخراجه ونشره مجمع اللغة العربية بالقاهرة - تمثل كلّ ما ورد عن العرب من كلمات وألفاظ، وصيغ ومعانٍ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل أقول: إن اللغة العربية أوسع اللغات، لا يحصرها معجم، ولا يستوعبها رواة. ولا أدلّ على ذلك من كلمة أبي عمرو بن العلاء حيث يقول: «ما انتهى إليكم ممّا قالته العرب إلا أقله، ولو جاء كم لجاء كم علمٌ وافر وشعر كثير» (١).

وقد وضع النقاط على الحروف الإمام الشافعي اللغوي حيث يقول «لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسانٌ غير نبي» (٢).

ومما يؤكد اتساع اللغة العربية، وكثرة ألفاظها هذه الأسماء المتنوعة للاسم الواحد. وقد سجل ذلك ابن فارس في كتابه: (الصاحبي) في معرض الفخر باللغة العربية، وأنها اللغة التي اختصّها الله بالفضل، وميزها بالبيان حيث قال جل شأنه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (٣).

قال الصاحبي: «ومعلوم أن المعجم لا تعرف للأسد اسماً غير واحد فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم».

وحدثني أحمد بن محمد بن بشار قال: سمعت أبا عبد الله بن خالويه الهمداني يقول: جمعت للأسد خمسمائة اسم، وللحية مائتين.

وأخبرني علي بن أحمد بن الصباح، قال: حدثنا أبو بكر بن دريد قال: حدثنا ابن أخي

---

(\*) نشر في مجلة التضامن الإسلامي التي تصدرها وزارة الحج والأوقاف بمكة المكرمة - السنة التاسعة والثلاثون الجزء الخامس - ذو القعدة ١٤٠٤ هـ - أغسطس ١٩٨٤ م.

(١) الاقتراح للإمام السيوطي ١٠٠.

(٢) الرسالة للإمام الشافعي ٤٢.

(٣) الشعراء ١٩٥.

الأصمعي عن عمه أن الرشيد سأله عن شعر لأبي حزام العُكَلِيّ، ففسره. فقال: يا أصمعي: إن الغريب عندك لغير غريب، فقال: يا أمير المؤمنين: ألا أكون كذلك، وقد حفظت للحجر سبعين اسماً<sup>(١)</sup>.

وقد روى أكثر المؤرخين «أن المعريّ الشاعر المعروف عثر - وهو داخل إلى مجلس الشريف المرتضى في بغداد - برجل، فقال هذا مفضباً: من هذا الكلب؟ فقال المعري: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً».

وقد حفزت هذه الكلمة الجلال السيوطي إلى تتبع كتب اللغة باحثاً منقياً حتى عثر على هذه الأسماء، فنظمها في أرجوزة سماها: (التبرّي من معرفة المعري) (٢).

علام يدلّ هذا؟

ألا يدل على أن اللغة العربية التي حوت ألفاظها هذه المعاجم - التي أشرت إليها - ليست كل اللغة، وإنما هي جزء قليل تمثله نصوص شعرية ونثرية وصلت إلينا عن طريق الرواة. وكانت الذاكرة هي السجل الأول لهذه الروايات. والذاكرة مهما كانت قوية لا تستطيع أن تستوعب كل ما نطق به العرب قبل الإسلام. إنها طاقة محدودة تقف عاجزة أمام الاستقراء الكامل لمعارف العرب، وأفكارهم، وأساليبهم، ومعانيهم، وصور تعبيراتهم.

وليس معنى ذلك أن العرب فشت فيهم الأمية؛ لأنهم اعتمدوا على الذاكرة، لأن الأمية في العرب القدماء ليست قضية نسلّم بها، لأن هذا يتناقض مع الروايات التاريخية التي تنصّ على أن كتاب الوحي على عهد رسول الله ﷺ كانوا يدونون القرآن الكريم بل إنها تؤكد: «أن القرآن الكريم كان مجموعاً على عهد رسول الله ﷺ وأنه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله ﷺ من يكتب له أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا» (٣).

(١) الصاحبى لابن فارس ٢١.

(٢) النقد واللغة في رسالة الغفران للدكتور أمجد الطرابلسي ٣٥، ٢٤.

(٣) مقدمتان في علوم القرآن: وهما مقدمة: كتاب (المباني) لمؤلف مجهول، ومقدمة ابن عطية ٢٧.

وانظر القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية للدكتور/ عبد العال سالم مكرم ص ١٣٥.

ومعنى ذلك أن الكتابة والقراءة ظاهران واضحتان في المجتمع العربي قبل الإسلام. ويكفي دليلاً على ذلك أن أول آيات نزلت من القرآن الكريم كانت الآيات التي تأمر بالقراءة، وتشير إلى القلم وترمز إلى العلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (١).

وإذا كان في العرب من يجيد القراءة، ويحسن الكتابة فلم لم يتجه العرب إلى تدوين لغتهم، وتسجيل أفكارهم، وحفظ تراثهم كما فعل قدماء المصريين حينما نقشوا على معابدهم وقبورهم حياتهم الاجتماعية والفكرية، والاقتصادية والسياسية مما أثار الطريق نحو كتابة تاريخهم في صورة واقعية من خلال هذه النقوش؟.

إن العرب لو فعلوا ذلك لأمدونا بكثير عن حياتهم الاجتماعية والدينية والسياسية.

أما القدر الذي وصل إلينا من الشعر والنثر فهو ضئيل لا يمثل حياتهم بجوانبها المختلفة كما ينبغي أن تمثل، بل وصل الأمر إلى أن هذا الشعر المروي كان موضع شك عند بعض الباحثين المعاصرين.

أكبر الظن أن أحداث الحياة القبلية في الجزيرة العربية لم تتح الفرصة أمام هؤلاء الكاتبين أن يسجلوا ما يشاهدون، ويكتبوا ما يسمعون، لأن تنقلهم من مكان إلى مكان، واشتغالهم بالحرب فيما بينهم، وإفراح المجال أمام الألسنة لتنتقل هذه الأحداث في مجالسهم لتسجلها الذاكرة، وينقلها الرواة، كل ذلك طغى على وظيفة القلم فلم يصلنا من أشعارهم عن طريقه إلا المعلقات التي كتبت، وعلقت على الكعبة، وهي قضية احتدم حولها الجدل، وكثر في مجالها النقاش، وليس في هذا البحث متسع لتناول هذه القضية (٢).

والذي أريد أن أصل إليه من هذه المقدمة هو أن المعاجم العربية بأنواعها سواء كانت معاجم ألفاظ أو معاجم معان لم تحط بكل ما ورد عن العرب، ولم تسجل كل ما لديهم من تراث لغوي.

(١) المعلق ١ - ٥.

(٢) انظر هذه القضية في كتاب: «القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية» ٣٦ للباحث.

على أنني لا أذهب بعيداً إذا قلت: إننا لو تتبعنا تراثنا الشعري والنثري في العصر الجاهلي عن طريق استيعاب هذا التراث مخطوطه ومطبوعه لرأينا طائفة من الألفاظ العربية لم تسجلها المعاجم التي بين أيدينا مما يؤكد القول السابق المشهور لأبي عمرو بن العلاء، ومن هذا المنطلق نستطيع أن نقول: إن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يجب أن تدرس الحياة الجاهلية في مرآته كما قال المرحوم الدكتور طه حسين في كتابه: (في الأدب الجاهلي):

«القرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي» (١).

ولعل الدكتور طه حسين يعني أننا لا نعرف الكثير عن الحياة العربية في العصر الجاهلي إلا عن طريق القرآن الكريم: وهذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان، ولكنه إن أراد أن العرب لا يملكون تراثاً شعرياً موثقاً قبل الإسلام فهذا ما ننكره، لأن القرآن نفسه أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، والإبانة تعنى وضوح العبارة، وبلاغة التعبير، وقوة التأثير، ومن هنا كان التحدى المعجز لأرباب البيان، وفرسان التحدى المعجز لأرباب البيان، وفرسان البلاغة. والله درّأبي سليمان الخطابي حين عرض لقضية الإعجاز في بيان رائع حيث يقول: «إن النبي ﷺ قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فمجزوا عنه، وانقطعوا دونه، وقد بقى ﷺ يطالبهم به مدة عشرين سنة، مظهرأ لهم النكير، زارياً على أديانهم، مسفهاً آراءهم وأحلامهم حتى نابذوه وناصبوه الحرب، فهلكت فيه النفوس، وأريقَت المَهَج، وقطعت الأرحام، وذهبت الأموال.

ولو كان ذلك في وسعهم، ونحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة.. ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل، هذا ما لا يفعله عاقل، ولا يختاره ذو لب، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع، والشعراء المفلقون، وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللد، فقال سبحانه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (٢). وقال سبحانه: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ (٣).. إلى أن يقول: «ومعلوم أن رجلاً عاقلاً لو عطش

(١) في الأدب الجاهلي ٧ للدكتور طه حسين.

(٢) الزخرف ٥٨.

(٣) مريم ٩٧.

عطشا شديدا خاف منه الهلاك على نفسه. ويحضرنه ماء معروض للشرب فلم يشرب حتى هلك عطشا لحكمنا أنه عاجز عن شربه. غير قادر عليه. وهذا بيّن واضح لا يشكك على عاقل» (١).

ولعلنى بعد هذا الذى قدمت لم يبق أمامنا إلا الاعتراف بأن التحدى القرآنى لبلغاء العرب حقيقة لا تقبل الجدل، وواقع لا يتسرب إليه الشك.

### ب. الحركة اللغوية لتفسير غريب القرآن الكريم؛

ومن الحقائق المسلّم بها أن القرآن الكريم لفت أنظار الرواة والعلماء إلى هذه الثروة اللغوية التى اشتمل عليها، فقاموا بحركة لغوية كبيرة هدفها توثيق الكلمات اللغوية التى نسجت من مادنها النصوص القرآنية، فاتجهوا إلى الأعراب فى البداية يتلقون عنهم اللغة فى أساليبها الفصيحة، ولا غرو فى ذلك «فليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع، ولا أتق، ولا أذ فى الأسماع ولا أشد اتصالا بالمعقول السليمة، ولا أفنق فى اللسان، ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء» (٢).

وقال صاحب (الموازنة): «الأعرابى لا يقول إلا على قريحته ولا يستقى إلا من قلبه» (٣).

وإلى جانب هذه الحركة اللغوية التى كان الهدف منها - كما قلت - جمع اللفظة لتفسير ألفاظ القرآن الكريم فى ضوئها، وكشف معانيه من خلالها، قامت حركة أخرى تسير معها جنبا إلى جنب، وهى الحركة المتمثلة فى جمع الشعر العربى، وبخاصة الشعر الجاهلى، وقد قمت بدراسة حول هذا الموضوع نشرت فى (مجلة الشعر) بالقاهرة (٤).

وإلى جانب هاتين الحركتين قامت حركة أخرى لجمع ما ورد فى القرآن الكريم من لهجات عربية أخرى غير قرشية مع أن المعروف عند الباحثين أن القرآن الكريم نزل بلغة

(١) إعجاز القرآن الكريم للخطابى ٢٠.

(٢) الأعرابيات ٣٦، ٣٧ لخليل مردم.

(٣) الأعرابيات ٣٧.

(٤) انظر مجلة الشعر التى تصدر فى القاهرة العدد ٢٩ - شهر يناير ١٩٨٣ بعنوان: غريب القرآن الكريم والشعر

الجاهلى.

قريش، وقد قمت بدراسة حول هذا الموضوع نشرت في مجلة (الوعي الإسلامى) التى تصدر فى الكويت (١).

### ج . الغريب فى عصر الرسول عليه السلام وعصر أصحابه

أحب أن أبين أن هذا الغريب الذى جمع فى عصر متأخر عن عصر الرسول عليه السلام وأصحابه لم يكن غريباً فى عهد رسول الله ﷺ ثم فى عصر أصحابه، لأن القرآن عربى غير ذى عوج، فلم يجد الصحابة فى فهمه شيئاً من العناء؛ لقاء الألسنة، وسلامة السلائق، وغلبة الفصاحة، وحينما يجهلون معنى كلمة من كلماته، أو يعجزون عن فهم معنى من معانيه يسألون عنه الرسول عليه السلام ليحيبهم، فيكشف لهم معنى ما يجهلون، ويوضح لهم غموض ما لا يفهمون.

يقول ابن الأثير: «واستمرّ عصره ﷺ إلى حين وفاته على هذا السنن المستقيم.

وجاء العصر الثانى - وهو عصر الصحابة - جاريًا على هذا النمط، سالكا هذا المنهج، فكان اللسان العربى عندهم صحيحاً محروساً لا يتداخله الخلل، ولا يتطرق إليه الزلل إلى أن فتحت الأمصار، وخالط العرب غير جنسهم من الروم، والفرس، والحبس، والنبط، وغيرهم من أنواع الأمم الذين فتح الله على المسلمين بلادهم، فاختلطت الفرق، وامتزجت الألسن، وتداخلت اللغات.

.. فتعلموا من اللسان العربى ما لا بدّ لهم من الخطاب منه، وحفظوا من اللغة ما لا غنى لهم فى المحاوره عنه، وتركوا ما عداه لعدم الحاجة إليه، وأهملوه لقله الرغبة فى الباعث إليه، وتمادت الأيام والحالة هذه على ما فيها من التماسك والثبات، واستمرت على سنن من الاستقامة والصلاح إلى أن انقرض عهد الصحابة، والشأن قريب، والقائم بواجب هذا الأمر لقلته غريب.

وجاء التابعون لهم بإحسان فسلكوا سبيلهم، لكنهم قلّوا فى الإتقان عدداً، واقتفوا

(١) انظر بحث: غريب القرآن الكريم بين اللهجة القرشية واللهجات العربية فى (مجلة الوعي الإسلامى) مارس

هديهم، وإن كانوا قد مدّوا في البيان يدا. فما انقضى زمانهم على إحسانهم إلا واللسان العربي قد استحال أعجميا أو كاد، فلا ترى المستقل به، والمحافظ عليه إلا الآحاد» (١).

وأضح إذا من نص ابن الأثير أن الغريب اختلف من عصر إلى عصر، فما لم يكن غريبا في العصر الأول صار غريبا في العصر الذي يليه، وكلما ابتعد الناس عن اللسان العربي زادت الغرابة وكثر الغريب..

### د. معنى الغريب

يقول الإمام أبو سليمان الخطابي البُنى:

«الغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد من الفهم كما أن الغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن، المنقطع عن الأهل، والغريب من الكلام يقال على وجهين:

أحدهما: أنه يراد به أنه بعيد المعنى، غامض لا يتناوله الفهم إلا عن بُعد ومعاناة فكر.

والوجه الآخر: يراد به كلام من بُعدت به الدار من شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها» (٢).

والوجه الآخر لا نتعرض له في البحث لأنه غير مراد، ولأن القرآن الكريم لا يحتوى على الكلمات الشاذة أو الألفاظ المستهجنة أو المفردات الحوشية. يقول الرافعى فى كتابه: (إعجاز القرآن): «فى القرآن الكريم ألفاظ اصطلاح على تسميتها بالغرائب، وليس المراد بغيراتها أنها منكورة، أو نافرة، أو شاذة، فإن القرآن الكريم منزّه عن هذا جميعه، وإنما اللفظة الغريبة هاهنا هى التى تكون حسنة مستغربة فى التأويل بحيث لا يتساوى فى العلم بها أهلها وسائر الناس» (٣).

### هـ. الحث على معرفة الغريب

ذكر السيوطى فى كتابه: (الإتقان) أنه: «ينبغى الاعتناء به، فقد أخرج البيهقى من حديث أبى هريرة مرفوعا: «أعربوا القرآن واتمسوا غرائبه».

(١) انظر مقدمة: (النهاية) لابن الأثير.

(٢) انظر (كشف الظنون) نهر ١٢٠٣.

(٣) إعجاز القرآن الكريم للرافعى ٧٤.

وبين السيوطى معنى الإعراب فيقول:

«والمراد بإعرابه معرفة معانى ألفاظه، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة، وهو ما يقابل اللحن، لأن القراءة مع فقدته ليست قراءة، ولا ثواب فيها».

ويحذر السيوطى من الخوض فى الكشف عن معانى الألفاظ بدون تثبيت ولا روية فيقول:  
«وعلى الخائض فى ذلك التثبيت والرجوع إلى كتب أهل الفن وعدم الخوض بالظن» (١).

## و- مراحل تفسير غريب القرآن الكريم

١- تفسير النبى عليه السلام لغريب القرآن:

أول مرحلة من مراحل توضيح هذا الغريب بدأت فى عهد الرسول عليه السلام وذلك لأن العرب لم تكن على مستوى واحد فى فهم مدلولات هذه الكلمات الغريبة.

ذكر ذلك ابن قتيبة فى كتابه: (المسائل) حيث يقول: «إن العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن الكريم من الغريب والمتشابه بل لبعضها الفضل فى ذلك على بعض». والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ (٢)، ثم قال ابن قتيبة: ويدل عليه قول بعضهم: «يا رسول الله، إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه، ونحن العرب حقاً؟ قال عليه السلام: إن ربى علمنى فتعلمت» (٣).

فمن البدهى إذًا، والنبى عليه السلام بين ظهرانيهم أن يسألوه عما خفى عليهم من الألفاظ، وما استتر من المعاني، ليوضح لهم ما غمض ويكشف لهم ما استتر.

ومن الأمثلة على ذلك:

١- لما نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ (٤). قال

(١) الإتيقان للسيوطى ١/ ١١٣.

(٢) آل عمران ٧.

(٣) المسائل لابن قتيبة، نسخة مخطوطة مصورة جامعة الأزهر.

(٤) الأنعام ٨٢.

بعض الصحابة: وأبنا لم يظلم نفسه؟ ففسر النبي عليه السلام الظلم بالشرك. واستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

٢- حديث عدى بن حاتم قال: لما نزلت: ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (٢) عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر في الليل فلا يستين لى، فعدوت على رسول الله فذكرت له ذلك. فقال: «إنما سواد الليل، وبياض النهار» (٣).

هذا وقد ثار الجدل، واحتدم النقاش بين العلماء حول تفسير النبي عليه السلام للقرآن الكريم. هل فسّر القرآن كله، أو فسر فقط ما أشكل من آيات؟.

فى رأى أن النبى عليه السلام فسر فقط معانى الكلمات الغريبة التى تتعلق بالعبادة أو العبادة أو المعاملة أو السلوك. أما ما وراء ذلك فقد تركه عليه السلام للعرب يفهمونه بلغتهم، وعلى هدى اجتهادهم وفى ضوء رصيدهم اللغوى من التعابير والأساليب.

٢- توضيح غريب القرآن بالقرآن:

وهذا التوضيح يعتبر مرحلة ثانية من مراحل توضيح الغريب، ولا شك أن القرآن الكريم يوضح بعضه بعضاً، ولكن هذا التوضيح لا يدرك معناه إلا بالفهم الدقيق لآياته بالنظر إلى الآيات المتكررة وربطها بعضها ببعض، وجمعها فى إطار واحد، لينظر إليها فى صورتها المتكاملة لأن الإشعاعات الفكرية التى تعطىها هذه الصورة المتكاملة، تزيل التناقض والاختلافات التى يحاول بعض الجهلة أن يرموا بها كتاب الله، وكتاب الله منها برىء.

على أن هذا الفهم يحتاج إلى تصفية النفوس من أكارها، والعقول من شبهاتها، والقلوب من زيفها.

وأذكر فى هذا المقام كلمة على كرم الله وجهه، وقد سئل: هل خصكم بأهل البيت

(١) لقمان ١٣.

(٢) البقرة ١٨٧.

(٣) تفسير الألوسى ٦٧/٢.

رسول الله ﷺ بشىء؟ فقال «ما عندنا غير ما فى الصحيفة أو فهم يؤتاه الرجل فى كتاب الله» (١).

والزبيدي يبين أن مرتبة فهم كتاب الله مرتبة عظيمة، ويستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (٢)، فإنه تعالى خصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم، وجعله مقدما على العلم والحكم (٣).

وهذه بعض النماذج التى توضح هذا الاتجاه:

### ١- تعداد المعانى المختلفة للفظ الواحد:

ذلك لأن اللفظة الواحدة قد تحتل فى القرآن الكريم عشرين معنى أو أكثر أو أقل، ولا يوجد ذلك فى كلام البشر. من ذلك كلمة الهدى فهى:

- بمعنى البيان فى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (٤).
- وبمعنى الإيمان فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ (٥).
- وبمعنى الرسل أو الكتب فى قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ (٦).
- وبمعنى الرشاد فى قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى﴾ (٧).
- وبمعنى التوراة فى قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٨).
- وبمعنى التوحيد فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدًى﴾ (٩).

(١) الفتوحات الإلهية لسليمان بن عمر ٦/١.

(٢) الأنبياء ٧٩.

(٣) شرح إحياء علوم الدين للزبيدي ٥٣٠.

(٤) البقرة ٥.

(٥) البقرة ١٢٠.

(٦) مريم ٧٦.

(٧) طه ١٢٣.

(٨) الفاتحة ٦.

(٩) غافر ٥٣.

ويعنى التوحيد فى قوله تعالى ﴿إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفْ﴾ (١).

ويعنى الإلهام فى قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (٢).

٢. احتمال اللفظ معنيين فى موضع. وتعيين واحد منهما فى موضع آخر؛ من ذلك قوله

تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ (٣) فيحتمل أن يكون السمع معطوفا على (قلوبهم) ويحتمل الوقف على (قلوبهم) والابتداء بقوله: (وعلى سمعهم) والاحتمال الأول أولى لقوله تعالى فى سورة الجاثية: ﴿وَحَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ (٤).

وكقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ (٥) والمراد بهم: (المؤمنون) بدليل قوله تعالى فى موضع آخر: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٦).

### ٣. رفع التناقض وإزالة الاختلاف:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (٧) مع قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ (٨).

قبل: إن آية الأعراف تجرى على الظاهر من أن الوعد كان ثلاثين ثم أتم بالعشر، فاستقرت الأربعون، ثم أخبر فى آية البقرة بما استقر.

### ٤. تفسير الألفاظ بالسياق القرآنى:

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (٩). وقد فسر السياق القرآنى هذا (الهلوع) بقوله بعد ذلك: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (١٠).

(١) القصص ٥٧.

(٢) طه ٥٠ وانظر (البرهان فى علوم القرآن) للزركشى ١/١٠٣.

(٣) البقرة ٧. (٤) الجاثية ٢٣.

(٥) الشورى ٥. (٦) غافر ٧.

(٧) البقرة ٥١. (٨) الأعراف ١٤٢.

(٩) المعارج ١٩. (١٠) المعارج ٢٠، ٢١.

## ٥. تفسير المعنى المراد الخفى بنص صريح يبين خفاءه:

ومثاله: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ (١)، اضطرب الصحابة لاعتقادهم أنهم سيحاسبون على خواطر أنفسهم وحركات قلوبهم. فقالوا: يا رسول الله، أنزلت علينا هذه الآية ولا نطبقها.

فقال لهم النبي ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير. فأخذوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها في نص صريح وهو قوله تعالى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى آخر السورة.

وبعد نزولها علموا أنهم لا يحاسبون على خطرات النفس، وهو اجس القلب.

## ٦. تفسير المبهمات:

ومن تفسير القرآن الكريم بالقرآن: علم المبهمات، هكذا أطلق عليه علماء التفسير، والمراد به أنه تبهم الكلمات في موضع استغناء ببيانها في موضع آخر في سياق الآية. ومثاله قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٢) فقد بين (يوم الدين) في موضع آخر وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (٣).

## ٧. الإجمال والتفصيل:

هناك آيات قرآنية وردت مجملة موجزة، وأخرى موضحة متصلة في موضوع واحد. ونحن بإزاء هذه الآيات يجب أن نقف عند المجمل وحده من غير نظر إلى الآيات التي تفسره وتفصله، وتوضحه. ولو فعلنا ذلك لوقعنا في الخطأ لأننا أخذنا الحقيقة مغلفة، ولا ندرى ما بداخلها.

(١) البقرة ٢٨٤.

(٢) الفاتحة ٤.

(٣) الانفطار ١٨، ١٩.

ومثال هذا النوع من تفسير ما أجمل، وتوضيح ما أوجز قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ (١) ولكن ما الذى يتلى علينا ويحرم علينا أكله؟ لم تبينه الآية، ولكنها أجملت ما يتلى فى هذا الموقف وتعود الآيات بعد ذلك لتوضيح هذا الذى يتلى، فيقول تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ الْخَيْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ رَائِئِدِيَّةٌ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢) إلى آخر الآية.

وبعد فهذه نظرات عابرة فى غريب القرآن الكريم، وأرجو أن أوفق فى بحث آخر إن شاء الله إلى تفسير غريب القرآن الكريم فى ضوء غريب الحديث الشريف ليتضح لنا أبعاد هذا الغريب عند اللغويين والمفسرين.



---

(١) الحج ٣٠.

(٢) المائة ٣. وانظر (البرهان فى علوم القرآن ٤٦/٢).

## مصادر البحث ومراجعته

- ١- الإنقان فى علوم القرآن للسيوطى طبعة ثالثة - مصطفى الحلبى .
- ٢- إعجاز القرآن: مصطفى صادق الرافعى - مطبعة الاستقامة - طبعة سادسة .
- ٣- الأعرابيات: خليل مردم بك - طبع مجمع اللغة العربية بدمشق .
- ٤- الاقتراح: جلال الدين السيوطى - طبع الهند .
- ٥ - البرهان فى علوم القرآن للزركشى: تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم - مطبعة الحلبى .
- ٦- تفسير الألوسى: - دار إحياء التراث العربى - بيروت .
- ٧- ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الكريم: للرمامى - والخطابى - والجرجانى - دار المعارف بمصر .
- ٨ - الرسالة: الإمام الشافعى - طبع مصطفى البابى الحلبى .
- ٩- الصحابى لابن فارس - مطبعة المؤيد سنة ١٩١٠ .
- ١١- المسائل لابن قتيبة - مخطوط مصور رقم ٢٠٩٦٧ - مكتبة جامعة القاهرة .
- ١٢- مقدمتان فى علوم القرآن - تحقيق ارثر جفرى - مطبعة السنة المحمدية .
- ١٣- القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية د. عبدالعال سالم مكرم - دار المعارف بمصر - طبعة أولى - مؤسسة الصباح - الكويت - طبعة ثانية - مكتبة التراث بالأزهر - طبعة ثالثة .
- ١٤- كشف الظنون - حاجى خليفة - طبعة وكالة المعارف - استانبول .
- ١٥- النقد واللغة فى رسالة الغفران: الدكتور أمجد الطرابلسى - مطبعة الجامعة السورية .
- ١٦- النهاية فى غريب الحديث: ابن الأثير - طبع عيسى الحلبى .

\*\*\*

## ١١. تفسير غريب القرآن الكريم (\*)

### فى ضوء الحديث الشريف

فى البحث السابق بينت أن غريب القرآن الكريم مرّ تفسيره وتوضيحه بمراحل مختلفة. وأول مرحلة من مراحل توضيحه بدأت فى عهده الرسول ﷺ حينما وضع لأصحابه ما خفى عليهم من ألفاظه، وما استتر من معانيه.

والمرحلة الثانية: تمثلت فى توضيح غريب القرآن بالقرآن، وقد سقت الأمثلة المتعددة التى توضح هذه المرحلة.

أما المرحلة الثالثة فى مراحل توضيحه فهى موضوع هذا البحث؛ وهو تفسير غريب القرآن الكريم فى ضوء الحديث الشريف.

وقبل أن نبدأ فى دراسة هذه المرحلة لابد من أن نتعرض للخطوط العريضة فى حقل دراسات الحديث الشريف لتبين على هديها كيف كان الحديث الشريف مصدراً لغويًا إلى جانب كونه مصدراً تشريعيًا يلى القرآن الكريم فى نوره وهدايته.

#### الحديث الشريف فى مجال التوثيق؛

هناك أحاديث كثيرة تبين أن النبى ﷺ - صيانة للقرآن حتى لا يختلط به ما ليس منه - نهى أصحابه عن كتابة أحاديثه.

ومن هذه الأحاديث الصريحة فى النهى ما رواه أبو سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال: «لا تكتبوا عني شيئا سوى القرآن، فمن كتب عني شيئا فليمحه»<sup>(١)</sup>.

وعن أبى سعيد الخدرى أيضاً قال: «استأذنت النبى ﷺ أن أكتب الحديث فأبى أن يأذن لى»<sup>(٢)</sup>.

(\*) نشر فى مجلة: «التضامن الإسلامى» - السنة الحادية والأربعون - الجزء الثانى

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادى / ٢٩.

(٢) المصدر نفسه.

ويروى الخطيب البغدادي عن أبي هريرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث، فقال: ما ذا الذي تكتبون؟ قلنا: أحاديث سمعناها منك قال: أكتابا غير كتاب الله تريدون؟ ما أضل الأمم من قبلكم إلا ما اكتبوا من الكتب مع كتاب الله» قال أبو هريرة: أتحدث عنك يا رسول الله؟ قال: نعم تحدثوا عني ولا حرج، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»<sup>(١)</sup>.

على أن هناك أحاديث أخرى تبيح الكتابة، ولا تمنع التقييد سجلها الرواة.

ومن هذه الأحاديث ما يأتي:

عن أبي هريرة قال: «ما أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبدالله بن عمرو فإنه كان يكتب»<sup>(٢)</sup>.

عن مجاهد أنه قال: «رأيت عند عبدالله بن عمرو صحيفة فسألته عنها، فقال: هذه الصادقة، فيها ما سمعت من رسول الله ﷺ وليس بيني وبينه فيها أحد»<sup>(٣)</sup>.

في ضوء هذه الأحاديث أستطيع أن أقول: إن النبي ﷺ حرص كل الحرص على سلامة النص القرآني حتى لا يتسرب إليه شيء من كلام البشر كي لا تضل أمته، ويبقى كتاب ربها مصوناً من التحريف، مبرأً من الخطأ، محصناً بسياج منيع من الدقة والعناية والرعاية والضبط والإتقان.

والسؤال الذي يتطلبه الموقف هنا. أليس في هذه الأحاديث تناقض؟ كيف يجيز النبي ﷺ الكتابة لجماعة من الصحابة، ويمنعها عن جماعة أخرى؟

في الحقيقة نحن نُبرئ كلام رسول الله ﷺ من التناقض، فالمواقف تتغير، ولكل موقف ما يناسبه من القول، فالنهي في رأي خاص بهؤلاء الذين لا يميزون بين كلام الله تعالى، وكلام الرسول، وأصحاب رسول الله ﷺ ليسوا على درجة واحدة في مستوى الكتابة، فحتى لا يفتح الباب على مصراعيه، ويتعدّد الكاتبون، منع الرسول ﷺ الكتابة منعاً عاماً، ورخصها لقوم أتقوها وأجادوها، فهم مأمونون من الخلط بين قول الله تعالى وقول الرسول ﷺ.

(١) تقييد العلم للخطيب البغدادي / ٢٩.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٤ / ١١٢.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٧ / ١٨٩.

على أن ابن قتيبة في كتابه «تأويل مختلف الحديث» تعرض لهذا التناقض مدللاً على أن كلام رسول الله ﷺ لا تناقض فيه لأنه كلام معصوم لا ينطق عن الهوى.

قال ما نصه: «قالوا: أحاديث متناقضة.

قالوا: رَوَيْتُمْ عن همام عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن. فمن كتب عني شيئاً فليمححه».

ثم رويتم عن ابن جريج عن عطاء عن عبدالله بن عمرو قال: قلت يا رسول الله: أقيد العلم؟ قال: نعم، قيل: وما تقييده؟ قال: كتابته.

ورويتم عن حماد بن سلمة عن محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن جده قال: قلت يا رسول الله: أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: نعم. قلت: في الرضا والغضب؟ قال: نعم، فإني لا أقول في ذلك كله إلا الحق.

قالوا: وهذا تناقض واختلاف.

ويرد ابن قتيبة على هذه الدعوى الباطلة بقوله:

قال أبو محمد، (كنية ابن قتيبة): ونحن نقول: إن في هذا معنيين:

أحدهما: أن يكون منسوخ السنة بالسنة، كأنه نهى في أول الأمر عن أن يكتب قوله.

ثم رأى بعد ما علم أن السنن تكثر - وقد تفوت بالحفظ - أن تكتب وتقيّد.

والمعنى الآخر: أن يكون خص بهذا عبدالله بن عمرو، لأنه كان قارئاً للكتب المتقدمة، ويكتب بالسريانية والعربية، وكان غيره من الصحابة أميين لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنان، وإذا كتب لم يتقن، ولم يصب التهجي، فلما خشى عليهم الغلط فيما يكتبون نهاهم، ولما أمن على عبدالله بن عمرو ذلك أذن له<sup>(١)</sup>.

✽ وحقيقة لقد أصاب ابن قتيبة المحز في الرد الصائب، والإجابة المنقعة.

ونضيف إلى رأى ابن قتيبة رأياً آخر لا يقل وجاهة عنه وهو رأى الحسن بن عبدالرحمن الراهزنى المتوفى نحو سنة ٣٦٠هـ حيث يقول في معرض الرد على هذه الدعوى الكاذبة

(١) تأويل مختلف الأحاديث لابن قتيبة.

دعوى الاختلاف والتناقض: «إنما كره الكتاب من كره من الصدر الأول لقرب العهد، وتقارب الإسناد، ولتلا يعتمد الكاتب فيهمله، ويرغب عن حفظه والعمل به، فأما والوقت متباعد، والإسناد غير متقارب، والطرق مختلفة، والنقلة متشابهون، وآفة النسيان معترضة، والوهم غير مأمون، فإن تقييد العلم بالكتاب أشفى وأولى، والدليل على وجوبه أقوى.

وحدّث أبى سعيد «حرصنا على أن يأذن لنا النبي ﷺ فى الكتاب فأبى، فأحسبه أنه كان محفوظاً فى أول الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن»<sup>(١)</sup>.

✽ على أن الخطيب البغدادي فى كتابه «تقييد العلم» بين لنا أن السبب فى عدم كتابة الحديث فى الصدر الأول يرجع إلى خوف الاتكال على الكتابة، فىؤدى ذلك إلى نقص الحفظ، وفى نقص الحفظ إهمال لحديث رسول الله ﷺ، فعلى الذاكرة أن تعيه، وعلى الحافظة أن تستوعبه حتى يتلقاه الخلف عن السلف مأموناً من التحريف، مصوناً من التبديل.

قال السبغدادى: «وكان غير واحد من السلف يستعين على حفظ الحديث بأن يكتبه ويدرسه من كتابه، فإذا أتقنه محا الكتاب خوفاً من أن يتكل القلب عليه، فىؤدى ذلك إلى نقصان الحفظ، وترك العناية بالمحفوظ»<sup>(٢)</sup>.

على أن هناك من ندم من الصحابة على محو ما كتب من أحاديث، فعن عروة بن الزبير قال: كتبت الحديث ثم محوته، فوددت أن أفديه بمالى وولدى وأنى لم أمحه»<sup>(٣)</sup>.

على أية حال كانت فإن كتابة الأحاديث كانت تسير جنباً إلى جنب مع حفظه واستيعابه. ولا شك أن التقاء المحفوظ بالمكتوب يؤدى إلى سلامة نص الحديث من التحريف والتصحيف والتبديل.

وأحب أن أختتم هذه النقطة من البحث بما ذكره الدكتور صحبى الصالح فى كتابه المشهور: «علوم الحديث ومصطلحه» فى هذه القضية حيث يقول: «نهى رسول الله ﷺ عن

---

(١) المحدث الفاضل - مخطوط بمكتبة الظاهرية - دمشق رقم ٤٠٠ حديث نقلاً عن مقدمة التحقيق لكتاب: «تقييد العلم للبغدادي».

(٢) تقييد العلم / ٦٠.

(٣) المصدر نسخة والصفحة.

كتابة الأحاديث أول نزول الوحي مخافه التباس أقواله وشروحه وسيرته بالقرآن... ثم أذن بذلك إذناً عاماً حين نزل أكثر الوحي، وحفظه الكثيرون، وأمن اختلاطه بسواه فقال ﷺ: «قيدوا العلم بالكتاب».

وحفظ عنه صلوات الله عليه المنع من كتابة أحاديثه بوجه عام، لأن كلامه كان موجهاً إلى عامة أصحابه، وفيهم الثقة والأوثق، والصالح والأصلح والضابط والأشد ضبطاً، والحافظ والأمتن حفظاً، وأذن في الوقت نفسه لبعض أفرادهم إذناً خاصاً، لتظاهر الكتابة الحفظ إن كانوا ضابطين، أو تساعدهم على زيادة الضبط إن خيف نسيانهم، ولم يوثق بحفظهم، فكان إذنه لهؤلاء وأولئك أشبه بالاستثناء الذي خص به ﷺ نقرأ من أصحابه لأسباب وجيهة قدر أهميتها تبعاً للظروف والأشخاص<sup>(١)</sup>.

### علوم الحديث:

واضح إذاً من هذه النصوص التي قدّمناها أن المسلمين منذ عهد رسول الله ﷺ حفظوا عن نبيهم كل أقواله وأفعاله وأحواله. وسيرته، لأنه الرسول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وهو المبلغ عن ربه، والداعى إلى نوره، وهو المبين لما أنزل، الموضح لما شرع، وهو الذي أعلن في حجة الوداع أن على المسلمين أن يبلغوا عنه: «فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع».

وكانت هذه انطلاقة كبيرة انتشرت أنوارها في الجزيرة العربية أولاً ثم أشرقت أنوارها في أرجاء الدنيا بعد ذلك حينما حمل المسلمون الراية القرآنية وراية السنة النبوية تخفقان جنباً إلى جنب على ربوع الدنيا.

ولا أدل على عناية المسلمين بأحاديث نبيهم من هذا الجهد العظيم الذي قاموا به في محيط دراستها إلى أن تكون من هذه الدراسة علم نضج واكتمل وهو علم الحديث يقول عنه ابن خلدون في مقدمته:

«وأما علوم الحديث فهي كثيرة متنوعة، لأن منها ما ينظر في ناسخه ومنسوخه.. ومعرفة الناسخ والمنسوخ من أهم علوم الحديث وأصعبها. قال الزهري أعيا الفقهاء وأعجزهم أن

(١) علوم الحديث ومصطلحه / ٢٠ - ٢١ - ٢٢.

يعرفوا ناسخ حديث رسول الله ﷺ من منسوخه.. وكان للشافعي رضى الله عنه فيه قدم راسخة.

ومن علوم الأحاديث النظر فى الأسانيد، ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السناد الكامل الشروط.

إلى أن يقول: ولهم فى ذلك ألفاظ اصطلاحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة مثل: الصحيح، والحسن، والضعيف، والمرسل، والمنقطع، والمعضل، والشاذ والغريب، وغير ذلك من ألقابه المتداولة بينهم، وبوبوا على كل واحد منها، ونقلوا ما فيه من الخلاف لأئمة الشأن أو الوفاق، ثم النظر فى كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة، وتفاوت رتبها وما للعلماء فى ذلك من الخلاف بالقبول والرد.

إلى أن يقول: ثم عنى الحفاظ بمعرفة طرق الأحاديث وأسانيدھا المختلفة.. وجاء محمد ابن إسماعيل البخارى إمام المحدثين، فى عصره، فوسع نطاق الرواية، وخرج أحاديث السنّة على أبوابها فى مسنده الصحيح.. ثم جاء مسلم بن الحجاج القشيري - رحمه الله - فألف مسنده الصحيح، هذا فيه حذو البخارى، فى نقل المجمع على صحته، وحذف المتكرر منها، وجمع الطرق والأسانيد، وبوبه على أبواب الفقه وتراجمه<sup>(١)</sup> إلخ.

### شبهة زائفة:

بعد هذا العرض لهذا الجهد العظيم الذى قام به علماء الإسلام فى حقل الحديث الشريف دارسين باحثين بأدلين كل ما فى وسعهم لتنقية الحديث مما علق به من أحاديث موضوعة أو ضعيفة أحب أن أوجه القارىء إلى أن يصم أذنيه عن الدعاوى المفرضة التى تدعو إلى عدم الاحتجاج بالأحاديث الشريفة لأنها «تسمى فى اصطلاحات بعض الفنون ظنية الثبوت» أى أنها لم تثبت بالتواتر الموجب للقطع فى النقل.

وكبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذباً، وقد كفانا مثونة الرد على هؤلاء العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر فى مقدمة تحقيقه لكتاب «الباعث الحثيث فى اختصار علوم الحديث» لابن كثير قال رداً على الدعوى السابقة بما نصه: «وكان هذا اتباعاً لاصطلاح لفظى [يقصد دعوى ظنية الثبوت] لا أثر له فى القيمة التاريخية لإثبات صحة الرواية، فما

(١) مقدّمة ابن خلدون من ص ٤٠٥ - ٤٠٧.

كل رواية صادقة يتق بها العالم المطلع المتمكن من علمه التصديق بها، واطمئنان القلب إليها أن تكون ثابتة ثبوت التواتر الموجب للعلم البديهي، وإلا لما صح لنا أن نتق بأكثر النقول في أكثر العلوم والمعارف.

ثم يرد أيضاً على فئة أخرى زعمت أن كل الأحاديث لا صحة لها ولا أصل، يقول: «ونبغ في عصرنا هذا بعض النوايع ممن اصطنعتهم أورباً وادخرتهم لنفسها من المسلمين، فتبعوا شيوخهم من المستشرقين - وهم طلائع المبشرين - وزعموا كزعمهم أن كل الأحاديث لا صحة لها ولا أصل، وأنه لا يجوز الاحتجاج بها في الدين.

وبعضهم يتخطى القواعد الدقيقة الصحيحة، ثم يذهب بثبت الأحاديث وينفيها بما يبدو لعقله وهواه من غير قاعدة معينة، ولا حجة ولا بينة.

وهؤلاء لا ينفع فيهم دواء إلا أن يتعلموا العلم، ويتأدبوا بأدبه ثم الله يهدي من يشاء»<sup>(١)</sup>!

### الحديث النبوي في ميزان الفصاحة والبلاغة؛

يعتبر الحديث النبوي من حيث بلاغة التعبير، وجزالة اللفظ، وسمو المعنى، وحسن النظم، وجمال السبك فناً أديباً يلي القرآن الكريم من حيث الدرجة والرتبة، ولا غرو في ذلك فمحمد ﷺ وإن كان أمياً لا يتلو كتاباً، ولا يخط يمينه حرفاً قد أوتى جوامع الكلم، وهي جوامع شحنت بما يدل على العقل الواسع، والفكر المتزن، والإدراك الكبير للثقافة والعلم.

وخير ما نسترشد به في هذا المقام إجابته ﷺ المشهورة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه حينما سأله مرة فقال: لقد طففت في العرب، وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك؟ قال: أدبني ربي فأحسن تأديبي.

ومن الحق أن نقول: إن محمداً ﷺ تربى في رحاب القرآن، فأشرق كلامه، وسما أسلوبه، وعلت فصاحته مما جعله أبلغ العرب إلى جانب النشأة الأولى التي عاشها في البادية حيث استرضع في بني سعد بن بكر «والبادية تطبع من يعيش فيها، ويحيا بها على سلائق فصيحة وألسنة ذليقة إلى عارضة شديدة، وبداهة عجيبة، واستحواذ على جيد الكلام»<sup>(٢)</sup>.

(١) مقدمة كتاب: «الباعث الحديث في اختصار علوم الحديث» لابن كثير - تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر.

(٢) الأعرابيات: خليل مردم/٦.

## الزمخشري يصف بلاغة الرسول عليه السلام:

ويصف الزمخشري بلاغة الرسول عليه السلام فيقول: «ثم إن هذا البيان العربي كأن الله عزت قدرته منخسه، وألقى زبدته على لسان محمد عليه أفضل صلاة، وأوفر سلام، فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرَّجُل<sup>(١)</sup>، وما من مصقع يناهزه إلا رجع فارغ السَّجَلِ، وما قرن بمنطقه منطلق إلا كان كالبرذون مع الحصان المطهَّم، ولا وقع من كلامه شيء في كلام الناس إلا أشبه الوضع في نُقْبَةِ الأدهم. قال عليه السلام: أوتيت جوامع الكلم وقال: أنا أفصح العرب بيدأني من قريش، واسترضعت في بني سعد بن بكر»<sup>(٢)</sup>.

## وصف الجاحظ لبلاغة الرسول عليه السلام:

ويصف الجاحظ بلاغة الرسول عليه السلام فيقول: «هذا الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونزه عن التكلف، استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وسُدَّ بالتأييد، ويسرُّ بالتوفيق.

وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، وهو مع استغنائاه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلافة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهزم ولا يلمز، ولا يبطيء ولا يعجل، ولا يُسهب ولا يحصر. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقفاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ»<sup>(٣)</sup>.

(١) كناية عن العمى والعجز عن المقاومة.

(٢) من مقدمة الزمخشري لكتاب: الفائق في غريب الحديث.

(٣) البيان والنبين للجاحظ ٢ / ١٤ تحقيق السندوي

## الحديث الشريف والغريب:

كلمة الغريب فى حقل دراساآ الحديث الشريف تعنى نوعين:

أ - غريب الحديث، وهو مُصْطَلح فنى من مصطلحات: «علم مصطلحات الحديث الشريف» تحدّث عنه ابن الصّلاح فى مقدمته المشهورة فى علوم الحديث فى النوع الحادى والثلاثين بقوله: «الحديث الذى ينفرد به بعض الرواة بوصف بالغريب. وكذلك الحديث الذى ينفرد فيه بعضهم بأمر لا يذكره فيه غيره إمّا فى متنه وإمّا فى إسناده»<sup>(١)</sup>.

ودرجة هذه الأحاديث الموصوفة بالغرائب ضعيفة فقد روى عن أحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه قال غير مرّة: «لانتكتبوا هذه الأحاديث الغرائب، فإنها مناكير، وعامتها من الضعفاء»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن الصّلاح: وينقسم الغريب أيضاً من وجه آخر، فمنه ما هو غريب متناً وإسناداً، وهو الحديث الذى تفرد برواية متنه راوٍ واحد.

ومنه ما هو غريب إسناداً لامتناً كالحديث الذى متنه معروف مروى عن جماعة من الصحابة إذا تفرد بعضهم بروايته عن صحابى آخر كان غريباً من ذلك الوجه مع أن متنه غير غريب»<sup>(٣)</sup>.

ب - غريب ألفاظ الحديث النبوى: وهو الغريب الذى يعنىنا فى هذا البحث، لأن النوع الأول من الغريب مجاله دراساآ علوم الحديث.

وليس يبدع أن يشتمل الحديث الشريف على غرائب لغوية، وألفاظ تحتاج إلى كشف عن معانيها شأنه فى ذلك شأن غريب القرآن الكريم.

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ عربى وأوتى جوامع الكلم، وملم بلغات العرب يتكلم مع كل قوم بلغتهم، ويشاركهم فى أحاديثهم، ويستمع إلى كلامهم من دون عناء فى فهمه أو صعوبة فى كشفه.

(١) مقدمة ابن الصّلاح / ١٣٦.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

ولله درّ أبي سليمان الخطابيّ فقد أعطانا صورة واضحة عن الغريب في حديث رسول الله ﷺ أحب أن أعرضها على القارىء ليقف على حقيقة هذا الغريب فى ضوء الشرح والتحليل والتعليل.

قال رحمه الله: «ثم إن الغريب من الكلام على وجهين:

أحدهما: أن يراد به بعيد المعنى غامضه، لا يتناوله الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر.

والوجه الآخر: أن يراد به كلام من بعدت به الدار، ونأى به المحلّ من شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها وإنما هى كلام القوم وبيانهم. وعلى هذا ماجاء عن بعضهم، وقال له قائل: أسألك عن حرف من الغريب، فقال: هو كلام القوم، إنما الغريب أنت وأمثالك من الدخلاء فيه».

ولم يكتف الخطابيّ بتعريف الغريب من الكلام بل أعطانا صورة أخرى علّل فيها كثرة الغريب فى حديث رسول الله ﷺ فيقول.

«إنه ﷺ بعث مبلغاً ومعلماً، فهو لا يزال فى كل مقام يقومه وموطن يشهده يأمر بمعروف، وينهى عن منكر، ويشرع فى حادثة، ويفتى فى نازلة، والأسماع إليه مصغية، والقلوب لما يرد عليها من قوله واعية.

وقد تختلف عنها عباراته، ويتكرّر فيها بيانه، ليكون أوقع للسامعين، وأقرب إلى فهم من كان منهم أقلّ فقهاً، وأقرب بالإسلام عهداً، وأولو الحفظ والإتقان من فقهاء الصحابة يُرعونها كلها سمعاً، ويستوفونها حفظاً، ويؤدّونها على اختلاف جهاتها، فيجتمع لذلك فى القضية الواحدة عدّة ألفاظ تحتها معنى واحد، وذلك كقوله: «الولد للفراش» وللعاهر الحجر» وفى رواية أخرى: «وللعاهر الأثلب»<sup>(١)</sup> وقد مرّ بمسامعى ولم يثبت عندى: «وللعاهر الكثكث»<sup>(٢)</sup>.

(١) فى القاموس: الأثلب: التراب والحجارة، وكذلك الكثكث.

(٢) من كتاب: «غريب الحديث لأبى سليمان الخطابيّ مخطوط بالمكتبة السلمانية - نفلأ من مقدمة الزميل الدكتور محمود الطناحى لكتاب: «منال الطالب فى شرح طوال الغرائب».

ومجال الحديث عن غريب الحديث لا تتسع له مساحة هذا البحث الموجز وقد نرجئه إلى بحث آخر إن شاء الله.

والذى يعينى فى هذا البحث هو تفسير غريب القرآن بحديث رسول الله ﷺ لتكتمل المرحلة الثالثة من تفسير غريب القرآن الكريم.  
**غريب القرآن الكريم فى ضوء الحديث الشريف:**

هناك مؤلفات عدة فى غريب الحديث نكتفى بذكر اثنين منها لهما شهرة فى حقل الغريب ، وهما : كتاب «الغريبين» للهروى، وكتاب «الفاثق فى غريب الحديث» للزمخشرى.

كلا الكتابين تعرّض لبعض الألفاظ القرآنية الغريبة من خلال عرض ألفاظ الحديث النبوى.

وبالمقابلة بين لفظى القرآن الكريم ، والحديث النبوى تتضح معانى الألفاظ القرآنية ونظهر دلالتها، وتبين المعنى المراد منها.

وسأتناول فى إيجاز تعريف هذين الكتابين، ومنهجهما فى عرض الغريب، ثم نختم هذا البحث بعرض نماذج لغريب القرآن الكريم المفسّر بألفاظ الحديث الشريف لتجلى لنا صورة واضحة من صور الاستشهاد بالحديث لإزالة غرابة الكثير من الألفاظ القرآنية.

### **كتاب الغريبين للهروى:**

وصف ابن الأثير كتاب الغريبين للهروى فقال: «فلما كان زمن أبى عبيد أحمد بن محمد الهروى صاحب الإمام أبى منصور الأزهرى اللغوى، وكان فى زمن الخطابى وبعده وفى طبقتة صنف كتابه المشهور السائر فى الجمع بين غريبى القرآن العزيز والحديث، ورتبه مقفّى على حروف المعجم على وضع لم يسبق فى غريب القرآن والحديث إليه فاستخرج الكلمات اللغوية الغريبة من أماكنها وأثبتها فى حروفها وذكر معانيها، إذ كان الغرض والمقصد من هذا التصنيف معرفة الكلمات الغريبة لغة وإعراباً ومعنى. لامعرفة متون الأحاديث والآثار، وطرق أسانيدها، وأسماء رواتها، فإن ذلك علم مستقل بنفسه مشهور بين أهله».

إلى أن يقول: «فجاء كتابه جامعاً فى الحسن بين الإحاطة والوضع. فإذا أراد الإنسان كلمة غريبة وجدها فى حرفها بغير تعب إلا أنه جاء الحديث مفرقاً فى حروف كلماته حيث

كان هو المقصود والغرض، فانتشر كتابه بهذا التسهيل والتيسير في البلاد والأمصار، وصار هو العمدة في غريب الحديث والآثار»<sup>(١)</sup>.

### منهج الهروي في كتابه:

إن تحقيق الغرض الذي حمل المؤلف على تأليف كتابه، والمنهج الذي ارتضاه لتحقيق هذه الغاية، والطريقة التي استنتها للوصول إلى هذا الهدف بينها في مقدمة كتابه، وبذلك أغنانا عن تتبع هذا المنهج من خلال دراستنا لهذا الكتاب: فقال:

«إن اللغة العربية إنما يحتاج إليها لمعرفة غريب القرآن، وأحاديث الرسول عليه السلام والصحابة والتابعين، والكتب المؤلفة فيها جمّة وافرة، وفي كلّ منها فائدة، وجمعها متعب، وحفظها عن آخرها معجز، هذا والأعمار قصيرة، والعلوم كثيرة، والهمم ساقطة، والرغبات نائمة، والمستفيد مستعجل، والحفظ قليل، والحرص قليل فمتى اشتغل المرء بتحصيلها كلها بعدت عليه الشقة، وعظمت الكلفة. وفات الوقت، واستولى الضجر.

وكنت أرجو أن يكون سبقني إلى جمعهما، وضمّ كل شيء إلى لفقه منهما على ترتيب حسن، واختصار كاف - سابق، فكفاني مؤونة الدأب وصعوبة الطلب، فلم أجد أحداً عمل ذلك إلى غابتنا هذه، فاستخرت الله عزوجل وتقدس - فيه، وسألته التوفيق له، ليكون تذكرة لنفسي مدى حياتي، وأثراً حسناً لي بعد وفاتي إن شاء الله، وبه الثقة».

ثم وضع منهجه بقوله: «وهو موضوع على نسق الحروف المعجمة تبدأ بالهمزة، فنفيض بها على سائر الحروف حرفاً حرفاً، ونعمل لكل حرف باباً، ونفتح كل باب بالحرف الذي يكون آخره الهمزة ثم الباء، ثم التاء إلى آخر الحروف.. ليصير المفتش عن الحرف إلى إصابته من الكتاب بأهون سعى، وأحث طلب، وشرطى فيه الاختصار إلا إذا اختل «الكلام دونه»<sup>(٢)</sup>.

### نماذج من تفسير غريب القرآن بالحديث الشريف:

١ - ﴿تَاللّٰهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا﴾<sup>(٣)</sup> أى فضلك، يقال: له على أثره أى فضل.

(٢) من مقدمة الغريبين لأبي عبيد الهروي.

(١) مقدمة النهاية لابن الأثير ١/ ٩٠٨.

(٣) يوسف / ٩١.

وفى الحديث «إنكم ستلقون بعدى أثره أى يستأثر عليكم، فيفضل غيركم نفسه عليكم فى الفى» (١).

٢ - ﴿أَوْ أَثَارَةٌ مِّنْ عِلْمٍ﴾ (٢). وقرىء: ﴿أَوْ إِثَارَةٌ﴾ أى من علم ماثور ويقال: بقية من علم. والآثار والأثر: البقية، يقال: ما ثم عين ولا أثر.

وفى الحديث: «من سره أن ييسط له فى رزق، وينسأ فى أثره فليصل رحمه» (٣).

٣ - ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ (٤)، يقال: جاء بأمر إداً، أى منكر عظيم. ومنه حديث على: قال: رأيت النبى ﷺ فى المنام، فقلت: ما لقيت بعدك من الإدا. والإدد: الدواهى العظام واحدها إدة» (٥).

٤ - ﴿وَأَذَنْتُ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (٦)، أى سمعت سمع طاعة وقبول، وبه سميت الأذن أذناً.

وفى الحديث: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبى يتغنى بالقرآن» يريد ما أستمع الله لشيء، ولا يشغله سمع عن سمع» (٧).

٥ - ﴿وَيُعَوْلْتُهُنَّ أَحْقُ بَرْدِهِنَّ﴾ (٨) البعولة: جمع البعل. والرجل بعول المرأة، والمرأة بعولته، وقد بعول بعولاً: إذا صار بعولاً.

وباعول مباعلة: إذا باشرها.

ومنه قوله عليه السلام لأبام الشريق: «إنها أيام أكل وشرب وبعال» (٩).

٦ - ﴿تَهْتَرُ كَأَنَّهَا جَانٌ﴾ (١٠).

قال ابن عرفة: الجان: الحية الصغيرة.

وفى الحديث فى كسح زمرم. قال العباس: يارسول الله: إن فيها جناناً كثيرة، يعنى حيات، وهى جمع الجان.

(٢) الأحقاق: ٤

(٤) مريم/ ٨٩

(٧) الغريين ١/ ٣٣.

(٨) البقرة: ٢٢٨/

(١٠) النمل / ١٠.

(١) الغريين ١/ ١٥

(٣) الغريين ١/ ١٦/ ١٧

(٥) الغريين ٦/ ٢٩

(٦) الإنشقاق: ٢

(٩) الغريين ١/ ١٨٧

وفي حديث اخر «أنه نهى عن قتل الجنان التي تكون في البيوت»<sup>(١)</sup>.

وعنك أمثلة متعددة فسرت فيها ألفاظ القرآن الكريم الغريبة بالحديث الشريف نكتفي بعرض النماذج السابقة منها. ونتقل الآن إلى الكتاب الآخر المشهور في غريب الحديث وهو كتاب «الفائق» للزمخشري.

### كتاب «الفائق في غريب الحديث للزمخشري»:

وكما أعطانا ابن الأثير فكرة واضحة عن كتاب «الغريبين» للهروي، فإنه لم ينس أن يعطينا أيضاً فكرة أخرى عن كتاب «الفائق» للزمخشري، فيقول:

«صنف كتابه المشهور في غريب الحديث، وسمّاه: «الفائق»، ولقد صادف هذا الاسم مسمّى، وكشف من كل غريب الحديث كل معنى، ورتبه على وضع اختياره مقننى على حروف المعجم، ولكن في العثور على الحديث منه كلفة. ومشقة.. إلى أن يقول: «فكان كتاب الهروي أقرب متناولاً، وأسهل مأخذاً، وإن كانت كلماته متفرقة في حروفها، وكان النفع، أتم، والفائدة منه أعم»<sup>(٢)</sup>.

بعد هذا الوصف الدقيق لنفائيق في الغريب من ناحيتي الموضوع والمنهج أحب أن أقول في هذا المقام: إن الفائق لم يهتم كثيراً بالألفاظ القرآنية الغريبة في كل ما عرض له من أحاديث اللهم إلا بعض ألفاظ جاءت على سبيل الاستطراد، ولم تكن مقصودة في منهجه الذي رسمه لنفسه في هذا الكتاب وهو يتضح في كشف معاني غريب الحديث مؤيدة بالشعر، وبالقول المأثور من كلام العرب.

فإذا جاءت ألفاظ قرآنية تحتوى على مادة غريب الحديث نفسها لم يشر إليها إلا ناماً، ولم يفعل كما فعل الهروي حيث تتبع هذه الألفاظ الغريبة في الحديث في ضوء ألفاظ غريب القرآن الكريم ومن ها كان عنوان كتابه: «الغريبين»، فكلاهما مقصود وتبعهما مراد، وإجلاء حقيقتهما من المنهج.

على أن الزمخشري في منهجه يطمئن الباحثين والدارسين بأنه بذل كل ما في جهده للوصول إلى حقيقة هذا الغريب معتمداً على: «فَسْرَ مَوْضِح»<sup>(٣)</sup> وكشف مفصح، اطلعت به عل حاقّ المعنى وفصّ الحقيقة اطلّاعاً مؤداه طمأنينة النفس، وثلج الصدر، مع الاشتقاق

(١) الغريبين ١ / ٤١٣.

(٢) انظر مقدمة النهاية في غريب الحديث لابن الأثير.

(٣) الفسر: التفسير والبيان

غير المُستكره ، والتصريف غير المتعسف، والإعراب المحقق البصرى، الناظر فى نص سيويه، وتقرير الفسوى<sup>(١)</sup> فأية نفس كريمة ونسمة زاكية، نور الله قلبها بالإيمان والإتقان مرت على هذا التبيان والإتقان ، فلا يذهبنَ عليها أن تدعولى بأنه يجعله الله فى موازينى ثقلاً ورُحجاناً، ويشينى عليها رَوْحاً ورُحجاناً<sup>(٢)</sup>.

أما الأمثلة القليلة من الألفاظ القرانية التى وردت على سبيل الاستطراد فى الفائق فإليك نماذج منها.

### نماذج من غريب القرآن فى الفائق:

١ - فى الحديث : كانوا يتأتمون شرار ثمارهم فى الصدقة أى يقصدون وفى قراءة عبدالله ﴿وَلَا تَأْمَمُوا الْخَبِيثَ﴾<sup>(٣)</sup>

٢ - قال النبى ﷺ : «يخرج قوم من المدينة إلى العراق والشام ييسون المدينة، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون».

اليسّ: السوق والطرْد، ويقال: يسّ القوم عنك أى اطردهم. وبه فسّر قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾<sup>(٤)</sup>.

والمعنى : يسوقون بهائمهم سائرين<sup>(٥)</sup>.

٣ - الرّوح هو القرآن لقوله تعالى : ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾<sup>(٦)</sup>.

خطب ﷺ فقال: تحابوا بذكر الله وبروحه<sup>(٧)</sup>.

٤ - قال تعالى : ﴿لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ﴾<sup>(٨)</sup>. أى لا أحد يتبع حكمه رداً.

وقال عز وجل : ﴿وَلَيْ مُدْبِرًا وَلَمْ يَعْقِبْ﴾<sup>(٩)</sup> أى لم يتبع إداره إقبالاً والتفاناً.

وفى حديث أنس رضى الله عنه: أنه سئل عن التعقيب فى رمضان ، فأمرهم أن يصلوا فى البيوت. هو أن يصلوا عقب التراويح<sup>(١٠)</sup>.

(٢) انظر مقدمة الفائق للزمخشري

(٤) الواقعة: ٥ /

(٦) الشورى / ٥٢

(٨) الرعد: ٤١

(١٠) الفائق ٣ / ٣١

(١) الفسوى: هو أبو على الفارسى

(٣) البقرة / ٢٦٧، انظر الفائق ١ / ٥٩.

(٥) الفائق ١٠٧ / ١

(٧) الفائق ٢ / ٨٩

(٩) النمل / ١٠.

٥ - ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ﴾ (٢).

العنوة: القهر والذل

في حديثه ﷺ: «عودوا المريض، وأطعموا الجائع، وفكّوا العاني» (٣).

٦ - ﴿بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ﴾ (٤) فيمن حرّك بأنه جمع: «قَصْرَة» وهو أصل الشجرة ومستعظما، وأعناق الإبل، وأعناق النخل.

وفي الحديث: من كان له بالمدينة أصل فليتمسك به، ومن لم يكن له فليجعل له بها أصلاً ولو قَصْرَة» (٥).

٧ - قال النبي عليه السلام: «نحن بنو النضر بن كنانة لا نتقّفى من أبينا ولا نقفوا أمتنا. أى لانتهما ولا نقذفها، يقال: قفا فلان فلاناً: إذا قذفه بما ليس فيه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (٦).

وبعد، فأرجو أن أكون قد قدمت للقارئ صورة واضحة عن أثر الحديث الشريف في بيان غريب القرآن.

\*\*\*

(٢) الفائق ٢١/٣

(١) ط / ١١١

(٤) الفائق ٢٢/٣

(٣) الرسائل ٣٢

(٥) الإسرائء / ٣٦ وانظر الفائق ٢١٤/٣.

## مصادر البحث ومراجعته

- ١ - الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر - المطبعة الشرفية.
- ٢ - الأعرابيات لخليل مردم: طبع مجمع اللغة العربية بدمشق.
- ٣- الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث - ابن كثير.
- ٤- البيان والتبيين - الجاحظ - مكتبة الخانجي.
- ٥ - تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة - نشر دار الكتاب العربي بيروت.
- ٦ - تقييد العلم للخطيب البغدادي - طبع دمشق.
- ٧ - الطبقات الكبرى لابن سعد - طبع ليدن.
- ٨ - علوم الحديث ومصطلحه - الدكتور صبحي الصالح - طبع دار العلم للملايين.
- ٩ - الغربيين للهروري - نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة.
- ١٠ - الفائق في غريب الحديث للزمخشري . طبع عيسى الحلبي.
- ١١ - مقدمة ابن خلدون - طبع دار الشعب.
- ١٢ - مقدمة ابن الصلاح - منشورات دار الحكمة - دمشق.
- ١٣ - منال الطالب في شرح طوال الضرائب - نشر مركز البحث العلمي بمكة المكرمة.

\*\*\*

## ١٢. القراءات في ضوء الدراسة والبحث (\*)

ما القرآن؟ وما القراءات؟

قبل أن أبدأ بحثي أحب أن أبين معنى هاتين الكلمتين اللتين نكثرتن من تكرارهما على الألسنة، وبتناول كلمة قرآن:

- الشافعي يرى أن القرآن اسم غير مشتق خاص بكلام الله تعالى.

- الأشعري والفراء والزجاج وقطرب يرون أن القرآن مشتق ولكنهم اختلفوا في مادة اشتقاقه.

فالفراء والزجاج وقطرب يرون أن القرآن مشتق ولكنهم اختلفوا في مادة اشتقاقه: فالفراء يرى أنه مشتق من القرائن، لأن الآيات يصدق بعضها بعضاً، ويشابه بعضها بعضها وهي قرائن.

- الزجاج يرى أنه وصف على فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع، ومنه قرأت الماء في الحوض أى جمعته.

- قطرب يقول: إنما سمي قرآناً، لأن القارىء يظهره ويبيته من فمه أخذاً من قول العرب: ما قرأت الناقة سلى قط أى ما رمت بولد أى ما أسقطت ولداً، والقرآن يلفظه القارىء من فيه ويلقيه فيسميه قرآناً.

والسيوطى فى الإتقان يرى أن المختار عنده فى هذه المسألة ما نص عليه الشافعى.

وفى رأى أن أسهل الآراء هو رأى ابن عطية الذى يرى أن القرآن مصدر من قولك: قرأ الرجل - إذا تلا - يقرأ قرآناً وقراءة ولا أدل على ذلك من قول حسان رضى الله عنه يرثى عثمان بن عفان رضى الله عنه.

ضحوا بأشمت عنوان السجود به يُقَطِّع الليل تسيحاً وقرآناً.

أى قراءة. وسمى «أيضاً بالكتاب» «ذلك الكتاب» والفرقان «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده» والذكر «وإنه لذكر لك ولقومك»، «إن هو إلا ذكر للعالمين».

(\*) نشر فى مجلة الموسم الثقافى عام ١٤٠٦ - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦ - ١٩٨٧م - جامعة الكويت.

أما كلمة قراءة أو قراءات: فهي اختلاف ألفاظ الوحي في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما.

- المقرء: هو العالم بالقراءات ورواها مشافهة، فلو حفظ الشاطبية مثلاً فليس له أن يقرأ بما فيها إن لم يشافهه من فوقه به مسلسلاً، لأن في القراءات شيئاً لا يحكم إلا بالسمع والمشافهة.

- القارئ: المبتدئ من عرف ثلاثاً من القراءات.

- المتوسط: من عرف أربعاً أو خمساً.

- المنتهى: من عرف أكثر القراءات وأشهرها.

\*\*\*

قسمت البحث إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: توثيق النص القرآني.

القسم الثاني: كيف نشأت القراءات؟

القسم الثالث: الرسم العثماني وعلاقته بالقراءات القرآنية.

**أما القسم الأول، وهو توثيق النص القرآني، فهذا التوثيق مزيج من عدة خطوات:**

١ - نزول القرآن الحكيم منجماً أو مجزأً: ونزوله على هذه الكيفية يساعد على حفظه وتثبيتته في الصدور. ومن ثم رد الله تعالى أبلغ رد على هؤلاء الذين تساءلوا لِمَ لم ينزل القرآن عليه جملة واحدة، كما نزلت التوراة على موسى، وكما نزل الإنجيل على عيسى؟ «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً» [الفرقان/ ٣].

وفي الحقيقة تناول الاجابة عن هذا السؤال الفخر الرازي في تفسيره حيث ذكر سبب

النزول منجماً: ولا أستطيع أن أسرد إجاباته المتعددة عن هذا السؤال، وإنما اكتفى بتلخيصها، وأحب أن اذكر القارئ الكريم أن القرآن الكريم نزل في اثنتين أو ثلاث وعشرين سنة.

قال الفخر الرازى مجيباً عن هذا التساؤل:

١-: إن النبي عليه السلام لم يكن من أهل القراءة والكتابة، فلو نزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه، ولجاز عليه الغلط والسهو.

٢- إن من كان القرآن عنده جملة واحدة ربما اعتمد على الكتاب وتساهل في الحفظ، فإله تعالى ما أعطاه القرآن دفعة واحدة بل كان ينزل عليه جزءاً جزءاً، ليكون حفظه له أكمل، وليكون أبعد له عن التساهل، وقلة التحصيل.

٣- لو نزل القرآن جملة واحدة لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك، وحينما نزل مفرقا نزلت التكاليف قليلاً قليلاً فكان تحملها أسهل.

٤- لما عجز العرب عن الإتيان بمثله مفرقاً كان ذلك دليلاً على عجزهم أن يأتوا بمثله جملة.

٥- القرآن الكريم كان ينزل بحسب أسئلتهم، والوقائع الواقعة لهم فكانوا يزدادون بصيرة. إلخ ما قال.

والخطوة الثانية في التوثيق: كتابته حين النزول، فقد كان للرسول ﷺ كتاب وحى بذلوا أنفسهم فى إتقانه، وتلقوه منه عليه السلام حرفاً حرفاً لم يهملوا فيه حركة ولا سكونا ولا إثباتاً ولا حذفاً. ولا دخل عليهم فى شىء منه شك ولا وهم.

وهنا نشير إلى مشكلة أثارها بعض المستشرقين وعلى رأسهم آرثر جفرى.

هؤلاء المستشرقون ينكرون كتابة القرآن الكريم حين نزوله على الرسول عليه السلام اعتماداً على بعض الأحاديث التى رواها ابن أبى داود فى كتاب المصاحف، ومن المحققين لهذا الكتاب آرثر جفرى، ومن هذه الأحاديث أن النبى عليه السلام «قبض ولم يجمع من القرآن شىء» ويؤيد جفرى هذا الحديث الذى ساقه ابن أبى داود بقوله: وهذا يطابق ما روى من خوف عمر بن الخطاب وأبى بكر الصديق لما استحر القتل بالقراء إلى أن يقول: وسبب

الخوف هو قتل القراء الذين كانوا قد حفظوا القرآن، ولو كان القرآن قد جمع وكتب لما كانت هناك علة لخوفهما.

وأطلت التفكير في هذا القول فهديت إلى أن وراء هذا الرأي الاستشراقى التشكيك فى نص القرآن الكريم، لأن الذاكرة لا تستطيع أن تمسك على كل ما فيها فترة طويلة وذلك يؤدى إلى نقص فى النص القرآنى أو زيادة عليه ويكون شأنه شأن الشعر المروى عرضة للتغيير والتبديل.

ولو صح هذا الحديث الذى اعتمد عليه المستشرقون فى أن النبى عليه السلام قبض ولم يجمع فى القرآن شىء فليس معناه أنه لم يكن مكتوباً حينذاك بل المراد أنه لم يجمع فى مصحف.

وقد أشار إلى ذلك السيوطى فى إتقانه فقال: قال الخطابى: إنما لم يجمع صلى الله عليه وسلم القرآن فى مصحفه لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته عليه السلام ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك « أى كتابة القرآن فى مصحف.

على أن هناك أحاديث تنص صراحة على كتابة القرآن فى عهد الرسول عليه السلام فقد روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن فمن كتب عنى شيئاً سوى القرآن فليمحاه».

وردى على هؤلاء المستشرقين فى الشق الثانى من آرائهم وهو خوف عمر بن الخطاب وأبى بكر الصديق حين استحرّ القتل يوم اليمامة بالقراء فهذا استدلال فى غير موضعه، لأن خوفهما زيادة تحرّف فى صيانة القرآن الكريم وحفظه ليلتقى المحفوظ فى ذاكرة القراء بالمكتوب فى المصحف فلا تكون هناك فجوة بينهما وذلك لأن طريقة أداء المكتوب لا تأتى إلا عن طريق التلقين والرواية، ومن ثم نشأ خوف الخليفين الجليلين من أن يموت القراء فتتعرثر طريقة الأداء.

ومالى أذهب بعيداً فهناك مستشرقون منصفون وقفوا ضد هذا الرأى حيث قالوا ما نصه: «بين أيدينا كتاب معاصر فريد فى أصالته وفى سلامته لم يشك أحد فى صحته كما أنزل أى شك جدى، وهذا الكتاب هو القرآن، وهو اليوم كما كان يوم كتب لأول مرة تحت إشراف محمد إلى أن يقول: وإن الحسنة الوحيدة فى طريقة زيد أنها كانت أمينة فوق الشبهات فلم

يفعل شيئاً ليضيف فقرات أو يضع جمل ربط أو يحذف أو ينسخ، لقد عمل بإخلاص لا يمكن تصوره إلى أن يقول: والمهم هو أن القرآن هو العمل الوحيد الذى عاش دون أن يبدل فيه ثم قالوا: ولا يوجد شيء يمكن أن يقارن بهذا أدنى مقارنة فى الديانة اليهودية ولا فى الديانة المسيحية...

والخطوة الثالثة فى التوثيق متمثلة فى التنافس الكبير على حفظ القرآن الكريم وكثرة تلاوته فالرسول عليه السلام يقول لعبد الله بن عمرو بن العاص:

اقرأ القرآن فى كذا ليلة يدعوهُ إلى التيسير وهو يقول: إنى أطيق أكثر من ذلك إلى أن قال له: اقرأ القرآن فى ثلاث ليال.

والخطوة الرابعة فى التوثيق متمثلة فى أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يعرضون ما يحفظونه على رسول الله ﷺ، ونذكر من هؤلاء ابن مسعود الذى يقول: قال لى رسول الله ﷺ: اقرأ على ففتحت سورة النساء فلما بلغت: «كيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد» فقال: حسبك الآن.

والخطوة الأخيرة فى التوثيق ممثلة فى أن جبريل كان يعارض النبى ﷺ بالقرآن كل سنة فى شهر رمضان<sup>(١)</sup>.

### توثيق النص القرآنى فى عهد أبى بكر الصديق.

فى عهد أبى بكر رضى الله عنه بدأت المرحلة الثانية من مراحل توثيق النص القرآنى.

وكانت ظروف الدولة الإسلامية بمقتضى الأحداث التى وقعت فيها تستوجب من أبى بكر أن يقف هذا الموقف الكريم من القرآن العظيم، فيعمل على جمعه فى مصحف صوتاً له من التحريف ومبالغة فى الدقة والتحرى.

ونترك زيد بن ثابت كاتب الوحي على عهد رسول الله ﷺ ليحدثنا عن قصة توثيق النص القرآنى بكتابه فى مصحف موحد يقول زيد ما نصه: «أرسل إلى أبى بكر عقب مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبى بكر: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقرآء القرآن، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من

(١) انظر كتابى: القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية فى هذه القضية.

القرآن وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا تنهملك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن، اجمعه. قال زيد: فوالله لو كلفونى فى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن<sup>(١)</sup>.

وليس هناك شك فى أن جمع القرآن فى عهد أبى بكر كان يسير على خطة علمية منظمة تتميز بالدقة، والإتقان والمبالغة فى الاحتياط.

فمن عبدالرحمن بن حاطب: قال: قدم عمر، فقال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به.... وكان زيد لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان ويعلق السيوطى على هذا الخبر الأخير بقوله: «وهذا يدل على أن زيدا كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوباً<sup>(٢)</sup> حتى يشهد به من تلقاه سماعاً مع كون زيد كان يحفظ، فكان يفعل ذلك مبالغة فى الاحتياط. ومن المسلم به فى هذه المرحلة أن جمع أبى بكر كان مشتملاً على سبعة الأحرف التى نزل القرآن بها، ولم يخص أبو بكر فى جميعها حرفاً بعينه.

والسؤال الذى يطرح نفسه فى هذا الموقف هل كان مصحف أبى بكر ملزماً للجميع أو كانت هناك مصاحف بجانبه؟

الواقع: أنه بجانب مصحف أبى بكر كانت هناك مصاحف خاصة لبعض كبار الصحابة الذين سجلوا فيها ما سمعوه من النبى ﷺ.

وأبو بكر لم يمنع القراءة فى هذه المصاحف لقرب عهده من عهد النبى ﷺ، ولم تحدث وقائع ذات بال فى قراءة القرآن تدل على خلاف، أو تشير إلى نزاع. ومن أشهر هذه المصاحف مصحف على، ومصحف أبى، ومصحف ابن مسعود.

ونحن إذا نظرنا إلى هذه المصاحف لآنجد اختلافاً كبيراً بينها وإن وجد بعض الاختلاف فمرجه ترتيب السور لا اختلاف النص بالزيادة أو النقصان.

(١) الإتقان ١/ ٥٧.

(٢) الإتقان ١/ ٥٨.

من أجل تعدد المصاحف بجانب مصحف أبى بكر وانتشار القراء فى الأمصار تعددت القراءات وثار الجدل، واحتدم النزاع، واتسعت الفروق بين القراءات، وأطلت الفتنة برأسها على كتاب الأمة فهياً الله الخليفة الورع عثمان بن عفان ليقضى على كل فتنة تحاول أن تمس جلال القرآن الكريم.

وبتوفيق الله وإلهامه قام عثمان رضى الله عنه بالمرحلة الثالثة لتوثيق نص القرآن الكريم وهى المرحلة الأخيرة التى امتدت إلى عصرنا هذا وستمند إلى العصور الأخرى حتى تقوم القيامة وها نحن أولاء نظرق باب الحديث فيها.

توثيق النص القرآنى فى عهد عثمان رضى الله عنه.

«حدث ابن شهاب عن أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان، وكان يغازى أهل الشام مع أهل العراق مع فتح أرمينية وأذربيجان فأفزعته اختلافهم فى القراءة.

قال: يا أمير المؤمنين: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب كما اختلفت اليهود والنصارى، فبعث عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالمصحف ننسخها فى المصاحف، ثم نردها عليك فأرسلتها إليه، فأمر عثمان زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوا المصحف فى المصاحف»<sup>(١)</sup>.

فلما تم لهم ذلك، ونقلت المصحف فى المصاحف بعث عثمان إلى كل أفق مصحفاً من تلك المصاحف التى نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»<sup>(٢)</sup>. على ضوء هذا النص يتضح لنا أن هذه المرحلة فى الحركة القرآنية التى قام بها عثمان رضى الله عنه امتداد للمرحلة السابقة التى قام بها أبو بكر، بيد أن الجديد فى حركة عثمان أنه جمع الناس على مصحف واحد، وحرق ما عداه على حين كانت مصاحف كبار الصحابة تقرأ فى عهد أبى بكر، وكانت مصونة لا تمس.

ومن هنا وجهت موجات من النقد لعثمان رضى الله عنه وحاولت بعض كتب الطبقات والتاريخ أن تجعل من ابن مسعود مصدراً لهذا النقد، فقد قال ابن شهاب: «أخبرنى عبدالله ابن عبدالله بن عتبة أن عبدالله بن مسعود قال: يا معشر المسلمين أعزل عن كتابة المصحف،

(١)مقدمتان فى علوم القرآن ص ١٨-١٩.

(٢) المرجع السابق والصفحة.

ويولأها رجل، والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر، يريد زيد بن ثابت. قال ابن شهاب: فبلغني أنه كره ذلك من مقالة ابن مسعود رجال من أفاضل أصحاب رسول الله ﷺ (١).

ووقفت أمام هذا الخبر طويلاً: كيف يصدر هذا عن ابن مسعود؟

قلت: لعل عثمان رضى الله عنه انفرد بهذا العمل وحده دون أن يستشير أولى الراى من كبار الصحابة، وربما كانت الفتن التى أعلنت عن نفسها تجاه القرآن والقراءات تتطلب عملاً حاسماً سريعاً يوضع الأمر فى نصابه ومن ثم لم يكن هناك ما يدعو لأخذ الآراء أو مناقشتها فى أمر خطير يتطلب عملاً عاجلاً سريعاً.

وفى غمار هذه الأحداث تولى زيد كتابة المصحف دون ابن مسعود مما أثار انفعاله.

أقول: كنت أميل إلى هذا الاتجاه، وأميل إلى أن ثورة ابن مسعود انفعالات صدرت لأنه كان يود أن يسهم فى هذا العمل الخطير الذى تتوحد به الأمة لولا أنى وفتت على نص آخر يثبت أن عمل عثمان جاء ثمرة لإجماع الصحابة، وأنه لم يتفرد برأيه فى هذا العمل الخطير.

وبيان ذلك ما رواه مصعب بن سعد قال: لما كثر اختلاف الناس فى القرآن قالوا: قراءة ابن مسعود، وقراءة سالم مولى حذيفة، قال فجمع أصحاب محمد ﷺ عثمان بن عفان فقال: إنى رأيت أن أكتب مصاحف على حرف زيد بن ثابت ثم أبعث بها إلى الأمصار قالوا: نعم ما رأيت (٢).

إذن فعثمان رضى الله عنى عنه جمع أصحاب محمد عليه السلام واستشارهم فى هذا الأمر، فقالوا: نعم ما رأيت.

ومن هنا لا يصح فى رأى أن يقف ابن مسعود بعد هذا الاجماع موقف المعارض.

أكبر الظن أنها رواية مدسوسة نسبت إليه وهو منها برىء وقد اسغفنى فى الاستدلال على براءة ابن مسعود من هذه التهمة ما رأيت بعد طول بحث فى كتاب المصاحف حيث وضع مؤلفه عنواناً جاء فيه: رضا عبدالله بن مسعود لجمع عثمان رضى الله عنه فى المصاحف وقد جاء تحت هذا العنوان ما نصه.

(١) مقدمات فى علوم القرآن / ٢٠

(٢) المرجع السابق ص ٤٤-٤٥.

«عن عثمان بن حسان العامري عن الجعفي قال: فزعت فيمن فزع إلى عبد الله بن مسعود في المصاحف فدخلنا عليه، فقال رجل من القوم: إنا لم نأتك زائرين، ولكننا جئنا حين راعنا هذا الخبر فقال: إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب على سبعة أحرف أو حروف»<sup>(١)</sup>.

ومالي أذهب بعيداً وهذا على كرم الله وجهه الذي يحاول التاريخ ان يجعله خصماً لبني أمية يشيد بعمل عثمان ويبين: أنه ما فعل ذلك لهوى في نفسه أو استبداد برأيه فيقول: «يامعشر الناس: اتقوا الله عز وجل وإياكم والغلو في عثمان، وقولكم: حراق المصاحف، فوالله ما حرقها إلا عن كلامنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم»<sup>(٢)</sup>.

### القسم الثاني: وهونشأة القراءات:

لنا أن نساء هل تعددت قراءات القرآن الكريم في عهد الرسول عليه السلام؟ والإجابة عن هذا السؤال بنعم، فما بين أيدينا من قراءات هو موصول السند والرواية إلى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم.

أول نص يطالعنا في ذلك هو نص البخاري الذي رواه عن عمر بن الخطاب «قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرأ فيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة فتصبرت حتى سلم فلبته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت: كذبت فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها، فقال رسول الله ﷺ: أرسله، أقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت ثم قال: أقرأ يا عمر، فقرأت القراءة التي أقرأني فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت، إن هذا القرآن على سبعة أحرف فافروا ما تيسر منه»<sup>(٣)</sup>.

وقد تواترت رواية هذا الحديث الشريف في صحة سنده ففي المسند الكبير للحافظ أبي يعلى «أن عثمان رضي الله عنه قال يوماً وهو على المنبر اذكر أن رجلاً سمع النبي ﷺ قال:

(١) المصاحف لابن أبي داود/ ١٨.

(٢) مقدمتان في علوم القرآن/ ٤٦.

(٣) صحيح البخاري ٦/ ١٨٥.

أنزل القرآن على سبعة احرف: كلها شاف كاف لما قام فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا ان الرسول ﷺ قال: انزل القرآن على سبعة احرف كلها شاف كاف. فقال عثمان وأنا أشهد معهم» (١).

وقد اختلف علماء العربية في تفسير هذا الحديث الشريف اختلافاً كبيراً إلى حد أن روى له السيوطي في كتابه: «الإتقان» أربعين وجهاً.

ومن علماء العربية الذين أدلوا بدلوهم في مجال هذا الحديث ابن قتيبة - والطبري - وأبو حاتم السجستاني - وابن أبي شامة والرازي، وقد سجلنا آراء هؤلاء العلماء في مقدمة معجم القراءات وفي كتابي: أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية ولنقتصر فقط من هذه الآراء على رأى الرازي.

يذهب الإمام أبو الفضل الرازي في كتابه: «اللوائح» إلى أن الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف في الاختلاف.

الأول: اختلاف الأسماء من أفراد وتثنية وجمع، وتذكير وتأنيث.

الثاني: اختلاف تصريف الأفعال من ماض، ومضارع، وأمر.

الثالث: اختلاف وجوه الإعراب.

الرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة.

الخامس: الاختلاف بالتقديم والتأخير.

السادس: الاختلاف بالإبدال.

السابع: اختلاف اللغات.

ولا يفوتنا أن نذكر أن رأى الرازي هذا اختاره اثنان من المحدثين أحدهما: الشيخ الزرقاني في كتابه: مناهل العرفان في علوم القرآن حيث يقول: «والذى نختاره بنور الله وتوفيقه من بين تلك المذاهب والآراء هو ما ذهب إليه الإمام أبو الفضل الرازي في اللوائح» وثانيهما: المرحوم الدكتور صبحي الصالح فإنه اختار رأى الرازي مع التعديل فيه، وهذا

(١) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢١/١.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني - مطبعة الحلبي، طبعة ثالثة ص ١٤٨.

التعديل يتمثل في الاختلاف بالحروف نحو يعلمون، وتعلمون، ثم نقد اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وامر في جعلها وجهاً خاصاً قائماً برأسه مع أنه يندرج تحت وجه الاختلاف في الإعراب ذكر ذلك في كتابه «مباحث في علوم القرآن»<sup>(١)</sup>.

## رأى؛

وفي رأى أنه لا داعى لهذه الاختلافات، فالحديث معناه واضح لا يحتاج إلى تأويل أو تخريج.

ذلك لأن الرسول ﷺ بين لنا في هذا الحديث أن القرآن الكريم نزل بلهجات متعددة من لهجات العرب ليتيح للعرب جميعاً أن يتدبروا معانيه، ويكثروا من التلاوة فيه، فنزل بهذه اللهجات للتيسير والتسهيل وإن كان معظمه بلغة قريش.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يختارون من القراءات التي سمعوها ما وافق لهجتهم، ومن هنا كانت القراءات مرجعها الرواية والنقل عن رسول الله ﷺ، وليس لأحد أن يقرأ بلغته كما يشاء.

ولعل معترضاً يقول: كيف تقول ذلك وقد وردت في القرآن الكريم قراءة ابن مسعود: «عتى حين» و«حتى حين» سورة يوسف آية ٣٥؟

وللإجابة عن هذا الاعتراض أقول: إن ابن مسعود لعله سمع من النبي ﷺ هذه القراءة في هذه الآية فحسب بدليل أن هذه القراءة لم تكن في غير سورة يوسف مع تكرار «حتى» في غيرها وهذا يدل دلالة واضحة على التقيد بالقراءة المسموعة فحسب ولو كان هناك إطلاق للقراءة على حسب ما يدعى بعض المحدثين لقرئت حتى: عتى في كل آية توجد فيها هذه ناحية.

وناحية أخرى قد يحتملها الموقف وهي أن ابن مسعود غلب عليه لسانه الهذلي فقرأها كما قرأ من غير أن يسمعها فبئس عمر إلى أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش لا بلغة هذيل، ومعنى ذلك أن عمر أراد أن يسد باب القراءة الواسع باللغات المختلفة من غير أن تكون هناك روايات تسند إلى النبي ﷺ في ذلك.

فالقراءات إذاً ليس مصدرها هذه اللهجات المتعددة، وإنما مصدرها قراءة النبي ﷺ.

(١) مباحث في علوم القرآن ص ١٤٥، ١٤٦.

ومن أجل ذلك نحن ننكر رأى الدكتور طه حسين فى كتابه «الأدب الجاهلى» الذى ألفه فى صدر شبابه الفكرى لىخالف ما استقر عليه رجال الفكر والعلماء من قضايا شعرية، ومسلمات علمية.

أثار الدكتور طه حسين فى كتابه هذا مشكلة القراءات القرآنية ورأيه فيها كما يقول مانصه: «إن القراءات السبع ليست من الوحي فى قليل ولا كثير وليس منكرها كافراً ولا فاسقاً، ولا مفتزراً فى دينه، وإنما هى قراءات مصدرها اللهجات واختلافها، للناس أن يجادلوا فيها وأن ينكروا بعضها، وقد حاولوا فيها بالفعل وتمازوا، وخطأ فيها بعضهم بعضاً. ولم نعلم أن أحداً من المسلمين كفر أحداً لشيء من هذا، وليست هذه القراءات بالأحرف السبعة التى أنزل عليها القرآن»<sup>(١)</sup>.

لست أدرى ما الذى حمل طه حسين أن يلقى هذا الكلام على عواهنه؟ إن كل كلمة فى هذا النص تحمل دليل زيفها، وحجة بطلانها، ولو فكر قليلاً لما تجرأ أن يصدر هذا الحكم قبل أن يلم بجوانب هذه القضية.

وقد تكلم الباحثون قبله فى القراءات واختلفوا، وتباينت أراؤهم ولكن أحداً منهم لم يقل مثل هذا القول.

وثمة دليل آخر يؤيد ما ذهب إليه من أن القراءات ليس مرجعها اللغات المختلفة للقبائل على الإطلاق من غير أن تقيّد بالسند والرواية أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه اختلف مع هشام بن حكيم فى قراءة سورة الفرقان كما بينت، وكلاهما قرشى، فبم نفسر هذا؟ هل اختلفت قريش، وهى قبيلة واحدة فى قراءتها؟

أكبر الظن أن المقاييس اللغوية الحديثة لا تثبت أمام هذه الحقيقة حقيقة اختلاف القبيلة الواحدة فى نطقها بعض الكلمات وإنما مرجع ذلك إلى أن أحدهما سمع من النبى ﷺ قراءة بعض آيات من سورة الفرقان بلهجة ما وسمعها الثانى بلهجة أخرى، فاخذ كل منهما بالقراءة التى سمعها، وهذا لا يتنافى فى أنهما قرأ بغير لهجتهما، لأن القرآن الكريم لم تنزل كل كلمة فيه بلهجات متعددة، وإنما نزل بعض آياته ببعض اللهجات فحفظها الصحابة كما سمعت بغض النظر عن تلاقيها مع لهجتهم أو عدم تلاقيها.

وقد وضع الأمر فى نصابه ابن حجر فى هذه القضية فى كتابه «فتح البارى» فقد جاء

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٩٥ - طبع دار المعارف بمصر.

ما نصه: «نقل أبو شامة عن بعض الشيوخ أنه قال: أنزل القرآن أولاً بلسان قريش، ومن جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أبيع للعرب أن يقرءوه بلغاتهم التي جرت عادتهم على استعمالها على اختلافهم في الألفاظ والإعراب، ولم يكلف أحد منهم الانتقال من لغته إلى لغة أخرى للمشقة.

قال ابن حجر معلقاً: وتمة ذلك أن يقال: إن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهي، أى أن كل أحد يغير الكلمة بمرادفها فى لغته، بل المراعى فى ذلك السماع من النبى ﷺ»<sup>(١)</sup>.

أما الناحية العددية فى الحديث فإنى أوافق استاذنا المرحوم الدكتور إبراهيم انيس على أن المراد بالسبعة مجرد التعدد وليس المراد قصر الأحرف على العدد سبعة، وذلك لأن العدد سبعة يعبر عن الكثرة والتعدد فى الأساليب العربية<sup>(٢)</sup>. وقد قمت بإحصاء للفظ كلمة سبع أو سبعة فى القرآن الكريم، وفى كتب الصحاح فوجدتها تمثلت فى القرآن الكريم فى ثمانية وعشرين موضعاً، كما قمت بإحصاء هذه الكلمة فى معجم ألفاظ الحديث النبوى فوجدتها ملأت أعمدة خمس صفحات من هذا المعجم.

### القراءة والكتابة:

أما الإجابة عن السؤال حول رسم المصحف ما هو؟ فأقول: «عند أهل القراءات: قدرة موصولة بحركات القلم بين الأنامل وفقاً لمذاهب أو لقواعد»<sup>(٣)</sup>.

ومن المعروف أن رسم الكلمات فى القرآن كان غاية ما وصل إليه فن الرسم الإملائى فى هذا العهد، وسجل القرآن الكريم بهذا الرسم وأطلق عليه الرسم العثمانى. ومازال هذا الرسم سنة متبعة فى مصاحفنا لا تخضع للتعبير أو للتبديل.

ومن ثم قال السيوطى: قال أشهب: «سئل مالك: هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال: لا، إلا على الكتبة الأولى»<sup>(٤)</sup>.

(١) فتح البارى لأبى الفضل شهاب الدين أحمد بن على بن محمد بن حجر العسقلانى ج ٩ ص ٢٢ - المطبعة البهية.

(٢) فى اللهجات العربية / ٣٩.

(٣) مجلة الجمع العلمى العربى بدمشق، المجلد ٢٢ ج ١ ص ١٠٦.

(٤) الإفتان ج ٢ ص ١٦٧.

والحق الذي يقال في هذا المجال: إن رسم المصحف الذي سار عليه عثمان أو بمعنى آخر سار عليه الكتبة في المصحف العثماني اصطلاحاً يسير على قواعد الكتابة التي كانوا بها يكتبون.

ولما اتخذ المصحف هذا الرسم شعاراً له أصبح وقفاً عليه، وسنة متبعة لا تخالف، ولذلك حكمة، فإن رسوم الهجاء تتغير جرياً على سنة التطور، وتختلف في تغيرها من زمن إلى زمن، بل من شعب إلى شعب فصيانه لكتاب الله من عبث العابثين، وإغلاقاً لباب التغيير فيه واحداث ما ليس منه أصبح هذا الرسم العثماني مقدساً لا يمس ولذلك قال الإمام أحمد: يحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك»<sup>(١)</sup>.

وقال البيهقي في شعب الإيمان: «من كتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به المصاحف ولا يخالفهم فيه ولا يغير مما كتبوا شيئاً فإنهم كانوا أكثر علماً، وأصدق قلباً ولساناً وأعظم أمانة منا، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استداراً كالعلم»<sup>(٢)</sup>.

ومشكلة الرسم الاملائي المستحدث الذي يخالف الرسم العثماني في كثير من المواضع لم يقف أمامها علماء الإسلام، مكتوفي الأيدي فقد ذللوا صعوبة الرسم العثماني بل جعلوه علماً يدرس وتؤلف فيه الكتب التي تبين مسالكه وتوضح طرقه.

ومن الكتب التي ألفت في هذا الفن كتاب «المقنع في رسوم الأمصار» لأبي عمرو الداني، و«عنوان الدليل في مرسوم التنزيل» لأبي العباس المراكشي والقصيدنة الرائية الموسومة بالعقيلة للشيخ الشاطبي.

والحق الذي يقال: إن الرسم العثماني لم يسر عنى قواعد مطرده فكثير من الكلمات القرآنية رسمت في موضع برسم خاص، وفي موضع آخر برسم مخالف، وذلك مثل كلمة «لدا» فعن خلف: سمعت الكسائي يقول: «لدا الباب» كتب في يوسف بألف، واتفقت المصاحف جميعاً على ذلك، واختلفت في «لدى الحناجر» في غافر فبعض المصاحف كتبت فيها بالياء وفي بعضها بالألف.

ومن صور الاختلاف: «عما» قال أبو عمرو الداني:

(١) مفتاح السعادة ج ٢ ص ٢٢٥.

(٢) المصدر السابق والصفحة.

كل ما فى كتاب الله عز وجل «عمّا» فهو بغير نون إلا حرفاً واحداً فى الأعراف وهو قوله تعالى: «عن ما نهوا عنه» فإنه كتب بالنون.

على أية حال كانت إن الرسم العثمانى له نهجه الخاص، وطريقته المتفردة سواء كان خاضعاً لقواعد معينة أم خارجاً عنها فى بعض المواضع فهو سنة متبّعة، وبذلك وضع الأمر فى نصابه، فكل محاولة تجديد للخروج بهذا الرسم عن تقليده المعروف محاولة مردودة.

### الرسم والقراءات القرآنية؛

وإذا كان الرسم العثمانى لا يخالف، ولا يصح الخروج عن رسمه فهل هذا يعنى أن هذا الرسم تلتزمنا القراءة به، وأنه صورة للكلمات القرآنية المنطوقة، وأنه بهذا الاعتبار يحدد طريقة القراءة أو الأداء كما يحدد طريقة الرسم أو الكتابة؟ ذلك سؤال وارد يتردد فى النفس وللإجابة عنه نقول:

الحق الذى لا مرية فيه أن الرسم غير القراءة لأن القراءة مصدرها الرواية، والرسم مصدره طريقة الكتابة المعروفة إذ ذاك، وبناء على هذا أننا نقرأ الآية وننطق بكلماتها كما رويت لا كما رسمت ولو سرننا فى طريق الرسم وحده لخرجنا بالقرآن عن حقيقته التى نزل بها وترتب على ذلك أننا نقرأ كلمات من القرآن الكريم بطريقة لم ترو عن النبى عليه السلام: كما لو قرأنا اتباعاً للرسم: الصلاة والزكاة، والربا لقلنا الصلوة - الزكوة - الربو مثلاً.

ويطالعنا فى هذا المجال رأى أثاره المستشرق جولد زيهر فى كتابه: «مذاهب التفسير الإسلامى» الذى ترجمه الدكتور المرحوم عبدالحليم النجار يقول هذا المستشرق بصدد قراءات القرآن: «وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية الخط العربى الذى يقدم هيكله الموسوم بمقادير صوتية مختلفة تبعاً لاختلاف النقاط الموضوعية فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط - إلى أن يقول: «وإذاً فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط، واختلاف الحركات كانا هما السبب الأول فى نشأة حركة اختلاف القراءات فى نص لم يكن منقوفاً أصلاً أو لم تتحرر الدقة فى نقطة أو تحريكه»<sup>(١)</sup>.

(١) مذاهب التفسير الإسلامى ص ٨٠، ٩٠.

وفى رأى أن رأى هذا المستشرق جانبه الصواب فى عرض هذه المغالطة التى تتجافى عن الواقع وعن التاريخ.

أما مجافاتها عن الواقع: فإنه لو كانت القراءات ترجع إلى ما ذهب إليه لراعنا هذه الكثرة الهائلة من القراءات التى يحتملها الرسم التى لم تثبت أو ترو عن النبى ﷺ.

ذلك لأن الرسم تحتمل الكلمة فيه وبخاصة إذا لم تكن منقوطة أو مجردة من الحركات وجوها عدة من القراءات والقراءات التى بين أيدينا والتى صنفها العلماء ودققوا فى عرضها وتثبتوا من سندها قراءات معروفة، ولها مقاييس مضبوطة وكلها ترجع إلى الرواية والنقل لا إلى الكتابة والرسم.

وأما مجافاتها عن التاريخ، فإن عثمان رضى الله عنه جرد المصحف من النقط، ليحتمل رسم القراءات المروية، عن رسول الله ﷺ حتى لا يحدده فى قراءة بعينها أو حرف بعينه، وأصحاب رسول الله ﷺ اتفقوا على صنيعه عثمان فى المصحف وبذلك كانت هذه القراءات المتعددة لا ترجع إلى الرسم وإنما مرجعها الأول والأخير إلى السند والرواية.

والذى يدل على بطلان ما ذهب إليه المستشرق أنه لو كان ما ذهب إليه صحيحاً لصحت قراءة حماد الراوية: «وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أباه» بالباء الموحدة.

وهذه قراءة منكرة بالاتفاق فليست من السبع ولا الأربع عشرة ولو كان مجرد الخط كافياً لاعتمدت.

ولو صح ما ذهب إليه المستشرق لصحت القراءة التى نسبت إلى حمزة الزيات من أعدائه «ذلك الكتاب لازيت فيه» بدلا من لاريب فيه...

### الرسم واللحن:

تطالعنا كتب الرواة والمؤرخين بروايات مؤداها ان الرسم العثمانى وقع فيه لحن أى خطأ جعلت أعداء القرآن يتهمونه باللحن والخطأ.

من هذه الروايات مارواه أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه قال سألت عائشة رضى الله عنها عن لحن القرآن عن قوله: «إن هذان لساحران»<sup>(١)</sup> وعن قوله: «لكن الراسخون فى

(١) سورة طه آية ٦٣.

العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك نُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا» (١).

وعن قوله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ» المائدة/ ٦٩ فقالت: يا ابن أخي: هذا عمل الكتاب أخطئوا في الكتاب.

ورواية أخرى عن عكرمة قال: لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان رضى الله عنه فوجد فيها حروفاً من اللحن، فقال: لا تغيروها فإن العرب ستعربها بالسنتها، لو كان الكاتب من هذيل، والمملى من ثقف لم يوجد فيه هذه.

ورواية ثالثة: عن ابن الأنبارى عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ «والمقيمون الصلاة» ويقول: هو لحن من الكاتب (٢).

هذه الروايات راعتى وراعت السيوطى من قبلى، وهى روايات مشككة عصية، حتى إنه يلمس من كلامه الإنكار عليها، ولا أدل على ذلك من قوله: «كيف يظن بالصحابة أنهم يلحنون فى الكلام فضلاً عن القرآن وهم الفصحاء اللد، وكيف يظن بهم ذلك ثانياً فى القرآن الذى تلقوه عن النبى ﷺ كما أنزل، وحفظوه وضبطوه، وأتقنوه، ثم كيف يظن بهم ثالثاً، اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته.

ثم كيف يظن بهم رابعاً عدم تنبهم ورجوعهم عنه. ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ وهو مروى بالتواتر خلفاً عن سلف. ولم يكتف السيوطى بذلك بل أنكر هذه الروايات فى صراحة ووضوح حيث قال: وهذه الأمور مستحيلة عقلاً، وشرعاً وعادة» (٣).

ويعرض صاحب مفتاح السعادة حلولاً عدة لهذه المشكلات أخصها فيما يأتى:  
أولاً: ضعف السند فى حديث عثمان من ناحية، وعدم التصديق منطقياً أن عثمان رضى الله عنه بترك للناس إماماً يقتدون به ثم يترك فيه لحناً لتقييمه العرب بالسنتها من ناحية أخرى.

(١) سورة النساء آية ١٦٢.

(٢) انظر هذه النصوص فى: مفتاح السعادة ٢/ ٢٧٧-٢٧٨.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

ثانياً: قد يكون ما ذكره عثمان رضى الله عنه محمولاً على الرمز والإشارة ومواضع الحذف نحو: الكتاب بلا ألف والصبرين فى الصابرين بلا ألف.

ثالثاً: قد يكون محمولاً على مخالفة رسم الخط لأن خط المصحف خالف رسم الخط فى كثير من المواضع.

وأجابوا عن حديث عائشة فقالوا: إنه ليس فى اسناده ضعف لأن إسناده صحيح غير أنهم قالوا: إن المراد بالخطأ الخطأ فى اختيار الأولى من الأحرف السبعة لجمع الناس عليهم.

وأجابوا عن حديث سعيد بن جبير أن المراد باللحن القراءة واللغة أى أنها لغة الذى كتبها وقراءته، وفيها قراءة أخرى.

### رأى ومناقشة

وفى رأى أن الحديث الذى روى عن عثمان رضى الله عنه والإجابة عن إشكاله فيه نظر، ذلك لأننا لو سلمنا بصحة هذا الحديث لما كان هناك إشكال يستلزم هذه الإجابات المتعددة التى لا تقنع، وأيضاً لا تلزم فإن رسم المصحف فى نظرى لم يختلف عن رسم الخط المعهود فى زمنهم، لأنهم كانوا هكذا يكتبون.

وكذلك الإجابة التى تقول: إن الرسم القرآنى خالف رسم الخط فى كثير من المواضع إجابة لا تستند إلى دليل.

وكذلك الإجابة التى تقول: إن عثمان رضى الله عنه رأى فى المصحف شيئاً كتب على لسان غير لسان قريش كالتابوه والنابوت فوعد أنه سيقم على لسان قريش فإنها لا تقوم على سند أيضاً. لأن القرآن الكريم احتوى على الكثير من لغات العرب غير اللغة القرشية.

وأما إضعاف سند هذا الحديث فإنه اشتهر عن عثمان فى أكثر من رواية مما يدل على أن أصله يكون صحيحاً.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف نخرج من هذا الإشكال؟

فى رأى أن الخروج من هذا الاشكال يقوم على أن عثمان رضى الله عنه حينما قال قوله السابق فإنما أراد أن يعرف الحقيقة التى قدمها سابقاً وهى أن القراءة غير الرسم وأن القراءة مرجعها الرواية والنقل، وأن الرسم قد يختلف مع القراءة فالعبارة حيثئذ بالقراءة لا بالرسم.

ومن هنا اطلق عثمان عليها لحناً حينما رأى أن هذه الحروف تختلف عن القراءة، ولم

يهتم بها ثقة منه ان العرب حينما يقرءون لا يقرءون بالرسم وإنما يقرءون بالرواية والنقل ولا أدل على ذلك من قوله: «لو كان المملى من هذيل، والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا»<sup>(١)</sup>.

ذلك لأن النفر الثلاثة الذين املوا القرآن على زيد بن ثابت قرشيون، والقراءات التي رويت عن النبي عليه السلام لم تكن وقفاً على لغة قريش ولهذا كانت هناك قراءات غير قرشية فإذا ما كتبت بلغة قريش أدى ذلك إلى مخالفة الرسم القراءة من أجل هذا ترك عثمان رضى الله عنه المصحف على رسمه تاركا العرب يقرءون بما رووا.

وفى حديث سعيد بن جبير تأكيد لما ذهبت إليه من أن المراد باللحن القراءة واللغة أى أنها لغة الذى كتبها وقراءته وفيها قراءة أخرى وبقي من هذه الروايات المشكلة حديث عائشة.

أقول فى حل إشكال حديثها: لعل عائشة رضى الله عنها لم تكتب مصحفها على العرضة الأخيرة، فلما رأت هذه الآية مختلفة عما فى مصحفها نسبت الخطأ إلى الكاتب.

ودليلى فى هذا ما ذكره ابن أبى داود قال: «أخبرنا هشام عن زيد عن أبى يونس مولى عائشة قال: كتبت لعائشة مصحفها فقالت: إذا مررت بأية الصلاة فلا تكتبها حتى أمليها عليك قال: فأملتها على: حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وصلاة العصر ثم قالت سمعتها من رسول الله ﷺ»<sup>(٢)</sup>.

ويدل على ذلك أيضاً ما رواه ابن أبى حميد قال: «أخبرتني حميدة قالت: أوصت لنا عائشة رضى الله عنها بمتاعها فكان فى مصحفها: إن الله وملائكته يصلون على النبي والذين يصلون الصفوف الأولى»<sup>(٣)</sup>.

### المصحف العثماني والقراءات.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: هل المصحف العثماني أو المصاحف العثمانية التى أرسلت إلى الأمصار هل هى مشتتة على جميع الأحرف السبعة أى على القراءات الكثيرة المتعددة؟

وللإجابة عن هذا السؤال فإن جماهير العلماء من السلف والخلف وأئمة المسلمين يقررون أن المصاحف العثمانية مشتتة على ما يحملها رسمها من الأحرف السبعة فقط

(١) مفتاح السعادة ج ٢ ص ٢٧٧.

(٢) المصاحف ٨٤.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

وهي جامعة للمعرضة الأخيرة التي عرضها النبي عليه السلام على جبريل عليه السلام، متضمنة لها لم تترك حرفاً منها.

هل الأحرف السبعة هي القراءات السبع المنسوبة إلى سبعة قراء مشهورين؟ ليس الأمر كذلك فالقراء السبعة وهم: نافع - ابن كثير - أبو عمرو بن العلاء - عاصم بن أبي النجود - حمزة الزيات - الكسائي - ابن عامر؟.

اختار ابن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤هـ قراءتهم، واطلق على قراءاتهم: القراءات السبع، وألف في ذلك كتاباً سمي كتاب «السبعة في القراءات»، وقد حققه استاذنا الدكتور شوقي ضيف، وما نُسبَ عليه أن لا علاقة مطلقاً بين القراءات السبع التي جمعها ابن مجاهد وبين الأحرف السبعة التي ذكرت في الحديث الشريف، ولذلك قال ابن الجزري: «لا يجوز أن يكون المراد من الأحرف السبعة هؤلاء السبعة القراء المشهورين وإن كان يظن بعض الناس لأن هؤلاء السبعة لم يكونوا خُلِقوا ولا وجدوا»<sup>(١)</sup>.

هذا وقد أضاف العلماء إلى القراء السبعة ثلاثة قراء آخرين هم أبو جعفر - يعقوب - خلف، فقد كان لكل واحد منهم قراءة خاصة، وقراءتهم هي القراءات الثلاث المكملة للعشر - وهذه القراءات الثلاث دار حولها الجدل هل هي متواترة كالقراءات السبع أو ليست متواترة وقد وصل العلماء في مجالها إلى أنها قريبة من التواتر وإن لم تكن متواترة، وقد أُلّف في هذه القراءات العشر الإمام الجزري كتاباً سماه: «النشر في القراءات العشر» وهو مطبوع ميسر.

وهناك قراءات أربع زيدت على القراءات العشر، وهي: قراءة ابن محيصة - واليزبدي - والحسن البصري - والأعمش. وقد أُلّف في هذه القراءات الأربع عشرة الأمام الدمياطي كتاباً سماه: «إنحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر».

وقد بين الدمياطي في مقدمة كتابه النسب الذي حدا به لجمع قراءات هؤلاء القراء الأربعة الزائدين عن العشرة فيقول: وإنما نسبت القراءات اليهم لتصدّيقهم لضبط الحروف، وحفظ شيوخه فيهم، ومع كل واحد منهم في طبقته ما يبلغها عدد التواتر، وما عدا هذه

(١) الشرح ١ ص ٢٤.

القراءات الأربع عشرة يعتبر شاذاً، والشذوذ جاء من جهة الانحراف عن أركان أو مقاييس القراءة الصحيحة وهي مقاييس قد وضعها العلماء فى وقت مبكر لخصها ابن الجزرى بقوله:

«كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت احد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها فهى القراءة الصحيحة التى لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها بل هى من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن الكريم سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن السبعة ام عن من هو أكبر منهم. هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف إلى الخلف»<sup>(١)</sup>.

وبعد، فلعلنى بهذا قد أكون استوعبت الخطوط العريضة التى رسمتها لهذا البحث، وأقول عريضة لأن هناك تحليلات لقضايا متعددة تبرز من داخل هذه الخطوط، وتلح على الباحث أن يتناولها ولكن مساحة البحث لا تسمح، ومن أراد المزيد من هذه القضايا ففى مقدمة معجم القراءات الكثير منها وفيه الإجابة عن معظم التساولات.

\*\*\*

---

(١) النثر ج ١ ص ٩.

## ١٣. أثر القرآن الكريم فى تطور اللغة العربية (\*) ونشرها بين المسلمين

اللغة العربية حولها القرآن الكريم إلى لغة فنية شابة ليس لها طفولة ولا شيخوخة لارتباطها به، فالماضى والحاضر والمستقبل بالنسبة لها حلقة مفرغة، لا يدري أين طرفاها؟ والقرآن الكريم منهج وإصلاح، وأخلاق وقيم، ودستور وتشريع فهى لسانه فى كل هذه الميادين.

والمسلمون الذين امتزجت قلوبهم وعقولهم بالقرآن الكريم، كما يمتزج الماء بالعود الأخضر أمة واحدة، جنسيتها الإسلام، وقد عبّر عن هذا المعنى شاعرهم العربى القديم حينما قال:

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقبس أو تميم

ونسيج الإسلام هو اللغة العربية التى بلغت جزالتها فى اللفظ، وفخامتها فى المعنى وقدرتها على التعبير، وروعيتها فى التصوير لأن تستقبل القرآن الكريم بجلال بيانه وروعة أساليبه، وسمو معانيه، وإشراق ألفاظه.

وواجهها القرآن الكريم بالتحدى، فسقط فى يدها، واستسلمت لهذه القوة البلاغية القرآنية، ووضعت نفسها فى حقل القرآن الكريم لتنتب بأذن ربها نباتًا حسنًا يؤتى أكله فى كل زمن، وفى كل عصر، وفى كل جيل بفضل القرآن الكريم الذى نمت تحت ظلاله، وأشرقت فى ضوء شمسهِ المشرقة.

إن القرآن الكريم منذ نزوله بلهجة قريش جعل هذه اللهجة تفرض سلطانها على جميع اللهجات العربية الأخرى، فقد توارت هذه اللهجات لتدين بالولاء والانقياد إلى اللغة الأدبية النموذجية المتمثلة فى لهجة قريش التى نزل بها معظم القرآن الكريم.

(\*) بحث ألقى فى مؤتمر نشر اللغة العربية فى العالم الإسلامى بكراتشى - باكستان فى إبريل ١٩٨٨ م.

وعمل القرآن الكريم على تهذيب اللغة العربية، وبهذا التهذيب تطورت اللغة العربية في الأغراض والمعاني والألفاظ.

فمن ناحية التطور في الأغراض فقد عولجت باللغة العربية أمور لم تكن تعنى بعلاجها من قبل، وذلك كمسائل القوانين، والتشريع، والقصاص، والتاريخ، والعقائد الدينية، والإصلاح الاجتماعي.

ومن ناحية التطور في المعاني، والأخيلة والأساليب، فقد استطاعت اللغة العربية أن توضح المعاني الدقيقة التي تحتاج إلى اللفظ المعبر، والكلمة الدالة، وقد تشابكت صور الخيال، ودنت قطف المعاني، وكثرت التشبيهات التي توضح ماخفي من التراكيب، وما غمض من الأساليب.

ومن ناحية التطور في الألفاظ فقد تجردت بعض الألفاظ من معانيها القديمة وأصبحت تدل على معايير جديدة، تتعلق بالعبادات أو المعاملات أو التشريعات أو الشئون السياسية، والإدارة والحرب مثل: الصلاة - الصوم - الزكاة - الحج - الخليفة - الإمام - الوالي الكاتب - الشرطة - الوظيفة... إلخ.

وللمحافظة على القرآن الكريم نشأت علوم قرآنية تطورت في ضوئها اللغة تطوراً كبيراً. وأول هذه العلوم القرآنية التي نشأت في وقت مبكر هو علم النحو العربي الذي كان السبب المباشر في نشأته هو اللحن الوافد إلى اللغة العربية بسبب اختلاط المسلمين غير العرب بالمسلمين العرب. وقد تمت هذه النشأة على يد أبي الأسود الدؤلي الذي قام بعملين عظيمين في مجال المحافظة على القرآن الكريم من ناحية، ووضع قوانين لتراكيب اللغة العربية من ناحية أخرى.

أما العمل الأول فيتمثل في تنقيط المصحف تنقيط اعراب، لأن المصحف لم يكن مضبوطاً ضبطاً إعرابياً قبل أبي الأسود.

وأما العمل الثاني فهو وضع الجذور الأولى لنشأة النحو العربي، وقد تفرعت هذه الجذور وآتت أكلها على يد سيويه المسلم الذي تنتمي جذوره إلى غير العرب، والذي أصبح بكتابه العملاق أستاذ المسلمين جميعاً في علم النحو عرباً أو غير عرب.

وأما العلوم الإسلامية الأخرى التي نشأت في ظلال القرآن الكريم، كالأصول، والفقه،

والقراءات والحديث، والجدل، والفلسفة فقد أشار إليها ابن خلدون في مقدمته مبيناً أهداف كل علم، ومحللا الكثير من قضايا هذه العلوم.

ولم تقف علوم القرآن عند العلوم الدينية فقط، فهناك علوم تتعلق بالإنسان من حديث تكوينه وطبيعته، وصحته ومرضه، ومعاشه، ومن حيث الأرض التي يعيش عليها من جبال وأنهار، وبحار ومحيطات وحيوان ونبات، ومن حيث السماء التي يحيا تحتها من نجوم وكواكب وشموس وأقمار.

هذه العلوم المادية التي ازدهر الغرب على أساسها، وتقدم في مضمار الحضارة بفضلها لم يقف القرآن الكريم عقبة أمامها، بل دعا إليها، وحث على السير في طريقها، والعمل في ميدانها.

والناظر إلى كتاب: «معترك القرآن في إعجاز القرآن» للإمام جلال الدين السيوطي يرى أنه أشار إلى هذه العلوم المادية في القرآن. بل وعدد الكثير منها في ضوء الآيات القرآنية التي أتى بها ليستدل على ما يقول.

وفي عهد عمر رضى الله عنه دونت الدواوين، ولم يكن للعرب بها عهد، وباختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم اقتبسوا كثيرا من علومهم وصنائعهم، ولم يجدوا غضاضة في ذلك بل رأوا أن تعلم علوم العصر واجب لامفر من القيام به من أجل خدمة الإنسان، وتحقيق ما يسعى إليه من سعادة في ظلال الإيمان.

والكلمة الفاصلة في هذه القضية كلمة على - كرم الله وجهه - حتما قال: «العلم ضالة المؤمن فخذوه ولو من أيدي المشركين».

وهذه الجذور الأولى في شجرة العلم نمت وترعرعت، وأينعت وأثمرت وآتت أكلها حينما اتجه المسلمون لترجمة علوم غيرهم من الأمم ذات الحضارة والتقدم العلمي إلى اللغة العربية.

ويإيجاز نقول: إن المسلمين الذين ترجموا هذه العلوم إلى لغة القرآن الكريم جلسوا على قمم العلم، وذرى المعرفة في مدة قصيرة كونوا فيها هذه الحضارة الإسلامية العظيمة التي انطلقت من مسيرة القرآن الكريم تُقدم للإنسانية في الشرق والغرب زادا لا ينفد من العلم النافع في الدين والدنيا.

وقد لفتت هذه الحركة العلمية العظيمة رجال الفكر من غير المسلمين ليشيدوا بها، ويرفعوا من شأنها، ويعلموا من قدرها، لأنها حركة مليئة بالإعجاب والتقدير.

إن نظرة واحدة إلى هذه الحركة العلمية التي قام بها المسلمون على أساس قرآنهم الذي يدعو إلى العلم، ويحث عليه تؤكد ما نهدف إليه من هذا البحث، وهو أن هذه الحركة أدت إلى ازدهار اللغة العربية من ناحية، وعملت على نشرها من ناحية أخرى ولا عجب في ذلك، فإن الإنسان يفكر عن طريق لغته، فالفكر واللغة عنصران امتزج أحدهما بالآخر.

وحينما اختلط العرب بغيرهم من الأمم والشعوب التي فتحوها احتكت اللغة العربية بلغات هذه الأمم، وأدى هذا الاحتكاك إلى صراع عنيف بين لغة الغالب، ولغة المغلوب.

وقد استطاعت اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم أن تنتصر في صراعتها، لأنها تملك باسم القرآن الكريم رصيداً ضخماً من الألفاظ وتراكيب محكمة من الأساليب، وصوراً رائعة من البيان، وتعبيرات مشرفة من بلاغة المعاني.

«اشتبكت في صراع لغوى مع اللغات الآرامية في سوريا ولبنان، والعراق ومع القبطية في مصر، ومع البربرية في شمال أفريقيا ومع الفارسية في إيران ومع التركية في بلاد المغول، ومع القوطية في أسبانيا.

وقضت قوانين الصراع اللغوى أن تصرع اللغة العربية اللغات الثلاث الأولى حتى أصبحت المساحة التي تستخدم فيها اللغة العربية لغة حديث وكتابة نحو أربعة عشر مليون كيلو متر مربع، وبلغ عدد المتكلمين بها زهاء مائة مليون»<sup>(١)</sup>.

وبفضل هذا الاحتكام أو الصراع اللغوى تطورت اللغة العربية في ظلال القرآن الكريم تطوراً آخر فقد دخلت مفردات كثيرة إلى ساحة اللغة العربية عن طريق التعريب والوضع والاشتقاق والقياس، وهذا التطور ضرورة أدى إليها استيعاب الجديد من الأفكار، والمصطلحات العلمية، والعلوم المادية.

### عوامل انتشار اللغة العربية في العالم الإسلامي.

بعد هذا الحديث الموجز جداً عن تطور اللغة العربية في ظلال القرآن الكريم يجمل بنا

(١) انظر فقه اللغة للدكتور على عبدالواحد وافي / ١٢٤ / ١٢٥٠.

أن نعطي إلمامة موجزة أخرى عن العوامل التي أدت إلى انتشار اللغة العربية في العالم الإسلامي .

من هذه العوامل:

١ - وجوب تعلم اللغة العربية، فعلى كل مسلم أن يتعلم من القرآن ما تصح به الصلاة وما يعرف به أحكام الإسلام من حلال وحرام، ولن يتيسر ذلك عن طريق الترجمة، لأن القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربى مبين لا يمكن أن تستوعب معانيه أية لغة أخرى من لغات العالم مهما كان مستواها اللغوى، إنها تعجز عن التعبير فى مجال المعانى الدقيقة، والتشبيهات الرائعة ، والتصورات البليغة والإشارات البارعة، وما يموج من خفايا المعانى فى بريق الألفاظ، وتناسق الكلمات وروابط الجمل .

وقد عبر عن عجز هذه اللغات لترجمة معانى القرآن ابن فارس حيث يقول: «ولو أراد معبر بالأعجمية أن يعبر عن الغنيمة، واليقين، والشك ، والظاهر والباطن، والحق والباطل، والمبين والمشكل، والاعتزاز والاستسلام لعى به، والله جل ثناؤه «أعلم حيث يجمل الفضل» (الصاحي/١٩).

**ويقول فى موضع آخر:**

«وقد قال بعض علمائنا حين ذكر للعرب من الاستعارة والتمثيل والقلب، والتقديم والتأخير وغيرها من سنن العرب فى القرآن فقال: «ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شىء من الألسنة، كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة وسائر كتب الله عزوجل بالعربية لأن المعجم لم تتسع فى المجاز اتساع لغة العرب» .  
وفى مجال وجوب تعلم اللغة العربية على كل مسلم أشار إليه الإمام الشافعى فى رسالته حيث يقول:

«يجب تعلم العربية على كل مسلم حتى يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويتلو كتاب الله، ويتعلق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمره من التسبيح والتشهد وغير ذلك» .

ولقد أحس المسلمون بما للغة العربية من أثر كبير فى تصحيح عقيدتهم ، وفهم إسلامهم

واستيعاب أحكام دينهم فأقبلوا على تعلمها، فصار منهم العلماء الأفاضل أمثال سيويه الذى لحن فى مجلس استاذة حماد فى كلمة لغوية فى حديث شريف فكسّر قلمه وقال: لا اكتب شيئا حتى أحكم العربية.

وأمثال الزمخشري الذى ذكر فى مقدمة كتابه: «المفصل» مانصه: «الله أحمد أن جعلنى من علماء العربية، وجبلى على الغضب للعرب والعصية».

ومن أمثال البيرونى الذى يقول: «لأن أهجى بالعربية خير لى من أن أمدح بالفارسية».

٢ - ومن عوامل انتشار اللغة العربية: تعريب البلاد المفتوحة عن طريق التعليم، والدعوة والإرشاد فكان فى كل جيش فاتح فئة تنتظم فى سلكه من الدعاة والمعلمين المثقفين فى الدين ومن الأمثلة على ذلك جيش عمرو بن العاص فاتح مصر فقد ضم هذا الجيش فئة من كبار الصحابة أمثال عبدالله بن عمرو بن العاص الذى كانت له حلقة فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، وقد أفاد منه الطلاب المصريون حتى أحدثوا حركة فكرية دينية لغوية كان لها أكبر الأثر فى انتشار اللغة العربية.

ومما يؤيد ذلك أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز جعل الفتيا فى مصر إلى ثلاثة رجال: رجلا من الموالى العجم، ورجل من العرب، فأما العربى فجعفر بن ربيعة، وأما المولىان فيزيد بن حبيب، وعبدالله بن أبى جعفر، وأظهر بعض العرب إنكارهم ذلك، فقال عمر بن عبدالعزيز قولته المشهورة:

«ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لاتسمون»؟

٣ - ومن العوامل هجرة بعض القبائل إلى الأقاليم الإسلامية المفتوحة، ولا أدل على ذلك من هجرة بنى هلال إلى المغرب، ومع أن العرب فتحوا المغرب فى وقت مبكر إلا أن العرب كما يقول ابن خلدون: «لم يكن المغرب لهم فى الأيام السابقة وطن، وإنما انتقل إليه فى أواسط المائة الخامسة أفريق من بنى هلال وسليم، واختلطوا بالدول هناك».

وفى فارس هاجرت بعض القبائل العربية إلى الدول الفارسية من: «عبد القيس كانت تقيم فى منطقة ساحل عمان عن طريق الخليج، واستقرت بعض هذه القبائل على الساحل، وتوغل بعضها فى الداخل، وظلوا هناك عدة فروع حتى العصر المغولى».

#### ٤ - التعريب عن طريق التجارة:

إن التاجر العربي المسلم كانت التجارة بالنسبة له هدفا ثانويا أما هدفه الأكبر فهو نشر الإسلام، وتثبيت العقيدة، وفي انتشار الإسلام انتشار للغة العربية وذلك لأن العقيدة الشاملة كما يقول العقاد: «تجعل المسلم وحدة كاملة في نشر العقيدة الإسلامية، فقد أسلم عشرات الملايين في الصحارى الأفريقية على يد تاجر فرد أو صاحب طريقة منفرد في خلوته، لا يعتصم بسُلطان هيكل ولا بمراسيم كهانة، وتصنع هنا قدرة الفرد الواحد ما لم تصنعه جموع التبشير ولاسطوة الفتح والغلبة، فجملة من أسلموا في البلاد التي انتصرت فيها الجيوش الإسلامية هم الآن أربعون أو خمسون مليوناً بين الهلال والخضيب، وشواطئ البحرين الأبيض والأحمر.

«فأما الذين أسلموا بالقدوة الفردية الصالحة فهم فوق المائتين من الملايين».

٥ - والإسلام لم يقف انتشاره عند القارتين الأفريقية والآسيوية، بل تعدى ذلك إلى انتشاره في أوروبا، وبانتشاره انتشرت اللغة العربية معه.

ففي عهد عبدالرحمن الناصر كانت أكثر القواعد البحرية في أسبانيا على طول الساحل الشرقى بين طرطوشة، وبلنسية، وكانت لشبونة هي قاعدة الأسطول الأندلسى على المحيط الأطلسى .

وفي عهد عبدالرحمن الغافقى دخلت الجيوش الإسلامية إلى فرنسا، وتوغلت حتى وصلت «بواتيه» فالتقت بجيش «شارل مارتل» في معركة مشهورة في التاريخ هي معركة «بلاط الشهداء».

وتعتبر هذه المعركة من المعارك الفاصلة ولذلك يقول المؤرخ المشهور جيبون (Gibbon):  
«لو انتصر العرب في بواتيه «لتلى القرآن وفسر في أكسفورد» و«كمبردج».

ومع هزيمة العرب في هذه المعركة فإن اللغة العربية أثرت في اللغة الفرنسية تأثيراً كبيراً فكما يقول المؤرخ محمد كرد على في كتابه: الإسلام والحضارة العربية مانصه: «في ذلك العهد انتقلت إلى الغرب عادة استعمال الأرقام العربية، والكسور العشرية، وجاءت

التعابير النادرة إلى اللغة الفرنسية من اللغة العربية أكثر من اللاتينية» إلى أن يقول : «أخذ الفرنجة نحو تسعمائة كلمة من العربية وأدخلوها في معاجمهم واستعمالهم».

هذه مجمل العوامل في انتشار اللغة العربية في العالم الإسلامي في قرونه الأولى.

أما اللغة العربية في عالمنا المعاصر فنجمل الحديث عنها فيما يلي:

### اللغة العربية في العالم الإسلامي المعاصر:

بلى العالم في عصرنا الحاضر بالاستعمار سواء كان غربياً أو شرقياً استطاع الاستعمار بشراسته أن يمزق جسم العالم الإسلامي من الناحية السياسية إلى أجزاء متفرقة.

ومن الناحية الفكرية أشاع فيها روح الهزيمة العقلية، وقضى على روح الاعتزاز بالشخصية الإسلامية ليتيح للمبشرين أن يعثوا بقيم الأمة الإسلامية، وقد تمثل ذلك في الأمور التالية:

١ - تشجيع الإلحاد باسم حرية الفكر وباسم التطور والتجديد.

٢ - تشجيع الحكومات الإسلامية التي تخضع لسلطان المستعمر لإرسال بعثات إلى أوروبا وروسيا لينهلوا من موارد الغرب والشرق، ثم يعودوا إلى بلادهم، وقد انسلخوا من جلودهم ليحملوا معاول هدم التراث، لأنه في نظرهم سبب التخلف.

٣- مهاجمة الإسلام في قضاياها الفكرية والدينية ومحاولة تشويهه باسم النظريات الفلسفية والمذاهب الرأسمالية والشيوعية، والاشتراكية.

٤ - إثارة العصبية الجاهلية بين الشعوب الإسلامية ليحارب بعضهم بعضاً باسم القومية وعلى أساس الجنسية، ومن منطلق العصبية.

٥ - فتح مدارس متعددة للتبشير في أنحاء العالم الإسلامي.

٦ - محاربة اللغة العربية، واتخذت هذه المحاربة ألواناً متعددة، فالحديث بها تخلف والكتابة بها تأخر، وأنها ليست لغة علم، ومجالها وصف الناقة والفرس، وأن العلوم الحديثة بينها وبين اللغة العربية حواجز، وأن اللهجات المحلية هي اللهجات التي يجب أن تسود، لأنها لغة الحياة، وليست لغة حذاء الأبل والوقوف على الأطلال كما هو الحال في اللغة الفصحى.

وما زالت حتى هذه اللحظة المعركة على أشدها بين لغة القرآن، واللغات المحلية والأجنبية في العالم الإسلامي. وما هذا انوعمر إلا ثمرة من ثمار هذا الصراع الذي جعل من أهم أهدافه انتصار لغة القرآن الكريم على كل اللغات المنتشرة في بلاد الإسلام.

على أية حال كانت، فإن لغة القرآن الكريم إزاء هذه الحملات الضارية لم تستلم ولم ترفع راية الاستسلام، وخرجت من هذه المعارك عزيزة الجانب، قوية السلطان، ولذلك أسباب نجلها فيما يلي:

### ١- تزييف دعاوى المفرضين الداعية إلى هدم اللغة الفصحى؛

وذلك لأن حملة الأقلام المتعصبة للإسلام جردوا أقلامهم للدفاع عن لغة القرآن الكريم، وعلى رأس هؤلاء عبدالله النديم الذي كتب في مجلة: «التنكيث والتبكيث» حوارا ساخنا بين ابن البلد، وعربي متفرد في العدد الأول من هذه المجلة، وتالت مقالاته ليحرس بناء اللغة العربية من هذا الهجوم الشرس، وما ورد في مقال من مقالاته: «أسمعك تقول: إذا فقدت لغتي استعضت عنها بأخرى، استعضت عنها ولكن بما أضاع منك الوطنية، والمعتقدات الدينية فتيبت وأنت وطني حر، وتصبح وأنت في يد أجنبي، بصرفك كيف يشاء، لأن إضاعة اللغة تسليم للذات».

وشارك النديم رجال وقفوا أنفسهم على الدفاع عن لغة الضاد، أمثال مصطفى صادق الرافعي، وعبد الرحمن البرقوقي، وعبد الوهاب عزام، ومنصور فهمي، وأحمد أمين، وطه حسين.

### ٢- وضع أسس مرسومة ومخططة للإصلاح اللغوي؛ ومن هذه الأسس:

أ- التزام الوضوح واليسر في استخدام ألفاظها، والتقريب بينها وبين مدارك الناس ومألوف تعبيرهم.

ب- العمل على تنمية قاموسها، وتحسين طرائق تعليمها، وربطها بحياة العصر الحديث وحضارته.

ج- إنشاء المجامع اللغوية في مصر والعراق والشام والأردن للنهوض باللغة العربية وتعريب المصطلحات العلمية، ووضع المعاجم الحديثة لها.

وبهذا أصبحت اللغة العربية حيةً فنيةً على الرغم مما يعترض طريقها من أشواك وصخور.

وقبل أن أنهى هذه الكلمة الموجزة أحب أن أضع النقاط الآتية في طريق نشر اللغة العربية بين البلاد الإسلامية غير العربية:

**أولاً:** إيجاد هيئات تدريسية لتدريس اللغة في البلاد الإسلامية من أبناء البلاد العربية أو أبناء البلاد الإسلامية الذين استوعبوا اللغة العربية كأبنائها على أن ترصد ميزانيات ضخمة من البلاد العربية الغنية لهذه الهيئات، وعلى أن تكون هناك أسس منهجية مدروسة ومخططة من المختصين في هذا المجال من أجل نشر اللغة العربية.

ومما يدعو إلى الأسف والحزن أن الأتراك الذين حكموا العالم الإسلامي طوال ستة قرون لم يتأثروا بلغة العرب، لأن العرب لم يبذلوا جهداً في نشرها، إن الإسلام دخل البلقان، ولم تدخله اللغة، وإن جنوب آسيا وشرقها كذلك، والأمل كبير في عصر التكتلات أن يتكفل العالم الإسلامي العربي وغير العربي تحت راية واحدة وهي راية القرآن. ولغة واحدة هي لغة القرآن.

**ثانياً:** جعل اللغة العربية في البلاد الإسلامية غير العربية لغة ثانية، فاللغة الإنجليزية ليست أكثر مستوى، وأعظم حضارة من اللغة العربية، ومع ذلك فاللغة الإنجليزية أصبحت اللغة السائدة في جميع البلاد الإسلامية حديثاً وكتابة، علماً وثقافة.

**ثالثاً:** ترجمة العلوم الحديثة إلى اللغة العربية وتدريسها بالعربية.

ولا شك أن التعامل باللغة العربية، في مجال الحديث و«التقدم التكنولوجي» يفرس في نفوس المتعلمين حبهام للعربية، ويملاً نفوسهم ثقة بأن لغة القرآن الكريم ليست عاجزة لاستقبال هذا التقدم العلمي، بمصطلحاته وفنونه.

**رابعاً:** استغلال وسائل الإذاعة والتلفزيون في نشر اللغة العربية بواسطة برامج مخصصة لتعلمها عن طريق العرض الحسن والتبسيط الجميل، ومن خلال نماذج النصوص القرآنية، والأحاديث الشريفة، والنصوص الأدبية «التي تهدف إلى غرس القيم الإسلامية» والفضائل الدينية.

خامساً: وضع دروس مُبرجمة على أشرطة تسجيلية، ونشر هذه الأشرطة بوسائل مختلفة بين صفوف المسلمين من أجل أن يتقنوا لغة القرآن الكريم التي يتعاملون بها فى صلواتهم وأدعيتهم.

سادساً: إيفاد مجموعات من الطلاب من أنحاء الوطن الإسلامى إلى البلاد العربية لتعلم اللغة العربية فى المعاهد المتخصصة ليعود هؤلاء الطلاب إلى بلادهم لينشروا بدورهم اللغة العربية.

سابعاً: تأليف كتب تعليمية تحتوى على دروس متدرجة لدراسة اللغة العربية، وفهمها والتعبير بها حديثاً وكتابة.

ثامناً: الإكثار من انتشار المساجد لتقوم بدورها فى نشر الثقافة الإسلامية، لأن المسجد فى الإسلام دار عبادة، ودار علم، ودار تعليم.

تاسعاً: وضع منهج تعليمى بالمواصفات التالية:

أ- التجربة هى العماد الأول لعملية تعليم اللغة العربية بمعنى أن يكون هناك منهج مرسوم قائم على التجربة.

ب- تبسيط قواعد اللغة العربية:

ومن التبسيط ألا تدرس قواعد اللغة العربية فى الكتب التراثية القديمة لأنها مملوءة بالعلل والمنطق والفلسفة، وهذه الكتب فقط للمتوغلين فى التخصص اللغوى، وإنما تدرس فى ظلال التيسير، والتجريد من العلل والفلسفة.

ج- الاهتمام بالتدريبات اللغوية، وإعطاء القدر الكافى من الرعاية، ولا قيمة لحفظ القاعدة ما لم تستعمل.

د- التعاون بين فروع اللغة العربية، فليست هناك حواجز بين فروع اللغة العربية المختلفة، لأن كل الفروع تدور حول محور واحد هو تعليم اللغة العربية.

هـ- عدم السماح للهجات المحلية، واللغات الأجنبية أن تتدخل فى تدريس تعليم اللغة العربية.

و- إتاحة الفرص أمام الطلاب في جمعيات ثقافية مختلفة ليعبروا عن أفكارهم أو يطرحوا قضاياهم في لغة فصیحة سليمة.

ز- الجمعيات التي تشرف على نشر اللغة العربية في الأوطان الإسلامية عليها أن تتعامل باللغة العربية في كل مكاتباتها، ورسائلها، ونشراتها، لأنه بهذا التعامل يرسخ في نفوس المتعلمين حبّ اللغة العربية. وهذه المكاتبات تعتبر وسيلة من وسائل نشر اللغة العربية. وهو هدف من أهم أهداف هذه الجمعيات، وبعد.

فهذه مقترحات بدت لي أثناء كتابتي هذا البحث، وهي وجهة نظر تمثلت لي من خلال دراستي لقواعد اللغة العربية وتدریسها في المراحل التعليمية المختلفة.

على أية حال كانت، فإن اللغة العربية ارتبطت بالقرآن الكريم، وهذا الارتباط أتاح لها فرصاً طيبة في أن تنمو وتتطور، وتشق طريقها إلى المستقبل، وهي ثابتة الخطأ، رابطة الجأش.

تصدّت لها عواصف اللغة العامية، ولهجات السوق، ومحاربة المستعمرین ودعاة الهدم باسم التطور والتجديد، وخرجت من هذه المعارك في طريقها الطويل منتصرة عزيزة.

وأختم بحثي هذا بقصة لطيفة خيالية كتبها «جول فرن» أشاد فيها بلغة القرآن الكريم ذلك لأنه بنى قصته الخيالية على سباح يخترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا أو يدنوا من وسطها.

ولما أرادوا العودة إلى ظاهر الأرض بدا لهم أن يتركوا هنالك أثراً يدل على رحلتهم فتقشوا على الصخر كتابة باللغة العربية. ولما سئل «جون فرن» عن وجه اختياره للغة العربية قال: إنها لغة المستقبل، ولا شك أنه يموت غيرها، وتبقى حية حتى يرتفع القرآن نفسه».

\*\*\*

## ١٤. حول نسبة كتاب الحجّة في القراءات السبع (\*)

### لابن خالويه - نقد النقد.

تفضل الأستاذ الكريم محمد العابد الفاسي، الأستاذ بجامعة القرويين بالمغرب بنشر بحث قيم في مجلة «اللسان العربي»، المجلد الثامن، الجزء الأول ص ٥٢١، يتقد فيه توثيقى لكتاب الحجّة، ونسبته إلى ابن خالويه، وقد نشر بحثى فى المجلة نفسها، والجزء نفسه ص ٥٠٢.

وقد أسعدنى هذا التقد، لأن الحقيقة بنت البحث كما يقولون. وقد اقتصر نقده على الفصل الذى كتبه، وأثبت فيه نسبة الكتاب إلى ابن خالويه.

وإنى لا أضيّق ذرعاً بالتقد البساء، فاحتكاك الأفكار بعضها ببعض ينمى العلم، ويطور المعرفة، ويبعث فى الفكر الحركة والحياة.

وكنت أودّ أن أبارك هذه الأدلة التى أوردتها الناقد الفاضل لى نسبة الحجّة إلى ابن خالويه، وأضع يدي فى يده مسلماً له بكلّ ما قال، ولكن الحقيقة التى دفعته إلى أن يكتب هذا النقد هى الحقيقة نفسها التى دفعتنى إلى أن أنقد هذه التقد، لأنه قائم على أدلة لم تقتنع بها نفسى، وأنا طالب معرفة، فإذا اقتنعت آمنت وسلّمت، وإذا لم اقتنع لا ألوذ بالصمت أو بالصبر فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس.

علّى إذن أن أبيّن السبب فى عدم اقتناعى من غير أن أسمح للحظوظ النفسية أن تتدخل فى هذه المناقشة، لأن الحقيقة العلمية أكبر منى، ومن أخى الأستاذ العابد.

وقبل مناقشة أدلة سيادته أحب أن أشير هنا إلى أن بعض المعاصرين الذين شكوا فى نسبة هذا الكتاب إلى ابن خالويه فريق من أصدقائى ناقشونى مشافهة فى هذه النسبة، وكل أدلتهم تنحصر فى أن كتب الطبقات لم تشر إلى ذلك، ولم يقدم لنا هؤلاء الزملاء دراسة مفصلة

---

(\*) نشر فى مجلة - اللسان العربى - المجلد التاسع - الجزء الأول ص/ ٣٤٥ - تصدر عن مكتب النيق والتعريب فى الوطن العربى - الرباط - جامعة الدولة العربية.

منشورة في نفي هذه النسبة، وليست هناك دراسة لابن خالويه، وكتابه الحجة تضمّمها المكتبة العربية في الشرق أو في الغرب غير الدراسة التي قمت بها، وغير هذا التعليق الذي تفضل به الأخ الأستاذ العابد على هذه الدراسة.

وأما الأدلة التي ذكرها الأستاذ العابد ليناقض بها أدلتي، فإنني أنقدها على الوجه التالي:

(١) ذكرتُ أنّ تلميذة ابن خالويه لابن مُجاهد فرّضت عليه أن يحيا في الدراسات القرآنية، ويتمكن منها، ويلم بالقراءات، ويدافع عنها، وأنه ألف الحجة في القراءات السبع لينافس به كتاب الحجة الذي ألفه أبو عليّ الفارسيّ، وأنّ عدمَ ذِكرِ الحجة لابن خالويه في كتب الطبقات يرجع إلى أنّ الكتاب في القراءات، فاستغنوا بذكرها عن كلمة الحجة.

ولكن هذا الدليل لم يقنع الأستاذ العابد «لأن كونه من تلامذة ابن مجاهد وكونه برع في الدراسات القرآنية، وألف فيها كتباً لا يكفي ذلك دليلاً على إثبات نسبة كتاب الحجة له، وأما كونه ليس بدعا أن يؤلف في الموضوع كما فعل معا صروه أبو عليّ وغيره فصحيح، ولكن المسألة مسألة إثبات لا مسألة احتمال وتخمين..».

أقول:

إن تلميذة ابن خالويه لابن مجاهد، وبراعة ابن خالويه في الدراسات القرآنية حيث ألف كتباً في هذا المجال نصّت عليها كتب الطبقات ككتاب: إعراب ثلاثين سورة، والبديع في القراءات، ومختصر شواذّ القراءات، وكتاب مُجدول في القراءات ألفه لعضد الدولة، أقول: إن هذا كله يشير إلى أن كتاب الحجة موضع القضية نسبتة إلى ابن خالويه صحيحة.

وقد قلت في بحثي المنشور في مجلة «اللسان العربي» بصدد عدم ذكر هذه التسمية في كتب الطبقات: إن شهرة كتاب الحجة للفارسيّ غطّت على شهرة الحجة لابن خالويه حيث اشتغل الناس به قراءة وتلخيصاً كما فعل أبو محمد مكّي بن أبي طالب في كتابه: المنتخب في اختصار كتاب الحجة للفارسيّ وغيره.

ومن الجليّ أن أصحاب كتب الطبقات، وابن خالويه نفسه أشاروا إلى أن له كتاباً في القراءات، فأين ذهب هذا الكتاب؟ لا يمكن أن يكون كتاب القراءات المصور بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية رقم ٥٢ قراءات، لأن منهج ابن خالويه فيه يقوم على الاستطراد

والإطناب، إذ يتحدث عن تفسير الآيات، وأسباب نزولها، ويحشد قصصاً متعددة في مناسبات مختلفة، وليست القراءات فيها. والاحتجاج بها إلا جزءاً يسيراً من هذا المنهج، فكتابه في حقيقة أمره كتاب تفسير لا قراءات، شأنه شأن كتب التفسير التي تتعرض لهذه الأغراض جميعاً، وقد نسخ هذا الكتاب المصور سنة ٦٠٠هـ بخطوط مختلفة آخرها خط صديق بن عرين محمد بن الحسين (١).

على أننا نجد كتاب الحجة موضوع الحديث نسخ بخط واحد سنة ٤٩٦هـ وهو موقوف على القراءات وحدها، والاحتجاج لها.

إن الذي يطمئن إليه القلب، ويرتضيه العقل أن كتاب القراءات المنسوب إلى ابن خالويه في كتب الطبقات هو كتاب الحجة نفسه، لأنه لا يعقل أن يكرر ابن خالويه ما كتبه أستاذه ابن مجاهد في القراءات، لأن ابن مجاهد كل عمله في القراءات أنه انتخب من القراءات الكثيرة هذه القراءات السبع، وليس فيه الاحتجاج النحوي أو اللغوي لهذه القراءات، على حين يطالعنا كتاب الحجة لابن خالويه بالتوجيه لكل قراءة، والاحتجاج لها في مجال النحو واللغة وكذلك فعل أبو علي الفارسي في حجته، اعتمد على هذه القراءات السبع التي جمعها أستاذه ابن مجاهد، واحتج لها في ميدان النحو واللغة.

يقول الفارسي في مقدمته: «فإن هذا كتاب تذكر فيه وجوه قراءات القراء الذين ثبتت قراءاتهم في كتاب أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد» (٢)، فأبو علي الفارسي كما يبدو في مقدمته، لم يرد أن يكون كتابه نسخة مكررة من كتاب أستاذه ابن مجاهد، بل كان عمله التوجيه والاحتجاج. إذا كان الأمر كذلك فهل يُعقل في باب المنطق أن يأتي معاصر لأبي علي كانت بينهما منافسات علمية خطيرة أشرت إليها في بحثي المنشور في مجلة «اللسان العربي» - ليؤلف في القراءات وتكون مهمته تكرار كتاب أستاذه؟

إن العصر الذي ضم هؤلاء الأعلام كان عصر احتجاج للقراءات التي ثبتت عن ابن مجاهد، ولم يكن الأمر مقصوراً على أبي علي الفارسي فقد شاركه في ذلك محمد بن الحسن الأنصاري المتوفى ٣٥١ حيث ألف كتاب السبعة بعلمها الكبير، وكتاب السبعة

(١) فهرس مخطوطات الجامعة العربية ١٢، وفهرس المخطوطات، الجزء الأول: ١/٢٧٦.

(٢) مقدمة الحجة لأبي علي الفارسي ١ - دار الكتاب العربي.

الأوسط، وكتاب السبعة الأصغر<sup>(١)</sup> وألف كذلك أبو محمد الحسن بن مقسم المتوفى ٣٦٢هـ كتاب السبعة بعلمها: الكبير، والأوسط، والأصغر<sup>(٢)</sup>.

أصبح أن يقال إذن: إن ابن خالويه اللغوي الكبير كان عاجزاً عن متابعة هذه الحركة القرآنية في عصره، وهو من خيرة أعلامه، ومن أشهر تلاميذ ابن مجاهد؟.

الواقع أن العقل لا يسلم بذلك، فإن الظروف المحيطة بهذا اللون من الدراسات تلحّ على ابن خالويه أن يؤلف في القراءات، ويوجهها، ويحتجّ لها كما فعل معاصروه. وأكبر الظنّ أن الكتاب عنوانه الحجة في القراءات السبع فعند النسخ سقطت كلمة الحجة، وهو أمر يحدث كثيراً على يد النساخ، أو اختصر عنوانه فأصبح: القراءات، واختصار العناوين ليس بدعاً في مؤلفاتنا. وقد أشار إلى ذلك محققو كتاب الحجة للفارسي حيث ذكروا أن كتاب الحجة يرد «في الكتب التي تذكره بأسماء مختلفة منها: الحجة، والحجة في علل القراءات السبع، والحجة في شرح القراءات السبع»<sup>(٣)</sup>.

الأي يدلّ ذلك على أن أبا عليّ لم يضع هذه الأسماء المتعدّدة لكتابه، وإنما وضع اسماً واحداً فقط، فجاء الرواة، أو الناسخون، فغيروا وبدّلوا مما جعل اسم هذا الكتاب يتخذ صوراً متعدّده.

على أن ابن خالويه كان في مقدمته صريحاً، فقد ذكر أن الكتاب في الاحتجاج وقد قلت: إن أنسب تسمية لهذا الكتاب هي الحجة، فكلمة الحجة تطالعك في كل سطر من سطور هذا الكتاب.

(٢) ذكرت أن كتب الطبقات ليست حجة قاطعة نرجع إليها في نفى نسبة الكتاب إلى ابن خالويه حيث لم تشر إليه، ذلك لأن هذه الكتب نفسها أغفلت ذكر كتب لابن خالويه، منها: كتاب أسماء الله الحسنى الذي أشار إليه ابن خالويه نفسه في كتابه: إعراب ثلاثين سورة حيث قال: «وقد صنفتها في كتاب مفرد، واشتقاق كل اسم منها ومعناه»<sup>(٤)</sup>.

(١) الفهرست لابن النديم - ٣٢ - ٣٣.

(٢) المرجع نفسه والصفحة..

(٣) انظر مقدمة الحجة للفارسي - ٤.

(٤) إعراب ثلاثين سورة - ١٤.

وقد علق الأستاذ الناقد على هذا القول بقوله: «هذا كلام من نمط سابقه فإن كتابه الحجّة جدير بأن يذكر في أول قائمة كتب ابن خالويه لو صحت النسبة وحيث لم يذكر في كتب الطبقات، ولا ذكر في باقي كتب ابن خالويه، فهذا دليل على عدم صحة نسبته إليه، لأن كتب الطبقات لم تذكره، ولأن ابن خالويه لم يشر إليه في تضاعيف كتبه».

أقول لأخي الناقد:

لا أحب أن أكرّر ما قلت في شأن كتب الطبقات فليس أصحابها معصومين من النسيان، وليست هذه الكتب بآمن من الخطأ، ولا أدل على ذلك من هذا التراث الضخم الذي حوته فهارس مكتبتنا في الشرق والغرب، ولا نجد للكثير منه ذكراً في كتب الطبقات المعروفة.

ألم أقل في بحثي لإنتاج ابن خالويه العلمى: إننى استطعت أن أنسب إلى ابن خالويه كتباً لم تضمها كتب الطبقات؟ وعدادت من هذه الكتب عشرة كتب أذكر منها: كتاب الريح، وكتاب أسماء الله الحسنى، وكتاب الهاذور، وشرح ديوانى أبى فراس الحمدانى.. أتسقط هذه الكتب لأنها لا توجد فى البغية، أو فى إنباء الرواة، أو فى معجم الأدباء.. إلخ؟ لو فعلنا ذلك لأجهزنا على تراثنا بأيدينا من حيث لا نشعر.

ولا أسلم أيضاً للناقد الفاضل بأن ابن خالويه لم يشر إليه فى تضاعيف كتبه، لأن ابن خالويه قد أشار إليه، فى كتابه «إعراب ثلاثين سورة» عند تعرضه للقراءات فى قوله تعالى: ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: «أجمع العلماء على كسر الهاء فى الثنية إذا قلت: عليهما، قال الله عز: ﴿يَخَافُونَ أُنعمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾<sup>(١)</sup> إلا يعقوب الحضرمى فإنه ضم الهاء فى الثنية كما ضمها فى الجمع، وقد ذكرت علة ذلك فى كتاب «القراءات»<sup>(٢)</sup> وهذا التعليل تجده فى الحجّة<sup>(٣)</sup>، وأما عدم ذكره باسم الحجّة فقد بينت السرّ فى ذلك، وأن هذه التسمية جاءت متأخرة عن عصر ابن خالويه.

إن ابن خالويه حينما يقول: ذكرت علة ذلك فى كتاب «القراءات» أليست هذه إشارة واضحة إلى أن المعنى بذلك هو كتاب الحجّة؟ وما مدلول قوله: «علة ذلك»؟ أليست العلة

(١) المائة (٣٣).

(٢) إعراب ثلاثين سورة - ٣٢.

(٣) الحجّة فى القراءات السبع: تحقيق: عبد العال سالم مكرم - ص ٦٣ - طبع دار الشروق - بيروت.

هي التوجيه النحوي أو اللغوي؟ وما التوجيه النحوي أو اللغوي إلا الاحتجاج، وما الاحتجاج إلا ذكر الحجة، والحجة تتكرر في كل قراءة يعرضها.

إن الذي يعنيني يا سيدي أولاً وأخيراً هو المضمون لا الشكل، والجوهر لا العرض، والمعنى لا اللفظ، وهذا كله يشير إلى أن كتاب القراءات الذي أشار إليه ابن خالويه هو في الاحتجاج، وبذلك لا نسلم للناقد الفاضل قوله: إنه لم يشر إليه في تضاعيف كتبه.

(٣) وحينما ذكرت أن التسمية بالحجة قد تكون من عمل المتأخرين، وحتى كتاب الحجة الفارسي لم يقدمه أبو علي لعضد الدولة باسم الحجة.

يقول الأستاذ العابد معلقاً: «إننا نؤكد أن النسخ العتيقة التي توجد من كتاب الحجة لأبي علي الفارسي مكتوب بظهر أول ورقة من أجزائه بخط عريق في القدم من نسخة كان يملكها الحافظ الحجة أبو الحسن علي بن محمد الشاربي ما صورته: الجزء السابع من كتاب الحجة لقراء الأمصار... إلخ. فمن أين الجزم بأن أبا علي الفارسي لم يسم كتابه بالحجة؟ أقول:

أخي، إن الذي دفعني إلى هذا القول هو أن عنوان الكتاب على الغلاف ليس هو الفصّل في القضية كما فهمت سيادتكم.. فقد درج المؤلفون أن يذكروا في مقدمة كتبهم أسماء هذه الكتب أو موضوعاتها، ويقوم الناسخون بوضع هذه التسمية على الغلاف إن كانت مذكورة في المقدمة، أو وضع اسم ينطبق على موضوع الكتاب إن لم يكن اسمه مذكوراً بنصه، على أن الغالب في مؤلفات القدامى أنهم يذكرون موضوعات كتبهم في مقدماتهم، ولا يشيرون إلى أسمائها، فعل ذلك أبو علي الفارسي حينما ذكر في مقدمة كتابه الحجة ما نصه: فإن هذا كتاب تذكر فيه وجوه قراءات القراء الذين ثبت قراءاتهم في كتاب أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد<sup>(١)</sup> ولم يشر إلى هذه التسمية وإنما فهمت التسمية من موضوع الكتاب، ولذلك اختلف الرواة فيها كما بينت آنفاً.

وفعل ذلك ابن خالويه حينما ذكر في مقدمته ما نصه: «وأنا بعون الله ذاكر في كتابي هذا ما احتج به أهل صناعة النحول لهم في معاني اختلافهم»<sup>(٢)</sup> فكلمة «احتج» تجدها في مقدمة ابن خالويه على حين تفتقدها في مقدمة الفارسي.

(١) مقدمة الحجة للفارسي - ٣

(٢) الحجة لابن خالويه - ٦٢ طبع دار الشروق - بيروت.

وفعل ذلك أيضاً الفارسي في كتابه: «الإغفال» حيث يقول في مقدمته بصدد المسائل التي أغفلها الزجاج ما نصه: «ذكرناها لما اقتضت عندنا من الإيضاح للإغفال الواقع فيها» وكتب على غلاف النسخة المخطوطة «الإغفال لأبي علي الفارسي»<sup>(١)</sup>.

وكذلك فعل أبو محمد مكي بن أبي طالب الأندلسي في مقدمة كتابه «تفسير مشكل إعراب القرآن» حيث يقول: «فقصدت في هذا الكتاب إلى تفسير مشكل الإعراب، وذكر علله، وصعبه، ونادره، ليكون خفيف الحمل»<sup>(٢)</sup>... إلخ، ولم يشر إلى أن هذا الكتاب اسمه: «تفسير مشكل إعراب القرآن» وإنما ذكر الموضوع، ولا يخفى على الراوية أو الناسخ لبّ هذا الموضوع، فاستنتج الاسم منه ونسب إليه.

ولا أبالغ إذا قلت: إن كتاب سيويه أشهر كتاب انتشر في الآفاق لم يسمه سيويه بهذا الاسم، وإنما جاءت التسمية من الرواة أو الدارسين أو الناسخين، يقول أستاذنا المحقق الكبير الأستاذ عبد السلام هارون في مقدمته القيمة لتحقيق كتاب سيويه ما نصه: «وقد عرف كتاب سيويه من قديم الدهر إلى يومنا هذا باسم الكتاب أو كتاب سيويه، ومن المقطوع تاريخياً أن سيويه لم يسمه باسم معين»<sup>(٣)</sup>.

وفي العصور المتأخرة نجد المؤلفين ينصون على تسمية كتبهم في مقدماتها وبذلك يكون عنوات الغلاف وفق عنوان اسم الكتاب المشار إليه في المقدمة فهذا ابن هشام في مقدمة كتابه المغنى يشير إلى اسم كتابه فيقول: «سميته بمغنى اللبيب عن كتب الأعراب». والسيوطي في مقدمة كتابه الهمع يقول: «فتخيرت لهم هذه العجالة الكاملة بحل مبانيه، وتوضيح معانيه إلى أن يقول: مسماة بهمع الهوامع في شرح جمع الجوامع».

ولعل في هذا الدليل الشافي في أن عنوان الكتاب قد لا يكون في بعض الأحيان من وضع المؤلف، أو من تسمية المؤلف.

(٤) وقد ذكرت أن من الأدلة على أن الحجة لابن خالويه دليل التنافس العلمي في هذا العصر، ولكن هذا الدليل لم يرق في نظر الناقد فكتب يقول: «وأنا لا أدري ما وقع هذا الدليل. والتنافس العلمي ولو بلغ ما بلغ لا ينتج مثل هذا الفرض المشكوك فيه من أصله،

(١) الإغفال لأبي علي الفارسي مخطوط رقم ٦٤٩ تفسير - دار الكتب المصرية.

(٢) مشكل إعراب القرآن مخطوط رقم ٢٣٢، تفسير - دار الكتب.

(٣) مقدمة المحقق ١-٢٣ - طبع دار القلم.

وقد وقع التنافس في كثير من الفنون في عصره، ولم يؤلف ابن خالويه في جميع تلك العلوم المتنافس فيها؟

أقول:

لعل الناقد الفاضل يذكر أن أهم ما كان يشغل ذهن ابن خالويه هو العلوم القرآنية، وإذا نafs فإنه ينافس في مجالها، أما ما عدا ذلك من ألوان المعرفة كالطب والفلك، والمنطق والفلسفة، والحساب والهندسة، فهذه علوم لا تدخل في حساب المنافسة.

وقد أشرت إلى منافسته للفارسيّ وابن جنى، وغيرهما كما سبق بيانه في مجال الدراسات القرآنية.

(٥) وقد قلت:

إن من أوضح أدلة التوثيق لهذا الكتاب، ونسبته لابن خالويه تشابه أسلوبه ومنهجه مع مؤلفات ابن خالويه الأخرى، وهذا التشابه محصور في الإيجاز والاختصار، وموضوعات أخرى ذكرتها في بحثي، واستدللت عليها بنصوص لا تقبل الجدل، ولا تحتل الشك.

ولكن الأخ الناقد لم يعجبه هذا التدليل فقال: «إن الأسلوب والمنهج الذي كان سائداً في عصر ابن خالويه لم يكن خاصاً به بل كان عاماً لدى الشخصيات التي تتلمذت لابن مجاهد، وأبو عليّ الفارسيّ في كتابه لم يكن يتبع غير طريقة الإيجاز ولو نسبياً».

أقول:

لقد جعلني الناقد الفاضل أشك في أنه قرأ أو اطلع على كتاب الحجة للفارسيّ الذي طبع منه الجزء الأول بتحقيق أستاذنا النجدي وزميله، وقد أشار سيادته في نقده إلى هذا الجزء المطبوع.

من قال: إن أبا عليّ الفارسيّ في كتابه الحجة كان طابعه الإيجاز ولو نسبياً؟ إن هذا قول لا تطمئن إليه النفس وإليك الدليل:

إن الجزء الأول المطبوع من حجة الفارسيّ يحتوي على ٣٣١ صفحة من القطع الكبير، ابتداءً بفتح الكتاب، وانتهاءً بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آية ٢٠ من سورة البقرة.

أى أن هذا الجزء الضخم كله توجيه لقراءات الفاتحة، ولعشرين آية من سورة البقرة، فهل هذا إيجاز يا سيدى؟

إن الأساتذة المحققين أحسوا أن نشر كتاب الحجّة للفارسي قد يصل إلى أربعين جزءاً على غرار الجزء الأول مما يتطلّب وقتاً طويلاً، وعمراً مديداً، ومنذ ثلاث سنوات لم ير النور من كتاب الحجّة للفارسي غير هذا الجزء الأول، مما دفعني دفعاً قوياً إلى إخراج كتاب الحجّة لابن خالويه، لأنه يقدم للقارئ خلاصة موجزة للاحتجاج النحوي واللغوي للقراءات السبع في أسلوب ممتع، وفي عرض يشرق على القارئ بهائه، ويستولى على نفسه جماله، وقد جعل الاختصار رائده ليحقق الهدف الأكبر من تأليفه، وهو انتفاع الناس به، أو كما يقول في مقدمته:

«قاصد قصد الإبانة في اقتصار من غير إطالة ولا إكثار، جامع ذلك بلفظ بين جزل، ومقال واضح سهل، يقرب على مريده، ويسهل على مستفيده»<sup>(١)</sup>.

ومن حسن الحظ أن كتاب الحجّة لابن خالويه أصدرته ونشرته دار الشروق ببيروت في أوائل أغسطس سنة ١٩٧١<sup>(٢)</sup>، وهو الآن يشق طريقه إلى عقول القراء، لأنه الكتاب الوحيد في المكتبة العربية الآن الذي يمكن للقارئ الرجوع إليه عند توجيه قراءة في مجال النحو واللغة من القراءات السبع.

وإلى أخى الفاضل الأستاذ انعباد أقدم دليلاً ملموساً من كلام ابن جنّي تلميذ الفارسي حول هذا الكتاب، ورأى ابن جنّي الذي امتص ثقافة أستاذه الفارسي في هذا المجال رأى لا يتسرّب إليه الشك أو الضعف لأنه شهادة على النفس، ولأن ابن جنّي من الفارسي بمثابة الروح من الجسد. يقول ابن جنّي في المحتسب: «فإن أبا علي رحمه الله عمل كتاب الحجّة في القراءات فتجاوز فيه قدر حاجة القراء، إلى ما يجنّو عنه كثير من العلماء»<sup>(٣)</sup>.

ويقول في موضع آخر: «وقد كان شيخنا أبو عليّ عمل كتاب الحجّة في قراءة السبعة فأغمضه وأطاله حتى منع كثيراً ممن يدعى العربية فضلاً عن القراء، وأجفاهم عنه»<sup>(٤)</sup>.

(١) مقدمة ابن خالويه - ٦٢.

(٢) طبع بعد ذلك أربع طبعات في دار الشروق بمصر وطبعة خاصة في مؤسسة الرسالة - بيروت.

(٣) انظر: مقدمة المحتسب لابن جنّي - طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٤) مقدمة المحتسب المرجع السابق.

ألا يدل هذا على أن أبا على الفارسي لم يكن رائده الإيجاز والاختصار كما يقول الناقد. بل كان رائده التطويل الممل، والاستطراد المخل، والأسلوب المعقد كما أشار إلى ذلك تلميذه ابن جنى.

وليقتنع الناقد الفاضل بما أقول فإليه هذا المثال من كتاب حجة الفارسي:

قال أبو على في قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾. «اختلفوا في إثبات الألف وإسقاطها من قوله: ﴿ملك يوم الدين﴾ ثم يبين قراءة عاصم، وقراءة غيره وبعد ذلك ينقل عن أبي بكر محمد بن السري نصاً يستدل فيه على أن «ملك» يجمع (مالكاً) أى مَلَكَ ذلك اليوم بما فيه، ومالك إنما يكون للشيء وحده.

ولا يكتفى بهذا، بل ينقل حكاية عن عاصم الجحدري، وبعد ذلك ينقل رواية ثعلب يحتج فيها لقراءة الكسائي «ملك الناس» ويستطرد إلى قول أبي عبيد في تفسير معنى «ملك يوم الدين» ويبين أن المالك والملك يجمعهما معنى واحد ويرجعان إلى أصل وهو الربط والشدة، ويستدل على ذلك بالشعر العربي، ويستطرد مرة أخرى إلى تفسير معنى الإملاك، وهو ربط الرجل بالمرأة، ويعود من حيث بدأ إلى قراءة «ملك»، وقراءة «مالك» وسرعان ما يترك توجيه القراءة إلى موضوع آخر ليس منها فيقول: قال أبو الحسن الأخفش يقال: ملك بين المُلْك: الميم مضمومة، وتقول: مالك بين المَلِك والمَلِك بفتح الميم وكسرها.

ولا يكتفى بهذا، بل ينقل عن أبي عثمان فيقول: وقال أبو عثمان: شهدنا أملاك فلان وملكه، ولا يقال: ملاكه، وينتقل إلى الحديث عن إملاك المرأة وهو العقد عليها، وقد ذكره فيما قبل، ثم عاد إليه.

ومن غير وحدة أو ترابط يرجع بعد ذلك إلى قراءة «ملك» أو «مالك» فإذا فرغ من هذا أتجه إلى الحديث عن إضافة مالك إلى يوم الدين والإضافة باب من أبواب النحو، أخذ أبو على يشق الحديث عنها إلى منتصف ص ٣٦، أى أن الحديث عن مالك يوم الدين تناول ٣٦ صفحة من القطع الكبير. فهل هذا إيجاز أو اختصار؟

انظر إلى ما كتبه ابن خالويه في «مالك يوم الدين» قال ما نصه: «يقراً بإثبات الألف

وطرحها، فالحجة لمن أثبتها أن الملك داخل تحت المالك، والدليل له قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾<sup>(١)</sup>، والحجة لمن طرحها أن الملك أخص من المالك وأمدح، لأنه قد يكون المالك غير ملك، ولا يكون الملك إلا مالكا<sup>(٢)</sup>.

وقد بلغت صفحات حجة ابن خالويه بعد طبعه ٣١٨ صفحة من القطع الكبير خلاف المقدمة والفهارس مع أنه تناول توجيه القراءات السبع في القرآن الكريم كله مستدقاً بفاتحة الكتاب، ومنتهاً بسورة الناس.

(٦) ومن أدلتى في أن كتاب الحجة تصح نسبه إلى ابن خالويه: أن الأعلام الذين سجلهم ابن خالويه في كتابه كانوا أسبق منه زمناً مما يدل على أن الكتاب لم يؤلف بعد عصر ابن خالويه، ولكن هذا الدليل من الأدلة الواهية في نظر الناقد الفاضل حيث يقول: «هذا من الاستدلالات الواهية، ومتى كان النقل عن أعلام سابقين في الزمان دليلاً على تثبيت نسبة الكتاب لشخص معين».

أحب أن أذكر الأستاذ الناقد بما ذكره أستاذنا المحقق عبد السلام هارون حيث قال ما نصه في كتابه المبكر «تحقيق النصوص ونشرها»: «وتعد الاعتبارات التاريخية من أقوى المقاييس في تصحيح نسبة الكتاب أو تزيفها، فالكتاب الذي تحشد فيه أخبار تاريخية تالية لعصر مؤلفه الذي نسب إليه جدير بأن يسقط من حساب ذلك المؤلف. ومن أمثلة ذلك كتاب نسب إلى الجاحظ وعنوانه «كتاب تنبيه الملوك والمكايد» ومنه صورة مودعة بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٤٥ (أدب) وهذا الكتاب زيف لاريب في ذلك، فإنك تجد من أبوابه باب «نكت من مكايد كافور الأخشيدي» و«مكيدة توزون بالمتقى لله»، وكافور الأخشيدي كان يحيا بين سنتي ٢٩٢، ٣٥٧، والمتقى لله كان يحيا بين سنتي ٢٩٧ و٣٥٧، فهذا كله تاريخ بعد وفاة الجاحظ بعشرات من السنين»<sup>(٣)</sup>.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً ما ذكرته في كتابي «القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية» أن كتاب إعراب القرآن للزجاج المخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٨ تفسير

(١) آل عمران - ٢٦.

(٢) الحجة لابن خالويه - ٦٢.

(٣) تحقيق النصوص ونشرها - ٤٣ طبعة ثانية (الجلي).

ليس للزجاج بأدلة ذكرتها، منها: ورود عبارة فى هذا الكتاب وقتت عندها طويلاً وهى قوله فى باب التقديم والتأخير: «وقد تصالح الأستاذ والغلام على أن الظرف يعمل فيه الوهم ورائحة الفعل». وذهبت أبحث عن: من الأستاذ؟ ومن الغلام؟ لأنه إذا تم التعرف عليهما أو على أحد منهما، وتبين أنهما عاشا فى عصر متأخر عن عصر الزجاج أمكن أن يكون ذلك دليلاً على أن كتاب إعراب القرآن هذا ليس للزجاج.

أقول: بعد بحث طويل وجدت فى تاريخ الأدب العربى «لبروكلمان» ما نصه:

«وكان أوفى تلاميذ ثعلب له، وأقربهم إليه أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد المطرز الوراق البارودى، ومن ثم سمي غلام ثعلب، وتوفى غلام ثعلب ببغداد سنة ٣٤٥هـ<sup>(١)</sup>. على أن الزجاج المنسوب إليه هذا الكتاب توفى عام ٣١١هـ<sup>(٢)</sup> ولعل فى هذا القدر الكافى لإقناع الأخ الناقد.

(٧) وأما الدليل السابع من أدلة النقد، فإنه ينصب على قولى: «ومن الأدلة تقارب بعض النصوص فى مؤلفات ابن خالويه الأخرى مع بعض نصوص الحجة، وقلت: إننى لا أبالغ فى أن هناك نصوصاً بأساليبها وكلماتها فى هذه المؤلفات هى بعينها فى كتاب الحجة».

ولكن الناقد لم يقتنع بهذا أيضاً فيقول: «إن هذه المشابهة أو المقارنة بين النصوص لا تفيد شيئاً فى الواقع، ومجرد إلقاء الباحث نظرة فى كتاب الحجة لأبى على الفارسى المعترف به من الجميع مع مراجعة ما قاله النحويون، والقراء والمفسرون والمعاصرون، للفارسى ولابن خالويه يجد أن جميع تلك النصوص متشابهة ومتقاربة فى المعنى حتى وفى اللفظ فى بعض الأحيان، ومع ذلك التشابه، والتقارب لا يمكن أن نستدل بذلك على إثبات نسبة كتاب معين لشخص معين بمجرد التشابه والتقارب».

أقول:

كنت أودّ من الزميل الفاضل أن يذكر لى، ولو نصاً واحداً من هذا التشابه والتقارب المعنوى أو اللفظى كما ذكر.

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان - ٢١٨، والقرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية - ٢٧٥.

(٢) البغية ١-٤١٣.

يا سيدى.. لقد علمتنا كتب التراث أمانة النقل فإذا رجع مفسر من المفسرين أو النحويين أو القراء إلى حجة أبى علىّ مثلاً، فإنه لا ينقل نصوصاً متقاربة المعنى أو متشابهة اللفظ إلا بعد أن يذكر قوله: (وقال الفارسيّ في الحجة) أما أن يعتدى على المعانى، ويكسوها ألفاظاً من عنده فهذه سرقة لا تليق بعالم يعتدّ بقوله. ومن وقع فيها شهراً به، وسخر منه، والروايات على ذلك متعدّدة. والمعانى يا سيدى ليست مطروحة على الطريق، وإنما هي نتيجة كدّ الذهن، وإعمال الفكر، وبذل الطاقة، والاطّلاع الواسع والإلهام المبدع. كيف تتقارب المعانى، ولكل مفسر منهجه وطريقته ولكل كتاب من كتب القراءات فى الاحتجاج وغيره أسلوبها الخاص، وطريقتها الخاصة؟ نعم إن النقول قد تعدّدت فى كتب التراث، ولكنها نقول لها مصادر معروفة، وأشخاص معروفون صدرت عنهم، ونقلت منهم، ولا يصحّ التصرف فيها بالتغيير أو التبديل. وما عدا ذلك فردية فى الطّريقة، وفى المنهج وفى الأسلوب، وإلا كان تكراراً أو سطواً وكلاهما لا يليق بأولى العلم والمعرفة، هذا فى مجال المعانى فما بالك فى مجال تشابه اللفظ. أظنّ أنّ توافق الخواطر قد يحدث فى جملة أو كلمة أمّا أن يحدث فى نص تعدّد سطوره فذلك أمرٌ لا يقبله المنطق. وقد ذكرت يا سيدى تشابه أسلوب ابن خالويه فى كتاب الحجة بأساليبه فى كتبه الأخرى، لأن المؤلف واحد، والعقل واحد، والأسلوب واحد، وطريقة التفكير واحدة. وقد بيّنت أنّ فى الحجة من كتاب «إعراب ثلاثين سورة» نصوصاً بألفاظها ومعانيها، وأن فى الحجة من كتاب «الريح» نصوصاً بألفاظها ومعانيها، وقد سجلت ذلك فى بحثى المنشور فى مجلة اللسان العربى» نفس العدد الذى ذكر فيه نقد الأستاذ الفاضل. ألا يكفى هذا دليلاً واضحاً على أنّ الحجة لابن خالويه لا لغيره.

(٨) والناقد الفاضل لم يعترف بقدم النسخ، «لأن الناسخ مجهول أمره، ولأن الخط ليس من الخطوط المتداولة فى القرن الخامس الهجرى، يعرف هذا بالبداهة من له خبرة بالخطوط، وتطوراتها، والمقابلة المذكورة لا تفيد أى شىء، ولأن كاتبها مجهول».

أقول:

إن هذا الدليل لا نسلم للسيد الفاضل بصحته، لأن كثيراً من الكتب المخطوطة لم تظفر بذكر اسم ناسخها، وجهل الناسخ لا يقلل من قيمتها، لأن الدراسة التى تقوم حولها،

وتحليل مناهجها وطريقة تأليفها، والتمرس بأسلوب مؤلفها، والخبرة بالعصر الذي نسخت فيه كل ذلك يزيل الغموض عنها، كما فعلت ذلك في دراستي لكتاب الحجّة.

على أن كتاب الحجّة للفارسي لم تظفر النسخة الأصل التي اعتمد عليها المحققون باسم الناسخ، فهل جهل الناسخ ينفي أن كتاب الحجّة للفارسي. أليس من التناقض أن أثبت أن كتاب الحجّة منسوب للفارسي مع جهل الناسخ، وأنفي نسبة كتاب الحجّة لابن خالويه لأن الناسخ مجهول؟

أما جهل ناسخ الحجّة للفارسي فإليك الدليل:

قال المحققون: «اعتمدنا في تحقيق كتاب الحجّة على نسختين، كتبت أولاهما سنة ٣٩٠هـ بخط النسخ الواضح، وضبطت كلماتها بالشكل ضبطاً كاملاً وهى فى مكتبة بلدية الإسكندرية برقم ٣٥٧٠ع، وفى دار الكتب المصرية صورة منها برقم ٤٦٢ قراءات. وفى خزانة مجمع اللغة العربية مصورة منها كذلك، وقد جعل المحققون هذه النسخة هى الأصل لأنها الأقدم فى النسخ، ولم يشيروا إلى اسم الناسخ لأنه غير موجود».

من هذا، يتبين أن ظاهرة كتابة اسم الناسخ قد تتخلف فى كثير من الكتب المخطوطة وليس الجهل بالناسخ ينقص من قدر المخطوط، ويقلل من قيمته، وإلا لما اعترفنا بكتاب الحجّة للفارسي، وهو لا يتطرق إليه الشك.

مع أن هذه النسخة كما يقول المحققون كتبت بخطوط مختلفة فقد ذكروا ما نصه:

«ويلاحظ أن خط الصفحتين الأولى والثانية مخالف لخط سائر الصفحات فى كل من الجزء الأول، والثانى، والسابع، وخط الصفحات الأولى والثانية والأخيرة مخالف لخط سائر صفحات الجزء الثالث، وخط الصفحتين الأوليين والصفحتين الأخيرتين مخالف لخط سائر صفحات الجزء الرابع، وخط الصفحة الأخيرة مخالف لخط سائر صفحات الجزء السادس»<sup>(١)</sup>.

وكتاب الحجّة لابن خالويه كتب بخط واحد، لم يتخلف فى صفحة واحدة من صفحات هذا الكتاب.

(١) مقدمة الحجّة للمحققين-٣٣.

وأحب أن أطمئن الأخ الفاضل بأن هذا الخط الذي كتبت به نسخة الحجفة من الخطوط المتداولة في القرن الخامس، وقد رجعت إلى أستاذنا المحقق عبد السلام هارون، وعرضت عليه صفحات مصورة من هذه النسخة، فأقر بما لا يدع مجالاً للشك أنها من خطوط القرن الخامس الهجري. وكذلك أقر هذا الزميل المحقق الأستاذ عبد الستار فراج رئيس قسم التراث بوزارة الثقافة بالكويت.

ومما يجدر ذكره أن الأستاذ الدكتور شوقي ضيف رغب في أن يقوم طالب من طلاب الدراسات العليا بتحقيق نسخة الحجفة لابن خالويه للحصول على الدكتوراه تحت إشرافه وفعلاً بدأ الطالب يستعد لتسجيل هذا الموضوع في كلية الآداب - جامعة القاهرة، ولما علم الدكتور الفاضل أنى قمت بتحقيقه، وفرغت منه، عدل عنه، اكتفاءً بتحقيقي.

ولا أنسى أن أذكر للناقد أن خبراء الخطوط بدار الكتب المصرية عرضوا هذا الكتاب في معرض الخطوط العربية القديمة على أنه واحدٌ من الكتب التي تبين معالم الخطوط في القرن الخامس الهجري.

ولعلني بهذا أكون قد بينت للناقد الفاضل وجهة نظري في أدلته مؤيدة بالدليل، بعيدة عن هوى النفس، أو عن داء التعصب للرأى.

بقيت ملحوظات أخرى عامة، أحب أن أوجه نظر الناقد الفاضل إليها:

(١) تناقض الناقد مع نفسه: فعنوان تعقيبه حمل العبارة التالية:

(نسبة الحجفة إلى ابن خالويه لا تصح) ثم ذكر بعد ذلك في السطور الأخيرة من تعقيبه أنه (لا يمكن أن تنفيه عنه نفيًا قاطعًا).

ومن حقّي أن أسأل الناقد: هل يجوز في مجال البحث العلمي أن تنفى ثم تنفى هذا النفي ولو بدرجة ما؟ لأن نفي النفي إثبات، كان الأجدر أن يكون عنوان نقده: «نسبة الحجفة إلى ابن خالويه فيها نظر» أو ليست مؤكدة، أو يتطرق إليها الشك، أما أن تنفى هذه النسبة بلا النافية، ثم تعود بعد ذلك لتنفى ما نفيت، هذا أمر لا يتلاءم مع منهج البحث.

(٢) أثبت الناقد في السطور الأخيرة من نقده: «أن الذى تميل إليه النفس هو أن كتاب

الحجة هذا هو أحد المختصرات التي اختصر بها كتاب الحجة الأصلى لأبى على الفارسى لعالم مجهول».

أقول:

إن الناقد الفاضل نقد نفسه بهذا القول، ألم يقل بعد ذلك بسطور «والذى يجعلنا نميل إلى نفى هذه النسبة هو أن جميع المصادر التي ترجمت لابن خالويه لم تذكر فى قائمة كتبه تأليفه الحجة. ولم يعول أصحاب المعاجم والفهارس وطبقات القراء عليه» هذا القول ذاته موجه إليك يا سيدى، فإذا كان حجة ابن خالويه مختصراً لحجة الفارسى فلم لم تشر إليه المعاجم والفهارس وطبقات القراء مع شدة اعتناء العلماء بحجة الفارسى، فقد ذكروا أن مكى ابن أبى طالب المتوفى ٤٣٧هـ اختصره فى كتاب سماه: منتخب الحجة فى القراءات، واختصره أيضاً أبو طاهر إسماعيل بن خلف الأندلسى المتوفى ٤٥٥ هـ، ومحمد بن شريح الرعيني المتوفى ٤٧٦ هـ<sup>(١)</sup>.

ولم يشر أحد إلى أن عالماً مجهولاً لخص حجة الفارسى، وبذلك يكون الناقد وقع فيما نقد به غيره.

والحقيقة أن حجة ابن خالويه تبعد كل البعد أن تكون تلخيصاً أو اختصاراً لحجة الفارسى، وذلك لأمرين:

أ- إن مقدمة حجة ابن خالويه تختلف فى منهجها عن مقدمة الحجة للفارسى، فابن خالويه يقول فى مقدمته: «وبعد، فإنى قد تدبرت قراءة الأئمة السبعة من أهل الأمصار الخمسة المعروفين بصحة النقل، وإتقان الحفظ، المأمونين على تأدية الرواية واللفظ، فرأيت كلاً منهم قد ذهب فى إعراب ما انفرد به من حرفه مذهباً من مذاهب العربية، لا يدفع. وقصد من القياس وجهاً لا يمنع، فوافق باللفظ والحكاية طريق النقل والرواية، إلى أن يقول: وأنا بعون الله ذاكر فى كتابى هذا ما احتج به أهل صناعة النحو لهم فى معانى اختلافهم، وتارك ذكر اجتماعهم واتلافهم إلى أن يقول: وقاصد قصد الإبانة فى اقتصار من غير إطالة ولا إكثار، إلى أن يقول: جامعاً ذلك بلفظ بين جزل، ومقال واضح سهل ليقرب على مریده، وليسهل على مستفیده»<sup>(٢)</sup>.

(١) البنية: ٢٩٧-١٩٥، وكشف الظنون ٢-٢٤٤.

(٢) الحجة ٦١ - ٦٢.

والفارسي يقول في مقدمته: «فإن هذا كتاب تذكّر فيه وجوه قراءات القراء الذين ثبتت قراءاتهم في كتاب أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد المترجم بمعرفة قراءات أهل الأمصار والحجاز، والعراق، والشام بعد أن تقدم ذكر كل حرف من ذلك على حسب ما رواه، وأخذناه عنه، وقد كان أبو بكر محمد بن السريّ شرع في تفسير صدر من ذلك في كتاب كان ابتداءً بإملائه، وارتفع منه تبييض ما في سورة البقرة من وجوه الاختلاف عنهم، وأنا أسند إليه ما فسر في كتابي هذا، وإلى الله أرغب في تيسير ما قصده»<sup>(١)</sup>. و بمقارنة المقدمتين نتبين في وضوح وجلاء أن المنهجين مختلفان، ولا يليق بعالم مختصر أن يتناول هذا النطاق، ويكتب هذه المقدمة بهذا المنهج الذي رسمه، وكتابه تلخيص لكتاب معروف، وما الدافع إلى عدم الإشارة إلى هذا التلخيص.

ب- ولو كانت حجة ابن خالويه تلخيصاً لحجة الفارسي لرأينا تشابهاً في اللفظ وتقارباً في المعنى، واتحاداً في الفكرة مع أن الكتابين مختلفان لفظاً ومعنى، وفكرة ومنهجاً، وإن اتحد موضوعهما.

(٣) أود أن أقول لأخي الفاضل إن كتب المعاجم والفهارس لا يعتمد عليها كل الاعتماد، لأن بعضاً منها نسب كتباً إلى غير أصحابها، وفهارس المخطوطات في دور الكتب العربية تحتاج إلى نظر، لتفهرس من جديد، فكثير من المخطوطات قالوا عنها: إنها مجهولة النسبة وكثير من المخطوطات نسبت إلى غير أصحابها، ولا أدل على ذلك من هذا التصحيح الذي قمت به لبعض المخطوطات: وهذه أمثلة منها:

(١) إعراب القرآن لمؤلف مجهول..

جاء في فهارس المخطوطات المصورة لمعهد إحياء المخطوطات العربية بالجامعة العربية ما نصه: «إعراب القرآن لمؤلف مجهول. الجزء الثاني من نسخة كتبت في القرن التاسع، يتدئ من أول سورة الأنعام، وينتهي بآخر سورة الإسراء»<sup>(٢)</sup>.

وبعد بحث طويل استطعت أن أثبت أن هذا الجزء ليس لمؤلف مجهول، وإنما هو لمؤلف معلوم، وهو السمين الحلبي، حيث قارنت نصوصه بنصوص النسخة المخطوطة بدار الكتب

(١) مقدمة حجة الفارسي - ٤

(٢) ٢٠-١.

المصرية رقم ٣٢١- تفسير - فوجدت النصوص متحدة متماثلة. نفس النصوص ونفس الأسلوب، ونفس الألفاظ<sup>(١)</sup>.

(٢) معانى للقرآن للزجاج..

تضم دار الكتب المصرية نسختين مخطوطتين من هذا الكتاب.

- نسخة رقم ١١١- تفسير ، وقد وثقتها برجوعى إلى كتاب «الإغفال» لأبى على الفارسي لأنه ضم كثيراً من نصوص معانى القرآن للزجاج ثم علق عليها مصلحاً ما أخطأ فيه الزجاج، فرأيت أن نسبة هذه النسخة إلى الزجاج صحيحة، لأن النصوص التى أوردتها الفارسي فى الإغفال هى نفس النصوص التى أوردتها الزجاج فى المعانى .

- نسخة رقم ٦٣٦- تفسير ، وبعد تمحيص استطعت أن أثبت هذه النسخة ليست للزجاج، والزجاج منها برى<sup>(٢)</sup>.

(٣) إعراب القرآن للزجاج رقم ٥٢٨- تفسير - دار الكتب المصرية ليست للزجاج كما بينت سابقاً فى هذا البحث.

(٤) البرهان فى علوم القرآن للحوفى : نسخة رقم ٢٠٥٠٣ بدار الكتب المصرية. وقد صورت منها النسخة رقم ٢٠٧٨٤ ب والنسخة رقم ٢٠٧٨٥ ب.

ومع مجهود التصوير المكرر لهذه النسخة ، فإنها ليست للحوفى، بل هى نسخة من إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس<sup>(٣)</sup>.

وتوفيق الله لم يسبقنى أحد إلى هذه التصحيحات أو التحقيقات، ولا فخر فى ذلك، فإن ما يبذل حول الدراسات القرآنية قليل بالنسبة لما يجب أن يكون. وقد ألفت هذه التحقيقات على هذه المخطوطات ضوءاً كاشفاً يحملنا على أن نعيد النظر فى هذه المخطوطات لتقويمها من جديد حتى لا تختلط القيم، وتضطرب الأمور.

وبعد فإنى أقدم شكرى العميق للأخ الفاضل الأستاذ العابد، على هذا النقد البرئ الذى تفضل به مشكوراً.

(١) القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية : عبد المال سالم مكرم - ٢٥٣.

(٢) انظر الأدلة فى ذلك المرجع السابق - ٢٥٢.

(٣) انظر الأدلة فى ذلك المرجع السابق - ٢٨٤.

أشكره لأنه أتاح لى فرصة طيبة لبيان وجهة نظرى فى نسبة كتاب الحجّة إلى صاحبه وأشكره لأنه أثار القراء نحو هذا الكتاب ليطلعوا على ما فيه بأنفسهم، والقارئ شريك الناقد، والباحث فى أن يكون له رأى والفكر ليس وفقاً على أحد.

ومن حسن الحظ فإن الكتاب قد تمّ طبعه فى دار الشروق ببيروت، وقد رأى النور بنشره، وأسعده الحظ فى أن يبعث من جديد بعد إحدى وعشرين وألف سنة.

والله أسأل أن يجتنبنا الخطأ، وأن يهدينا سواء السبيل.

ومن حسن الحظّ بعد نشر هذه المقدّمة رأيت فى مقدّمة الزبيدى لكتابه : «تاج العروس» أنّ من المراجع التى اعتمد عليها فى كتابه: كتاب الحجّة فى القراءات السبع لابن خالويه وبذلك قطعت جهيزة قول كل خطيب.

\*\*\*

## ١٥. أضواء على المعاجم القرآنية

### ✽ الجذور الأولى للمعاجم العربية:

مرت هذه الجذور بعدة مراحل:

#### المرحلة الأولى: مرحلة تدوين اللغة العربية:

إذا نظرنا إلى لغة العرب وجدناها لغة واسعة تفرّعت إلى لهجات متعدّدة، وتطورت هذه اللهجات تبعاً لتطور القبيلة، وتغير ظروف المجتمع، فلكل قبيلة لهجة تلتزمها في كلامها. ولغة العرب سواء كانت لغة البادية أو الحضرة لا تخضع لمقاييس معينة أو قوالب محددة، لأنها لغة متداخلة، وليس بينها حواجز.

ومن أجل هذا يقول ابن جنى ناقداً هولاء الذين يحكمون على اللغة بالشذوذ إذا تجاوزت لغة البادية: «واعلم أنه إذا أذاك القياس إلى شيء ما ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره فدع ما كنت عليه إلى ما هم عليه، فإن سمعت من آخر مثل ما أجزته فأنت فيه مخير، تستعمل أيهما شئت، فإن صح عندك أن العرب لم تنطق بقياسك أنت كنت على ما أجمعوا عليه البتة، وأعددت ما كان قياسك أذاك إليه لشاعر مولد أو لساجع أو لضرورة لأنه على قياس كلامهم»<sup>(١)</sup>.

وهذه اللغة الواسعة التي تمثل قبائل العرب جميعاً سواء كانوا بدواً أو حضراً كثرت فيها أسماء المسميات.

يدل على ذلك قصة الأسماء المتعددة للكلب، فقد روى أكثر المؤرخين أن أبا العلاء المعريّ عثر وهو داخل إلى مجلس الشريف المرتضى في بغداد برجل، فقال هذا مغضباً: من هذا الكلب؟ فقال المعريّ بكل هدوء: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً.

وقد حفزت هذه الكلمة السيّوطي في القرن التاسع الهجريّ إلى تتبع كتب اللغة باحثاً

(١) الخصائص ج١/ ١٢٥ - ١٢٦.

منقباً حتى عثر على هذه الأسماء السبعين فنظمها في أرجوزة سماها: «التبرى من معرفة المعري»<sup>(١)</sup>.

واضح إذن أن القبيلة الواحدة لم تضع للكلب سبعين اسماً، فالكلب عندها لا يعرف إلا باسم واحد أما هذه الأسماء الكثيرة فإنها أسماء لقبائل متعددة.

إن احترام السماع من العرب مهما كان قليلاً لا يرفض، فاللغة كائن حي متطور، فمن الظلم أن نحد انطلاقتها، وأن نكتم أنفاسها بهذه القيود الثقيلة التي وضعها «أهل القياس لأن الأقيسة لم تولد نتيجة استقرار كامل، أو استيعاب دقيق للغة.

رحم الله أبا حنيفة فقد طلب النحو في أول أمره، فذهب يقيس، وأراد أن يكون أستاذاً فيه، فقال: «قلب وقلوب، وكلب وكلوب، فقيل له: كلب وكلاب، فترك النحو ووقع في الفقه»<sup>(٢)</sup>.

وما أعظم قول الشافعي في هذا المقام حينما قال: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس»<sup>(٣)</sup>.

من أجل هذا يصح لي أن أقول: إن المصيب من يتخذ القرآن الكريم موضع استشهاد في كل ما يصدر ويورد، وإن من وصل إلى قمة الحق من قال: هكذا قال القرآن، وذلك لأن القرآن الكريم مصدر موثق، لم يأت الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نزل بلغة قريش، وغيرها من لغات العرب، وكان الأخرى باللغويين جميعاً أن يتزاحموا على مورده، ويسيروا على هديه في كل قاعدة يقعدونها، وفي كل مسألة يحررونها، وفي كل مشكلة يحاولون حلها، والفراء يرد على بعض علماء الشعر، ورواة الأخبار التاريخية الذين لا يريدون أن يلتمسوا إعجاز القرآن الكريم في قوالبه اللغوية، بل يرون كمال الفصاحة في لغة عرب ابادية، فيقول راداً على جميع هؤلاء: «إن القرآن أفصح أساليب العربية على الإطلاق»<sup>(٤)</sup>.

(١) النقد واللغة في رسالة الغفران للدكتور أمجد الطرابلسي ص ٣٤ - ٣٥ مطبعة الجامعة السورية.

(٢) الرد على الخطيب البغدادي ص ٣٤، ٣٥ للملك المعظم عيسى، مطبعة السمادة ط أولى.

(٣) صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام ص ١٥ للسيوطي مطبعة السمادة.

(٤) العربية ليوهان فك ص ٤ - ٥ بتصرف.

## أمثلة تدل على أن القرآن الكريم نزل بلغات العرب جميعاً:

- ١- أخرج أبو عبيد عن طريق عكرمة عن ابن عباس فقال: ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾<sup>(١)</sup> قال: الغناء وهي يمانية.
- ٢- أخرج أبو عبيد عن الحسن قال: كنا لا ندري: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾<sup>(٢)</sup>؟ حتى لقينا رجلاً من أهل اليمن، فأخبرنا أن الأريكة عندهم: الحجلة فيها السرير.
- ٣- وروى الضحاك في قوله تعالى: ﴿لَا وَزَرَ﴾<sup>(٣)</sup> قال: لا جبل، وهي بلغة أهل اليمن. والوزر: ولد الولد بلغة هذيل.
- ٤- وأخرج عن الحسن في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا﴾<sup>(٤)</sup> قال: اللهو: المرأة بلسان اليمن.
- ٥- وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾<sup>(٥)</sup> هو بلغة طيء: ابن امرأته.
- ٦- والرفث في قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾<sup>(٦)</sup>: الجماع بلغة مذحج<sup>(٧)</sup>.

## الرواة وجمع اللغة:

وحرصاً على اللغة من الضياع قام الرواة والعلماء منذ أواخر القرن الهجري الأول وخلال القرن الثاني إلى الاتصال المباشر بالأعراب، لأخذ اللغة عنهم وتدوينها في كتبهم. يدل على ذلك «أن الكسائي على بن حمزة لقي الخليل بن أحمد، وجلس في حلقة، فقال له رجل من الأعراب: تركت أسد الكوفة وتيمماً وعندهم الفصاحة، وجئت إلى البصرة، فقال للخليل: من أين أخذت علمك هذا؟ فقال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فخرج ورجع، وقد أنفد خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ، فقدم إلى البصرة فوجد الخليل قد مات. وفي موضعه يونس، فجرت بينهما مسائل أقر له فيها يونس وصدّره في موضعه»<sup>(٨)</sup>.

(١) النجم / ٦١. (٢) الكهف / ٣١.  
 (٣) القيامة. (٤) الأنبياء / ١٧.  
 (٥) هود / ٤٢. (٦) البقرة / ١٩٧.  
 (٧) انظر الإنشقاق ١ / ١٣٣ - ١٣٤. (٨) بغية الوعاة للسيوطي ٢ / ١٦٣.

وعيسى بن عمر كان عالماً لغوياً محيطاً باللغة، فقد ذكر السيوطى أن عيسى تحدث عن نفسه فى مجال الكتابة عن العرب والتسجيل فقال: «كنت أنسخ بالليل حتى ينقطع سوائى»<sup>(١)</sup> يعنى وسطه.

ولا يتسع المقام هنا لذكر العلماء والرواة الذين نقلوا من العرب ما نقلوه، وسجلوه بأقلامهم غير أن طريقة جمع اللغة فى هذه الفترة كانت عشوائية بدون ترتيب أو تنسيق، ونسبة ما أخذوه من القبائل.

يقول الدكتور أمجد الطرابلسى: «إن مرحلة تدوين ألفاظ اللغة العربية وتفسيرها فى هذه المرحلة كانت بدون ترتيب، وكان السماع من العرب والأعراب أحد المصادر الأساسية التى اعتمدها الرواة فى جمع اللغة.

وكانت كل طبقة من الرواة تتلقف كل ما جمعته سابقتها من مفردات اللغة..... ثم أخذ الرواة يدونون هذا التراث اللغوى فى رسائل متفرقة تمتاز بطابعها الابتدائى العفوى، البعيد عن التنسيق والتبويب.

وقدم الدكتور أمجد الطرابلسى مثالا لذلك كتاب «النوادر» لأبى زيد، إذ ترى المؤلف يورد فيه النصوص الشعرية والنثرية الملائى بالمفردات الغريبة النادرة، فبشرحها ويعلق عليها بعض التعليقات اللغوية من غير ترتيب فى إيراد النص أو ربط معانى الألفاظ»<sup>(٢)</sup>.

✽ والمرحلة الثانية من مراحل جذور المعاجم العربية كانت تتمثل فى رسائل صغيرة دوت فيها ألفاظ اللغة العربية مرتبة فى رسائل صغيرة مثل كتاب المظر لأبى زيد، وقد أسهم الأصمعى برسائل أخرى تتمثل فى كتاب الإبل وكتاب الخيل، وكتاب الشاة، وكتاب النبات والشجر.

وقد عنى المستشرقون بنشر هذه الرسائل<sup>(٣)</sup>.

✽ والمرحلة الثالثة هى مرحلة وضع المعاجم الشاملة وهذه المرحلة يمثلها كتاب «العين»

(١) المزهر ٢/ ٣٠٤.

(٢) انظر: نظرة تاريخية فى حركة التأليف عند العرب ص ١٢ - ١٣ بصرف.

(٣) انظر هامش حركة التأليف عند العرب ص ١٢.

للخليل بن أحمد. والخليل عبقرى زمانه، ورياضى عصره حباه الله تعالى بذكاء مفرط، وذهن وقاد ونبوغ رائع، فقد عرض الخليل حروف الهجاء على أعضاء النطق حرفا حرفا، ورأى أنها تصدر من أعضاء النطق مندرجة من أعلى من أقصى الحلق نازلة إلى أسفل نهاية الشفتين، ثم قسمها مجموعات تتقارب حروف كل منها فى مخارجه قليلا أو كثيرا.

ووجد أن الحروف الصادرة من أقصى الحلق ستة، وهى الهمزة، وإن كانت أقطعها وأصلها خروجا من الحلق، يعترىها أحيانا ما يلحقها بحروف العلة، وتسهيلها فى بعض الكلمات، فأبى أن يبدأ بها حروف الحلق، كما لاحظ أن الهاء حرف مهموس، وأن الحاء بها بحة لولاها للحقت بالعين فأخرهما قليلا، وجعل مبدأ حروف الحلق عنده حرف العين، فبدأ بها معجمه، وإليها نسب، فسمى كتابه «العين»<sup>(١)</sup>.

وبصدد معجم الخليل يقول الدكتور أحمد مختار: «ولقد انبثقت فكرة المعجم الشامل فى أذهان اللغويين العرب منذ وقت مبكر لا يتجاوز منتصف القرن الثانى الهجرى حينما ألف الخليل بن أحمد ١٠٠ - ١٧٥ هـ معجمه الشهير بالعين بطريقة إحصائية قامت على جملة من الأسس منها:

(حجم الكلمة - الترتيب الصوتى - نظرية العناصر - التوافق والتبادل - بدء الثانى مما يلي الأول)<sup>(٢)</sup>.

## رأى اللغويين والعلماء فى كتاب «العين»

ثارت ضجة حول كتاب «العين» بين الإشادة والنقد. فمن العلماء الذين أشادوا به:

أبو الطيب اللغوى فى كتابه: «مراتب النحوين» حيث يقول: أبدع الخليل بدائع لم يسبق إليها فمن ذلك تأليفه كلام العرب على الحروف فى كتابه المسمى «كتاب العين» فإنه هو الذى رتب أبوابه، وتوفى من قبل أن يحشوه»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر كتاب «العين» القسم المطبوع منه ص ٨ نقلا عن كتاب: «المعاجم العربية» للدكتور عبدالسميع محمد أحمد ص ٢٦.

(٢) انظر صناعة المعجم الحديث ص ٢٦.

(٣) المزهر ٧٨/١.

وبعض العلماء أنكر نسبة الكتاب للخليل. قال السيوطي: قال بعضهم: ليس كتاب العين للخليل، وإنما هو لثيب بن نصر بن سيار الخراساني.

ولأن الخليل كان معروفاً بالورع، مشهوراً بالتقوى، موسوماً بالصلاح. قال ابن فارس معلقاً على قول بعض الفقهاء: كلام العرب لا يحيط به إلا نسي، وهذا كلام حري أن يكون صحيحاً، وما بلغنا أن أحداً ممن مضى ادعى حفظ اللغة كلها. فأما الكتاب المنسوب إلى الخليل وما في خاتمه من قوله: هذا آخر كلام العرب، فقد كان الخليل أروع واتقى الله من أن يقول ذلك»<sup>(١)</sup>.

وبعد كتاب «العين» تابعت المعاجم العربية، ومن أهم الكتب التي تأثرت بكتاب العين، ونهجت نهجه كتاب «جمهرة ابن دريد» الذي يقول في مقدمة كتابه ما نصه:

«وأملينا هذا الكتاب، والنقص في الناس فاش، والعجز لهم شامل إلا خصائص كدراري النجوم في أطراف الأفق، فسهلنا وعره، ووطأنا شأزه، وأجريناه على تأليف الحروف المعجمة، إذ كانت بالقلوب أعلق، وفي الأسماع أنفذ، وكان علم اللغة بها كعلم الخاصة. وألقينا المستنكر الوحشي، واستعملنا المعروف، وسميناه كتاب الجمهرة، لأننا اخترنا له الجمهور من كلام العرب، وأرجأنا الوحشي المستنكر»<sup>(٢)</sup>.

ومساحة البحث لا تسمح بعرض المعاجم العربية التي ظهرت بعد الخليل لأنها كتب شتى، بعضها مطول، وبعضها مختصر، وبعضها عام، وبعضها خاص»<sup>(٣)</sup>.

وترددت في الحديث عن الجذور اللغوية للمعاجم العربية، لأن علاقتها بالبحث تبدو من أول وهلة أنها علاقة منقطعة، والواقع ليس كذلك، لأن هذه الجهود الجبارة التي بذلت في جمع اللغة، وصناعة المعاجم لها لولا القرآن الكريم ولغته المعجزة ما جمع ما جمع، ولا بذل ما بذل، فالقرآن الكريم كان وراء هذه الجهود الجبارة، لأن الحفاظ على لغته، وتسجيلها في معاجم تحفظ اللغة من الضياع، وتصونها من الاندثار واجب ديني مقدس، ومن أجل أن يظل هذا القرآن الكريم خالداً خلود الزمن باقياً ما بقيت الحياة كان هذا العطاء الكبير من الرواة واللغويين ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

(٢) انظر مقدمة الجمهرة.

(٤) الحجر/٩.

(١) المزهر ١ ص ٦٤ - ٦٥.

(٣) انظر المزهر ١/٩٧.

## القرآن الكريم والمعاجم

لا يفوتنى أن أذكر أن حركة تدوين القرآن الكريم كانت أسبق زمنا من حركة تدوين اللغة، وليس هناك كتاب مقدس وصل إلى ذروة التدوين والتوثيق كالقرآن الكريم، وهذا سر عظمته، ومفتاح خلوده ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١).

ولقد سجل القرآن الكريم تسجيلا رائعا فى مصحف لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ظل «ينقله أهل المشرق والمغرب عن أمثالهم جيلا جيلا، لا يختلف فيه مؤمن ولا كافر منصف غير معاند للمشاهدة، لا يشكون ولا يختلفون فى أن محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب أوحى به إليه، وأن من اتبعه أخذه عنه كذلك، ثم أخذ عن أولئك حتى بلغ إلينا» (٢).

وكانت الخطوة الأولى فى مجال التوثيق فى هذه الفترة كتابته حين النزول، ومنع كتابة شىء سواه حتى لا يختلط به ما ليس منه.

يدل على ذلك ما رواه سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال: لا تكتبوا عنى شيئا سوى القرآن، فمن كتب عنى شيئا سوى القرآن فليمحه» (٣).

ومع أن أبا هريرة رضى الله عنه كان يجيد الكتابة، ومع ذلك نهى عن كتابة الحديث، يحدثنا أبو هريرة فيقول: «خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نكتب الأحاديث فقال: ما هذا الذى تكتبون؟ فقلنا: أحاديث سمعناها منك فقال: أكتابا غير كتاب الله تريدون؟ ما أضل الأمم من قبلكم إلا ما اكتبوا من الكتاب مع كتاب الله تعالى» (٤).

ومعنى ذلك أن القرآن الكريم فى عهد رسول الله ﷺ كان موثقا توثيقا متينا حيث كتب كله بأقلام كتاب الوحي، وغيرهم من الصحابة الكاتبين. بيد أنه لم يجمع فى مصحف.

(١) الحجر/٩.

(٢) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٨٣.

(٣) تقييد العلم للخطيب البغدادي / ٢٩.

(٤) المصدر نفسه / ٣٣.

على أن السيوطى فى «الإتقان» وضع السبب فى عدم جمع القرآن فى مصحف فى عهد النبى ﷺ بقول: قال الخطابى: إنما لم يجمع ﷺ القرآن فى المصحف لما كان يتربه من ورود ناسخ لبعض أحكامه وتلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ﷺ ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعد الصادق وهو حفظه على هذه الأمة<sup>(١)</sup>.

### نقد بعض المستشرقين:

راعنى ما ذكره الدكتور (أرثر جفرى) فى مقدمته لكتاب «المصاحف لابن أبى داود حيث قال ما نصه: الرأى الشائع فى أن القرآن الكريم كتب فى عهد النبى ﷺ لا يقبله المستشرقون لأنه يخالف ما ورد فى أحاديث أخرى من أنه قبض ﷺ، ولم يجمع فى القرآن شىء»<sup>(٢)</sup>.

ويقنع (أرثر جفرى) بوجهة نظرهم مستندا إلى دليل آخر، فيقول: «وهذا يطابق ما روى من خوف عمر بن الخطاب وأبى بكر الصديق لما استنحر القتل بالقراء يوم اليمامة. وسبب الخوف هو قتل القراء الذين كانوا قد حفظوا القرآن، ولو كان القرآن قد جمع وكتب لما كانت هناك علة لخوفهما»<sup>(٣)</sup>.

وأطلت التفكير فى هذا القول فهديت إلى أن وراءه التشكيك فى نص القرآن الكريم، لأن الذاكرة مهما أوتيت من القوة لا تستطيع أن تمسك بكل ما فيها فترة طويلة وذلك يؤدى إلى نقص فى النص القرآنى أو زيادة عليه، ويكون شأنه شأن الشعر المروى عرضه للتغيير والتبديل.

وهذا القول لا يستند إلى دليل، ولا يقوم على حجة، وذلك لأن ادعاء أن النبى ﷺ قبض ولم يجمع فى القرآن شىء، فليس المراد منه أن القرآن لم يكن مكتوبا حينذاك بل المراد أنه لم يجمع فى مصحف.

وليس هناك أصرح من الروايات التى تثبت كتابة القرآن الكريم فى عهد الرسول ﷺ

(١) الإتقان ج١ ص ٥٧.

(٢) مقدمة المصاحف لابن أبى داود.

(٣) المرجع نفسه ص ٥.

والتي تؤكد أن القرآن كله كان مجموعاً على عهد الرسول ﷺ، وأنه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله ﷺ من يكتب له أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا<sup>(١)</sup>.

وأما خوف عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق حين استحر القتل بالقراءة يوم اليمامة فالاستدلال به في غير موضعه، لأن خوفهما زيادة تحر في صيانة القرآن الكريم وحفظه، لأن طريقة أداء هذا المكتوب لا تتأني إلا عن طريق التلقى والرواية، ومن ثم نشأ خوف الخليفين الجليلين من أن يموت القراء فتعثر طريقة الأداء.

وقد حرص العلماء الأقدمون على أن يقوموا بدراسات إحصائية في وقت لم تظهر فيه الآلات الحاسبة. والسبب في هذه الدراسات يكمن في حرصهم البالغ على أن يقفوا على عدد آياته وكلماته بل حروفه. ولا شك أن هذه الألفاظ القرآنية التي حرصوا على عدّها كانت النواة الأولى لظهور معاجم الألفاظ فيما بعد. أما آياته فقد بذلوا في عدّها جهداً كبيراً. قال الداني: اجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية.

والأعجب منذ ذلك أن الدراسات الإحصائية في القرآن الكريم شغلتهم إلى أن يجردوا عقولهم وأعينهم وأيديهم لعد حروف القرآن الكريم، وهي مهمة صعبة قد تعجز عنها الآلات الحاسبة.

فقد أخرج الطبراني عن عمر بن الخطاب مرفوعاً: القرآن ألف ألف حرف فمن قرأه صار محتسباً كان له بكل حرف زوجة من حور العين.

ومن الأحاديث الشريفة التي تنص على ذلك ما أخرجه الترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً: من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «ألم» حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف<sup>(٢)</sup>.

### لماذا وضعت المعجم القرآنية:

السر في وضع هذه المعاجم القرآنية يرجع إلى أن المعاجم القرآنية تأخرت عن غيرها من العلوم القرآنية كالتفسير، وعلوم البلاغة وغير ذلك من العلوم الإسلامية والعربية في تناول المعنى والمبنى، وطريقة الأداء وبيان الأحكام واستنباطها.

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٧.

(٢) انظر هذه النقول في الإتيان ١/ ٩٨.

ويرجع السبب الرئيسي إلى وضع المعاجم القرآنية الدكتور منصور فهى فى تقديمه للمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

فيقول «إن المشتغلين بعلوم القرآن قديما كانوا حفظة لكتاب الله الكريم، فلا يشق عليهم أن يقموا على الآية حين يعرض لهم لفظ من ألفاظها»<sup>(١)</sup>.

ولما اتصل الغرب بالشرق واطلموا على كنوز المعرفة عند المسلمين فى شتى العلوم المختلفة ها لهم ألا يكون للقرآن الكريم صاحب الأثر الكبير على البشرية فهرس يبين ألفاظه فى آياته وسوره بحيث سهل الرجوع بمجرد معرفة الكلمة القرآنية إلى الآية بتمامها، ورقمها فى السورة بحيث يتم ذلك فى ثوان معدودة مما يغنى الدراسين عن تقليب صفحات المصحف ليقموا على الآية ورقمها من خلال السورة التى يحددها هذا المعجم.

ومن إعجاز القرآن الكريم أن يكون أول عمل فى هذا الميدان المعجم الذى وضعه المستشرق الألمانى (فلوجل) المطبوع فى «ليبيك» عام ١٨٤٢م والمسمى كتاب «نجوم الفرقان فى أطراف القرآن».

وقبل أن أتناول المعجم، المكمل وهو موضوع البحث أحب أن ألقى نظرة عامة لأهم المعاجم التى ظهرت فى محيط القرآن الكريم.

### أهم المعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن الكريم:

١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الذى وضعه المرحوم محمد فؤاد عبدالباقي يعتبر بحق أعظم المعاجم التى ظهرت فى القرن العشرين، لأنه بذل فيه مجهودا كبيرا عبر عنه مؤلفه فى مقدمته بقوله: «والله ما أقدمت على وضعه، وإرهاق نفسى، وإضناء جسمى، وإنهاك قواى فى عمله والدؤوب فى ترتيبه، وتنسيقه، وإعادة مراجعته مرات متعددة إلا لما أيقنت من شدة الحاجة إليه، وفقدان ما يسد مسده مما ألف فى بابه»<sup>(٢)</sup>.

✻ ومن أدبه الجم، وأخلاقه العالية، وأمانته العظيمة، ووفائه النادر اعترف بفضل المستشرق الذى سبقه فى وضع معجم ألفاظ القرآن فى وقت مبكر جدا وسماه: «نجوم

(١) انظر تقديم الدكتور منصور فهى للمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(٢) من مقدمة المؤلف.

الفرقان فى أطراف القرآن»، ذلك المستشرق هو (فلوجل) الألمانى الذى طبع لأول مرة عام ١٨٤٢م.

\* لم يدع المرحوم محمد فؤاد عبدالباقى أنه ابتكر معجمه ابتكارا، وأنشأه إنشاء، وأوجده من عدم، ولكنه أرجع الفضل إلى ذويه حينما قال:

«ولما أجمعت العزم على ذلك راجعت معجم فلوجل مادة مادة على معاجم اللغة، وتفاسير الأئمة اللغويين، وناقشت مواده حتى رجعت كل مادة إلى بابها».

ولم أقنع نفسى بذلك بل اخترت من أجلة العلماء، وصفوة الأصدقاء لجنة عرضت عليهم فيها مواده مادة مادة، فما كان بادىء الصحة أقروه، وما خفى عليهم من وجه الصواب فيه فزعنا إلى المعاجم نستوضحها، وإلى التفاسير نستلهمها.

\* ويختتم المرحوم محمد فؤاد عبدالباقى تقديمه بهذه العبارة التى تنم عن ثقة بالنفس، واعتزاز بالعمل وتقدير المبدول بقوله: فلو كان كتاب من عند غير الله أوفر نصيبا من الصحة لكان هذا الكتاب».

\* ولم ينس المرحوم محمد فؤاد عبدالباقى قبل أن يترك مقدمته أن يبين للقارىء الأخطاء التى وقع فيها المستشرق الألمانى، فقدم لنا قائمة تبين الكلمات التى أخطأ فيها «فلوجل» إلى ردها إلى موادها.

والسبب فى هذه الأخطاء يرجع إلى أن «فلوجل» اعتمد فى أرقامه التى يسوقها أمام اللفظة الدالة على رقم الآية من السورة على مصحفه الذى طبعه خصيصا لهذا العمل.

ولما كان عدد آياته غير مستند إلى علم وثيق فقد وقع اختلاف عظيم فى ألوف من المواضع بين مصحفه، ومصحف الملك فؤاد.

### منهج المرحوم فؤاد عبدالباقى فى معجمه:

بين منهج معجمه فى الأمور التالية:

أ- تقعيد القواعد فى ترتيب فروع كل مادة، وحققتها، وحررتها تحريراً بليغاً.

ب - نسخ المعجم من جديد فى أثناء الطبع حيث أضفت إليه تحت كل لفظة رقما يدل على عدد مرات ورودها فى الكتاب الكرىم.

ت - رمز أمام كل آفة مكفة بحرف (ك) وأمام كل آفة مدنية بحرف (م).

ث - الطريقة التى ابتعتها فى ترتيب مواد هذا المعجم هى طريقة الزمخشرى فى «الأساس» والفيومى فى المصباح.

ج - ترتيب أصول الكلمات على حسب أوائلها فثوانيتها، فثالثها، فافتح بمادة (أ ب ب) واختتم بمادة (ى و م).

ح - الابتداء بالفعل المجرى المبنى للمعلوم، ماضيه ومضارعه، وأمره. ثم المبنى للمجهول من الماضى والمضارع، ثم المزيد بالتضعيف، فالمزيد بحرف الخ.

خ - باقى المشتقات من المصدر واسم الفاعل والمفعول. فباقى الأسماء متبعا فى ترتيب كل باب من هذه الفروع نفس الطريقة التى اتبعت فى ترتيب المواد الأصلية وهى ترتيبها أيضا حسب أوائلها، فثوانيتها، فثالثها وهلم جرا<sup>(١)</sup>.

٢- معجم هداية الرحمن لألفاظ آيات القرآن أشرف على تنسيقه وإخراجه الدكتور محمد صالح البنداق من منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت طبع سنة ١٩٨١.

✽ مقدمة هذا المعجم وضعت بين أيدينا عدة معاجم فى مجال القرآن الكرىم وقد أفادنا بوجود معاجم متعددة، يصعب الحصول على بعضها، من هذه المعاجم:

أ- فتح الرحمن لطالب آيات القرآن الكرىم، ترتيب زاده فيض الله الحسنى المقدسى طبع بيروت ١٣٢٣ هـ المطبعة الأهلية.

ب - كشف آيات القرآن لمؤلفه الحاج إبراهيم سورى طبع دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي.

ت - معجم آيات القرآن الكرىم للدكتور حسين نصار، طبع عيسى البابى الحلبي بمصر.

(١) انظر مقدمة: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكرىم.

ث - إرشاد الراغبين في الكشف عن آيات القرآن المبين، وضع محمد منير الدمشقي -  
المطبعة المنيرية سنة ١٣٤٦ هـ.

ج - المرشد إلى آيات القرآن الكريم وكلماته لمحمد فارس بركات دمشق ١٩٦٨ م.

ح - معجم ألفاظ القرآن الكريم «في مجلدين» طبعة مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة  
١٩٧٠ م.

خ - مفتاح كنوز القرآن الكريم لميرزا كاظم بك مع مقدمة باللغة التركية.

د - معجم الألفاظ والأعلام القرآنية لمحمد إسماعيل إبراهيم دار الفكر.

هذه هي معظم المعاجم في القرآن الكريم، وقد أحسن صاحب هداية الرحمن في  
الإشارة إليها في مقدمته مع أن الكثير من طلاب الدراسات القرآنية يجهلونها.

مقارنة بين المعجم لألفاظ القرآن الكريم وبين معجم هداية الرحمن لألفاظ آيات القرآن.

※ الناظر إلى معجم «هداية الرحمن لألفاظ وآيات القرآن» يجد أنه لا يفترق عن المعجم  
لمفهرس لألفاظ القرآن الكريم للمرحوم محمد فؤاد عبدالباقي، بل أستطيع أن أقول: إنه  
نسخة منه طبق الأصل.

※ وقد أقر مؤلف هذا المعجم بأنه استرشد بالمعجم المفهرس للمرحوم فؤاد عبدالباقي.

لهذا أستطيع القول بأن معجم هداية الرحمن سار في درب المعجم المفهرس خطوة  
خطوة وليس هناك فرق إلا فرق التسمية فقط، وإضافة «ك» للمكي، وإضافة «م» للمدني  
ليس جديدا ففي المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ترى هذه الظاهرة تظل بوجهها في  
كل صفحة من صفحاته.

٣- الدليل الكامل لآيات القرآن الكريم تأليف الدكتور حسين محمد فهمي الشافعي نشر  
وزارة الأوقاف المصرية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٩٥ م.

※ يعتبر هذا المعجم أحدث معجم في ألفاظ القرآن الكريم<sup>(١)</sup>.

(١) انظر مقدمة: معجم هداية الرحمن.

\* وبمقارنة هذا المعجم بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريـم نجد أنه يـختلف عن المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريـم فيما يلي:

أ- ترتيب الآيات بالنظر لأولها.

ب- ذكر الآيات كاملة كما وردت في المصحف نظرا للشابه بين كلمات بعض الآيات.

ت- عدم التفرقة بين الهمزة والألف في أى موضع من الكلمة، واعتبارهما حرفا واحدا.

ث- اعتبار «ال» التعريف من صلب الكلمة.

ج- اعتبار الصورة المكتوبة للكلمة، ومراعاتها في الترتيب بصرف النظر عن نطق الكلمة مثل: «هذا» تبحث عنها كالصورة المكتوبة وليس «هاذا».

ح- عدم التفرقة بين المجرد والمزيد، واعتبار الحرف المضعف حرفا واحدا، وليس حرفين مثل «إن» و«أن» نفس الحرف، ولا يبحث عن «إن» في «أن».

خ- التمييز بين «الأ» و«لا» فيبحث عن «الأ» في باب اللام يليها حرف الألف أما لا فتوجد في يباب اللام ألف.

د- الهمزة على نبرة تسبق حرف «الباء» مباشرة مثل: «لثلا» قبل «ياكلوا».

ذ- الهمزة المفردة قبل الواو تسبق حرف الواو مباشرة مثل «جاءوك» قبل «جاوزنا».

والحق أن هذا المنهج مغاير لمنهج المعجم المفهرس تماما، ويعتبر وسيلة سهلة ميسرة للوقوف على الآيات وأرقامها دون عناء وصعوبة، وتيسيره بهذه الصورة يساعد الباحث للوصول إلى ما يريد عند استخدامه.

غير أنه يحتاج إلى مران طويل حتى تعاده النفس، ويصبح أداءه طبيعة في أيدي الباحثين.

٤- مشروع معجم ألفاظ القرآن الكريـم.

قرأت في جريدة الأهرام المصرية بتاريخ ٢١ من أبريل سنة ٢٠٠٠: أن هناك مشروعا لمعجم القرآن الكريـم قام بإعداده الدكتور حسن عز الدين الجمل عضو جماعة تحفيظ القرآن الكريـم بمكة المكرمة.

## وختلاصة حديث المؤلف عن هذا المشروع تتضح فيما يلي:

- \* رتب مواد اللغة بمراعاة ترتيب حروف الهجاء فى أوائل المواد وما يليها.
- \* وهو مكون من ٢٨ مجلدا مرتبة بتسلسل هجائى من حرف الهمزة إلى حرف الباء.
- \* جمع ٥٠٣٣ كلمة قرآنية كما أحصى ١٧٢٩ مادة لغوية.
- \* كتب المعجم خصيصا للنشر الإلكتروني.
- \* يسهل تخزين مواده، واسترجاعها على الحاسب الآلى.
- \* يناشد صاحب المشروع الدولة بأن تتولى طباعة هذا المعجم ليعود بالنفع على المسلمين بعامة وعلى طلاب الدراسات القرآنية بخاصة.
- ٥- هناك معاجم خصصت للموضوعات وهى كثيرة، ولكن نكتفى بأن نذكر واحدا منها حرصا على مساحة البحث وهو:  
المعجم الموضوعى لآيات القرآن الكريم للأستاذ صبحى عبدالرؤف عصر.
- \* وفكرة هذا المعجم نبتت فى ذهن مؤلفه حينما وجد أن كثيرا من الآيات القرآنية تركز على العقيدة، فإذا زالت مظلتها عن المسلم كان الفسق والفجور والعصيان.
- \* ويذكر الباحث أن الله تعالى ألهمه جمعه وترتيبه تحت عناوين ثلاثة رئيسة هى:  
١- أركان الإيمان والإسلام  
٢- التقوى.  
٣- الكفر والفسوق والعصيان.
- \* ويذكر المؤلف أنه حاول أن يبذل جهده فى جمع الآيات المتصلة بالعناوين بطريقة مبتكرة.
- وبعد فهذه جولة حول معاجم القرآن أردت أن أعرضها فى إيجاز ليتبين لنا أن الله تعالى سخر جنوده من العلماء، ليعيشوا فى محراب القرآن الكريم دراسين وباحسين، أما المعجم المكمل لهذه المعاجم، فهو معجم القراءات القرآنية، وسنخصه بمزيد من البحث فى الصفحات التالية.

## معجم القراءات القرآنية

كان لى شرف إعداد هذا المعجم بالاشتراك مع زميلى الدكتور أحمد مختار عمر الأستاذ بكلية دار العلوم.

وقد تولت جامعة الكويت طبع هذا المعجم على نفقتها فى طبعتين، الطبعة الأولى ١٩٨٥ والطبعة الثانية فى ١٩٨٨ وقد اشتمل المعجم فى الطبعتين على ثمانية أجزاء دون الفهارس.

وفى عام ١٩٩٧م تولت طبعه «عالم الكتب» بالقاهرة طبعة ثالثة مع إضافة جزء خاص لفهارس هذا المعجم، ولأن القراءات قد تثير جدلا بين العلماء، وبخاصة القراءات الشاذة قدمنا هذا المعجم إلى «مجمع البحوث الإسلامية» الإدارة العامة بالأزهر ليصدر قراره عن هذا المعجم فجاء القرار بما يفيد: أن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية ولا مانع من طبعه.

وهذا القرار مسجلة صورته على الغلاف الداخلى للمعجم.

وفى مقدمة هذا المعجم بينا توثيق النص القرآنى فى عهد الرسول ﷺ وفى عهدى أبى بكر وعثمان رضى الله عنهما.

وناقشنا قضية تحريق عثمان رضى الله عنه للمصاحف، والإبقاء على المصحف الذى استند على مصحف حفصة رضى الله عنها، ونسخ بكتابة جديدة على أيدى ثقاته كاتبين. وبعد تمحيص دقيق، وتوثيق متكامل كتبت عدة مصاحف. فوجه عثمان رضى الله عنه مصحفا إلى البصرة ومصحفا إلى الكوفة، ومصحفا إلى الشام، وترك مصحفا بالمدينة، وأمسك لنفسه مصحفا.، وهو الذى يقال له: الإمام.

ووجه مصحفا إلى مكة، ومصحفا إلى اليمن، ومصحفا إلى البحرين. ومعنى هذا أن عثمان استوعب بهذا الإرسال للمصاحف معظم الأمصار الإسلامية التى فتحت باسم الإسلام.

وبذلك العمل توج عثمان خلافته بتوثيق النص القرآني حيث جعل مصحفه هو مصحف المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وبعد هذه الجولة في توثيق النص القرآني، والحديث عن المصحف العثماني، نحب أن نلقى نظرة سريعة على نشأة القراءات.

ونشأة القراءات في مقدمة المعجم شغلت مساحات واسعة من هذه المقدمة.

فحديث: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» اختلف العلماء في تفسيره، وتضاربت أقوالهم في معناه، ووصل الخلاف بين العلماء إلى حد أن روى له السيوطي في الإتيقان ٤٠ وجهاً<sup>(١)</sup>.

ولابن قتيبة وللطبري، وأبي حاتم السجستاني، وأبي الفضل الرازي، لهؤلاء جميعاً آراء مختلفة حول هذا الحديث.

وهناك من القراءات ما يسمى بالقراءات السبع، وهي القراءات التي جمعها ابن مجاهد المتوفى ٣٣٤هـ باختياره الخاص فاشتهرت عنه.

والمصحف الذي اشتمل على القراءات السبع تجرد له قوم كما يقول صاحب: إتحاف فضلاء البشر «للاعتناء بشأنه بحيث وجهوا إلى كل مصر نسخة من هذا المصحف، ومعه أئمة مشهورون بالثقة والأمانة في النقل، أفنوا عمرهم في القراءة والإقراء، واشتهر أمرهم، وأجمع أهل العصر على عدالتهم، ولم تخرج قراءاتهم عن رسم مصحفهم.

وهؤلاء القراء السبعة هم:

١- ابن عامر المتوفى ١١٨هـ.

٢- ابن كثير المتوفى ١٢٠هـ.

٣- عاصم أبو النجود المتوفى ١٥٨هـ.

٤- نافع المتوفى ١٦٩هـ.

(١) الإتيقان ج ١ ص ٤٥.

٥- أبو عمرو المتوفى ١٥٧هـ.

٦- حمزة المتوفى ١٨٤ أو ١٨٥هـ.

٧- الكسائي المتوفى ١٨٩هـ.

على أنه لا يفوتنا أن تذكر أنه ليس هناك علاقة بين الأحرف السبعة التي نص عليها الحديث، والقراءات السبع التي يمثلها هؤلاء القراء، لأن حديث الأحرف السبعة التي نص عليها الحديث كان في وقت مبكر على عهد النبي ﷺ، ولم يكن فيه هؤلاء القراء قد وجدوا. وإذا نظرنا إلى هذا الحديث في المقدمة نجد أن له تفسيرات متعددة لا يتسع المقام لذكرها كما قلت ذلك سابقا.

ومن أراد المزيد فليقرأ كتابي: «القراءات القرآنية، وأثرها في الدراسات النحوية»<sup>(١)</sup>.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: إذا وردت قراءة ليست منسوبة إلى أحد هؤلاء القراء السبعة هل تعتبر شاذة، لا يقرأ بها؟

الحقيقة أن ابن الجزرى وضع النقاط على الحروف في هذه القضية حيث وضع مقياسا للقراءة الصحيحة سواء كانت قراءة سبعة أو غيرها.

يقول ابن الجزرى:

«كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين.

وإذا اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن السبعة أم عن من هو أكبر منهم»<sup>(٢)</sup>.

هذا المقياس الذي نص عليه ابن الجزرى يوسع دائرة القراءات الصحيحة ولا يحصرها

(١) نشر مؤسسة الرسالة ص ٥٠ - ٥١.

(٢) النشر في القراءات العشر ج ١ ص ٩.

فى دائرة القراء السبعة، وفى الوقت نفسه لا يسمح للقراءات الشاذة أن تدخل فى هذه الدائرة، لأن مقياس القراءة الصحيحة يعدها عن هذه الدائرة.

## القراءات الثلاث المكملة للعشر؛

وهناك قراءات ثلاث مكملة للعشر وهى ما يأتى:

١- قراءة أبى جعفر: وهو أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومى إمام المدينة النبوية التابعى، توفى ١٣٠هـ.

٢- قراءة يعقوب: وهو أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن إسحاق، توفى ٢٠٥هـ.

٣- خلف: وهو الإمام أبو محمد خلف بن هشام البزار، توفى سنة ١٥٠هـ.

وقد حمل لواء الدفاع عن صحة قراءة هؤلاء القراء الثلاثة، ابن الجزرى حيث ناقش ابن الحاجب الذى كان لا يعترف بقراءة هؤلاء القراء.

ويختم ابن الجزرى حواراه أو مناقشته لابن الحاجب فى صورة استفتاء كتبه لابن السبكي قال فيه:

«وما تقول السادة العلماء أئمة الدين فى القراءات العشر التى يقرأ بها اليوم، هل هى متواترة أو غير متواترة؟ وهل كل ما انفرد به واحد من العشرة بحرف من الحروف متواتر أم لا؟ وإذا كان متواترا فما يجب على من جحدتها أو حرفا منا؟

فأجابنى ومن خطه نقلت:

«الحمد لله» القراءات السبع التى اقتصر عليها الشاطبى، والثلاث التى هى قراءة أبى جعفر، وقراءة يعقوب، وقراءة خلف متواترة معلومة من الدين بالضرورة وكل حرف انفرد به واحد من العشرة معلوم من الدين بالضرورة أنه منزل على رسول الله ﷺ لا يكابر فى شىء من ذلك إلا جاهل، وليس تواتر شىء منها مقصورا على من قرأ بالروايات، بل هى متواترة عند كل مسلم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ولو كان «جلفا لا يحفظ من القرآن حرفا».

ولهذا تقرير طويل، وبرهان عريض لا يسع هذه الورقة شرحه، وحظ كل مسلم وحقه أن يدين لله تعالى، ويجزم نفسه بأن ما ذكرناه متواتر معلوم باليقين، لا تتطرق إليه الظنون، ولا الارتباب بشيء منه، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

### القراءات الأربع الزائدة على العشر:

هذه القراءات الأربع قريبة في الرواية والسند من روايات وإسناد القراءات السبع أو العشر، فإلحاقها بالقراءات السبع أو العشر على شذوذها من ناحية الرواية أو السند هو السبب في إفرادنا لها هذا الحديث في هذا الموضوع وقد أثار صاحب الإنحاف في مقدمة كتابه إلى هذه القراءات من حيث السند والرواية فقال: والحاصل أن السبع متواترة اتفاقاً، وكذا الثلاثة أبو جعفر، ويعقوب وخلف على الأصح، بل الصحيح المختار، وأن الأربعة بعدها: ابن محيصة واليزيدي والحسن والأعمش شاذة اتفاقاً<sup>(٢)</sup>.

- وابن محيصة: أبو عبدالله محمد بن محيصة المكي توفي ١٢٣هـ.

- اليزيدي: هو أبو محمد يحيى المبارك اليزيدي، وتوفي ٢٠٢هـ.

- الأعمش: هو أبو محمد سليمان بن مهران الأعمش وتوفي سنة ١٤٨هـ.

- الحسن البصرى: أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصرى وتوفي ١١٠هـ.

### القيمة الدينية للقراءات القرآنية:

ولا ننسى أن للقراءات فوائد دينية كبيرة.

من هذه الفوائد: أن تبين من دراستها القراءات المتواترة التي نقرأها تعبدًا، والقراءات التي نأخذها في مجال الدراسات الشرعية واللغوية، وهي التي نطلق عليها القراءات الشاذة. ويترتب على هذه المعرفة بروز قضية خطيرة أعلنت عن نفسها في حقل القراءات القرآنية وهي:

هل تجوز القراءة في الصلاة بالقراءات الشاذة؟

لقد دار حوار حول هذه القضية حوار طويل، ونقاش حاد ذكره ابن الجزري في كتابه

(١) النشر ج ١ ص ٤٥ - ٤٦. (٢) إنحاف فضلاء البشر / ٧.

«النشر»<sup>(١)</sup> وعلى الرغم من أن أصحاب الشافعى وأبا حنيفة وإحدى الروایتين عن مالك يجوزون القراءات فى الصلاة بالشاذ فإن أكثر العلماء منعوا القراءة بها فى الصلاة، والصلاة باطلة والسبب فى ذلك أن هذه القراءات لم تثبت متواترة عن النبى ﷺ، وإن ثبت النقل فإنها منسوخة بالعرضة الأخيرة أو بإجماع الصحابة على المصحف العثمانى.

\* ومن القيم الدينية للقراءات أننا أخذنا بها سواء كانت متواترة أو شاذة فى بناء الأحكام الشرعية. ومن الأمثلة على ذلك:

### أ. فى الميراث:

قراءة حفص عن عاصم فى المصحف الذى بأيدينا: ﴿وَأَنَّ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقراها سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه: «وله أخ أو أخت من أم».

فإن القراءة الأولى المتواترة تفسر على أن المراد بالأخوة هنا هم الإخوة للأم بناء على هذه القراءة الشاذة<sup>(٣)</sup>.

### ب. فى العبادات:

غسل الأرجل أو مسحها فى الوضوء وردت فيها قراءة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾<sup>(٤)</sup>.

فقراءة حفص عن عاصم: «وأرجلكم» بالنصب معطوفة على وجوهكم، فتكون الأرجل مفسولة، والجر عطفًا على رءوسكم فتكون الأرجل ممسوحة فبين النبى ﷺ القراءتين، فجعل المسح للابس الخف، والغسل لغيره<sup>(٥)</sup>.

(١) النشر فى القراءات العشر ١٤/ ١٥ - ١٥.

(٢) النساء/ ١٢، وتفسير الكشاف ١/ ٢٥٥، وانظر قراءة رقم ١٤٠٦ فى معجم القراءات.

(٣) البحر المحيط ٣/ ١٩٠.

(٤) المائدة/ ٦.

(٥) الحجة لابن خالويه/ ١٢٩ بتحقيقى.

## ج. في الظواهر الكونية:

هناك قراءات قد تفسر الظواهر الكونية، ففي الآية ٨٦ من سورة الكهف وهي: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجدهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وهي قراءة حفص عن عاصم في المصحف الذي بين أيدينا ومعنى حمئة: أنها مملوءة بالماء والطين من الحمأة.

وقرأها الباقون أي غير عاصم من القراء (في عين حامية)، ويذكرون لهاتين القراءتين قصة وقعت بين معاوية رضى الله عنه، ومجموعة من الصحابة منهم: عبدالله بن عمر وابن عباس، فقد قرأها معاوية: «في عين حامية».

واعترض ابن عباس قائلا: ما نقرؤها إلا «حمئة» فالتفت معاوية إلى عبدالله بن عمر وهو عالم بالقراءات يسأله: كيف تقرؤها؟ فأجاب كما قرأتها يا أمير المؤمنين، وغضب ابن عباس حينما اتهم بالجهل بالقرآن فقال محتجا: في بيتي نزل القرآن.

وحسما للخلاف أرسل معاوية إلى «كعب الأحبار» وكان عالما من علماء اليهود أسلم، وأصبح من كبار التابعين، فقال له معاوية: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فأجاب: فأما العربية فأنتم أعلم بها، وأما أنا فأجد الشمس في التوراة تغرب في ماء وطين، فوافق ابن عباس.

على أننا إذا ألقينا نظرة على معجم القراءات القرآنية القراءة رقم ٤٨٨٠ رأينا أن قراءة «حامية» من القراءات السبع، فقد قرأها ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي<sup>(١)</sup>، ويفسرها ما رواه أبو ذر من أنه كان ردف رسول الله ﷺ، وهو على حمار، فرأى الشمس حين غربت، فقال: يا أبا ذر: أين تغرب هذه؟ فقال أبو ذر: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تغرب في عين حامية، بل ينسب إلى عبدالله بن عمرو نفسه أنه قال: إن رسول الله ﷺ نظر إلى الشمس حين غابت فقال: في نار الله الحامية، ولولا ما يزعها من أمر الله لأحرق ما على الأرض<sup>(٢)</sup>.

د - ومن القراءات القرآنية التي تفسر الظواهر الكونية، وتتفق مع الظواهر العلمية ما ذكره الألوسي في تفسير قراءة: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) الكشف عن وجوه القراءات ٧٤/٢. (٢) تفسير الألوسي ٣١/١٦ - ٣٢ - ٣٣.

(٣) يس/٣٨.

وهى قراءة حفص عن عاصم فى المصحف الكرىم الذى بين أيدىنا.  
وتناول الأوسى تفسير هذه القراءة السبعة قائلا: تجرى لمستقرها تحت العرش، فالمستقر:  
اسم مكان والظاهر أن للشمس فى قرارا حقيقة.  
قال الواحدى: وعلى هذا القول إذا غربت الشمس كل يوم استقرت تحت العرش إلى أن  
تطلع.

وساق ابن حجر فى فتاويه جملة من الأخبار تتعلق بالموافقة على هذا التفسير. على أن  
هذا التفسير لم يقتنع به أئمة آخرون، لهم وزنهم العلمى والدينى ومكانتهم فى عالم التفسير  
والعلوم الإسلامىة، وعلى رأس هؤلاء إمام الحرمىن فقد ذكر أن لا خلاف فى أنها تغرب  
عند قوم، وتطلع على آخرىن، والليل يطول عند قوم، ويقصر عند آخرىن. وهناك أماكن تكون  
فىها السنة نصفها ليل ونصفها نهار. والأدلة قائمة على أنها لا تسكن عند غروبها وإلا لكانت  
ساكنة عند طلوعها بناء على أن غروبها فى أفق وطلوعها فى أفق آخر.

وأىضا هى قائمة على أنها لا تفارق فلکها، فكيف تطلع من سماء إلى سماء حتى تصل  
العرش؟

وقد وقف الأوسى حائرا فى حل هذه المشكله حتى قال: وقد سالت كثيرا من أجلة  
المعاصرىن عن التوفىق بىن ما سمعت من الأخبار الصحىحة، وبنى ما يقتضى خلالها من  
العبان والبرهان فلم أوفق لأن أفوز بما يروى الغلبىل وىشفى العلبىل<sup>(١)</sup>.

رحم الله الأوسى فقد كان السبع منه على ضربة معول فلم يضربها، وفى رأى أن  
الأوسى لو نظر إلى القراءة الأخرى التى تفسر هذه القراءة، والقراءات يفسر بعضها بعضا  
لما وقع فى هذه الحيرة، فهناك قراءة أخرى وهى: ﴿والشمس تجرى لا مستقر لها﴾ وهى قراءة  
تنفق مع العلم الحدىث والعلوم الفلكىة وقد قرأ بها ابن مسعود وابن عباس، وعكرمة وعطاء  
بن أبى رباح. انظر قراءة رقم ٧٣٠٠ فى معجم القراءات.

وتنسجم مع النظرىات العلمىة التى تؤكد أن الشمس والنجوم والكواكب والأقمار كلها

(١) تفسير الأوسى ج ١٢/٢٣ - ١٣.

متحركات، لأنها تدور حول نفسها تارة، وحول غيرها تارة أخرى، وهذا ما نجد في النص القرآني نفسه في هذا الموضع بعينه ﴿ لا الشمسُ ينبغي لها أن تدرِكَ القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ وكلُّ في فلكٍ يسبحون ﴾ (١).

هـ والقراءة توضح الإشكالات التفسيرية:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ (٢).

قرأ الكسائي: «هل تستطيع» بالياء «ربك» نصب أى هل تقدر يا عيسى أن تسأل ربك، لأنهم كانوا مؤمنين، وكانت عائشة تقول: كان القوم أعلم بالله من أن يقولوا: ﴿ هل يستطيع ربك ﴾ (٣) إنما قالوا هل يستطيع ربك وحجته قوله قبلها: ﴿ وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا ﴾ والله تعالى سماهم حواريين، ولم يكن الله ليسمهم بذلك وهم برسالة رسوله كفره.

قال أهل البصرة: المعنى هل يستطيع سؤال ربك، فحذف السؤال، وألقى إعرابه على ما بعده فنصبه كما قال: ﴿ وأسأل القرية ﴾ (٤).

وقرأ الباقون: هل يستطيع بالياء ربك، أى هل يستطيع لك ربك إن سألته ذلك؟ كما يقول القائل لآخر: أتستطيع أن تسعى معنا فى كذا؟

وهو يعلم أنه على ذلك قادر، ولكن يريد السعى معنا فيه، وإنما أرادوا بذلك أن يأتيهم بآية يستدلون بها على صدقه، وحجته قول عيسى لهم: «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين» استعظاما لما قالوه، فقالوا: نريد أن نأكل منها (٥).

## القراءات والمعجم:

من حق القارئ أو الباحث أن يسأل: هل القراءات القرآنية تحتاج إلى معجم؟

(١) يس: ٤٠. (٢) المائدة/ ١١٢.

(٣) المائدة/ ١١١. (٤) يوسف/ ٨٢.

(٥) الحجّة لأبى زرعّة / ٢٤٠ - ٢٤١.

أ - نعم تحتاج إلى معجم، لأن هذه القراءات يصعب جمعها، ويتعسر تتبعها في كتب التفاسير وكتب التراث.

وأحياناً نجد بعض القراءات لها مصادر متعددة، وقراء كثيرون، وبعضها لا نجد له إلا مصدراً واحداً فمن ذلك مثلاً:

\* قراءة: يَخْرُجُ، في النص المصحفي: يُخْرِجُ آية ٦١ سورة البقرة مسلسل ١٩٠، هذه القراءة لا نجد لها إلا قارئاً واحداً وهو زيد بن علي، ومصدراً واحداً وهو الفخر الرازي.

\* ومن ذلك آية ٦١ من سورة البقرة مسلسل ١٩٢: «تَنبَتُ» قرئت: تَنبَتُ بفتح التاء وضم الباء، لا نجد لها إلا قارئاً واحداً وهو زيد بن علي ومصدراً واحداً وهو الفخر الرازي ٣٦٥/١.

\* ومن ذلك: والمسجد الحرام بجر المسجد، البقرة ٢١٧ مسلسل ٦٤٦.

قرئت: والمسجدُ الحرامُ بالرفع فيهما. لا نجد لها قارئاً، ولها مصدر واحد وهو البحر ١٤٧/٢.

\* ومن ذلك: فرجالاً أو ركباناً البقرة ٢٣٩ مسلسل ٧٢٤، قرئت: فرجالاً فركبناً، ليس لها إلا قارئ واحد وهو بديل بن ميسرة، ومصدر واحد وهو البحر ٢٤٣/٢.

\* ومن ذلك: «وَسِعَ كَرْسِيَهُ» البقرة ٢٥٥ مسلسل ٧٧٠ قرئت وَسَع، قارئها مجهول، ولها مصدران فقط: الإملاء للعكبري ١/٦٢، والبحر ٢/٢٧٩.

\* ومن ذلك: «أُوْتِمِنَ» - البقرة ٢٨٣ مسلسل ٨٩٢ قرئت: أُوتُمِنَ قارئها مجهول، ومرجعها الإنحاف فقط/١٦٧.

\* ومن ذلك «ذائِقَةُ الموت» آية ١٨٥ آل عمران مسلسل ١٣٢١ قرئت: ذائِقَةُ الموتُ قارئها مجهول، ولها مرجع واحد، إملاء ما من به الرحمن للعكبري ١/٩٤.

ب - وتحتاج القراءات القرآنية إلى معجم، لأن كثيراً من القواعد النحوية لها ارتباطات بالقراءات والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

١- إن المخففة من الثقبلة تعمل النصب في الاسم بقراءة من قرأ: ﴿وإن كلاً لما ليوقينهم ربك أعمالهم﴾ (١) في قراءة من قرأ بالتخفيف، وهي قراءة نافع وابن كثير (٢).

٢- وقوع الفعل الماضي حالاً. يذهب الكوفيون إلى أن الفعل الماضي يجوز أن يقع حالاً، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصْرَتٌ صُدُورُهُمْ﴾ (٣)، ف «حصرت» فعل ماضٍ، وهو في موضع الحال، وتقديره: حصرة صدورهم. والدليل على صحة هذا التقدير قراءة من قرأ: أو جاؤكم حصرة صدورهم، وهي قراءة الحسن البصرى، ويعقوب الحضرمى، والمفضل عن عاصم (٤).

٣- إعمال إن النافية. أجاز أعمالها الكسائى وأكثر الكوفيين لقراءة سعيد بن جبير: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عبادةً أمثالكم﴾ (٥) (٦).

٤- قراءة: الحمد لله بضم اللام. الكوفيون اجتهدوا في تأييد هذه القراءة لمناسبة الإتيان. قال يوهان فك: «وعلى النقيض من ذلك البصريون الذين عابوا هذه القراءة بحجة أنها سقطت من الاستعمال تماماً، وأنها مخالفة للقواعد، ومصطدمة بالإعراب» (٧).

هذه طائفة من المسائل التي اختلف فيها البصريون والكوفيون في مجال القراءات، وهي غيضة من فيض، وقليل من كثير ذكرت بعضها لتكون دليلاً يؤيد ما أقول من أن القراءات أثرت في النحو العربى البصرى والكوفى تأثيراً كبيراً.

ج- والقراءات تحتاج إلى معجم، لأن كثيراً من هذه القراءات مرجعها إلى اللغات أو اللهجات، من ذلك:

١- قراءة: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (٨) «تخفيف» ودع» وهي قراءة عروة بن الزبير،

(١) هود/ ١١١. (٢) الإنصاف ١/ ١٩٦.

(٣) النساء/ ٩٠. (٤) الإنصاف ج١ ص ٢٥٤- ٢٥٥.

(٥) الأعراف/ ١٩٤.

(٦) همع الهوامع ١١٦/٢ بتحقيقى.

(٧) العربية: يوهان فك ص ٣٢.

(٨) الضحى/ ٣.

وأبو حيوة، وابن أبي عجلة. قال الإمام المرتضى الزبيدي مدافعا عن هذه القراءة الشاذة بقوله: «قد قرأها النبي ﷺ هكذا، وجاء الحديث: «ليتهين أقوام عن ودعهم الجماعات أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين».

قال الزبيدي: قولهم: وقد أميت عبارة أئمة الصرف قاطبة: وأكثر أهل اللغة وينافيه ما يأتي بأثره من وقوعه في الشعر، ووقوع القراءة به، فإذا ثبت ورود ولو قليلا، فكيف يدعى فيه الإمامة<sup>(١)</sup>.

٢- النصب بـ «لم».

حكى اللحياني عن بعض العرب أنه ينصب بـ «لم» قال ابن مالك في «شرح الكافية» زعم بعض الناس أن النصب بـ «لم» لغة اغتراراً بقراءة بعض السلف: «ألم نشرح لك صدرك» بفتح الحاء، وقول الراجز:

في أى يومى من الموت أفر  
أيوم لم يقدرَ أم يوم قدر

قال ابن مالك: وهو عند النحويين محمول على أن الفعل مؤكد بالنون الخفيفة، ففتح لها ما قبلها ثم حذفت ونويت.

وابن مالك في قوله هذا لم يكن موقفا، فاحتمال التأويلات البعيدة، والتخريجات التي لا تقوم على سند، أمر يعسر النحو، ويضيق مسالكه.

والأمر في هذه القراءة واضح، وهو أن بعض العرب ينصب بـ «لم» كما حكى اللحياني، على أن الأشموني نقد ابن مالك في قوله هذا، فقال ناقدا تأويل ابن مالك وتخريجه، وفيه شذوذان:

أ- توكيد المنفى بـ «لم».

ب- حذف النون لغير وقف ولا ساكنين<sup>(٢)</sup>.

(١) تاج العروس ج ٥ ص ٥٢٤ - ٥٢٥.

(٢) شرح الأشموني ٨/٤.

د - والقراءات نحتاج إلى معجم، لأن كثيراً من الأساليب نرميها بالبعد عن العربية ولها ما يسندها من القراءات القرآنية، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

١- الفعل: «توفى» ففى اللسان؟ و«فى» يقال: توفى فلان، وتوفاه الله إذا قبض نفسه، ومن هنا كان الفعل «توفى» مبنياً للمجهول دائماً فى اللغة الفصحى.

جاءت القراءة القرآنية مصححة للنطق الحديث، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَىٰ﴾<sup>(١)</sup> فقد قرأها الأعمش «ومنك من يتوفى» بالبناء للمعلوم.

٢- الفعل «هرع» فى كتب اللغة مبنى للمجهول دائماً، ومضارعه «يهرع» فإذا قيل: إن فلانا هرع بالبناء للمعلوم، قالوا: إن ذلك خطأ، ولكن من القراء من قرأ ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾<sup>(٢)</sup> بالبناء للمعلوم.

ومن أجل هذه القراءة لا نخطئ من قال: «يهرعون» بفتح الياء للبناء للمعلوم<sup>(٣)</sup>.

إلى هنا ننهى الحديث عن الحاجة إلى معجم القراءات، معجم يلم شتاتها، ويجمع متفرقاتها باستخراجها من بطون المصادر المخطوطة والمطبوعة.

ويعتبر بحق أول معجم فى القراءات القرآنية لم يسبقنا إليه أحد، ولفائدته الكبيرة تلقفته الأيدي بعد صدوره فى الطبعات الثلاث.

ومن حق القارئ أو الباحث أن يعرف خطتنا ومنهجنا فى إعداد هذا المعجم، فنقول:

### خطة إعداد المعجم فى إيجاز:

١- قدمنا بين يدي المعجم دراسة تفصيلية للقراءات القرآنية، وأشهر القراء.

٢- رتبنا القراءات على حسب ترتيب المصحف، متخذين قراءة حفص أساساً.

(١) الحج/ ٥ - معجم القراءات القرآنية رم ٥٥١٧.

(٢) هود/ ٧٨ وانظر معجم القراءات قراءة رقم ٣٦٣٧.

(٣) انظر بحث «القيمة اللغوية للقراءات القرآنية» فى كتاب الموسم الثقافى لجامعة الكويت ص ٥٤ للدكتور أحمد مختار عمر.

٣- أعطينا رقما مسلسلا لكل موضع قراءة، ويستمر التسلسل حتى نهاية المعجم.

٤- أعطينا أرقاما داخلية للقراءات حين تتعدد فى الموضع الواحد.

٥- ذكرنا أمام كل قراءة اسم من قرأ بها، والمصدر الذى وردت فيه هذه القراءة.

٦- اعتمدنا فى جمع القراءات على عشرين مصدرا أساسيا (أعدنا بها قائمة خاصة

ورمزنا لكل منها برمز).

٧- إذا وجدنا قراءات فى غير هذه المصادر العشرين أثبتناه إما فى الحواشى أو فى موضعه

من تسلسل المصحف دون إن تدخل هذه القراءة فى التقييم وميزناها برمز نجمة \* قبلها.

٨- حرصنا عند ذكر أسماء القراء أن نبدأ بأسماء القراء السبعة، ثم نذكر باقى القراء دون

ترتيب.

٩- مراجع هذا المعجم تنقسم إلى ثلاثة أقسام هى:

(١) مراجع المقدمة، وقد أعدت لها قائمة خاصة بها.

(٢) المصادر الأساسية، وهى الكتب التى وقع اختيارنا عليها لتفريغ مادتها تفريفا كاملا.

**وقد راعينا فى هذه المصادر أن تحقق ما يأتى:**

أ- أن تشمل على المصادر الأساسية للقراءات، وشمل ذلك القراءات السبع والعشر،

والأربع عشرة والشاذة.

ب- أن تشمل على المصادر الأساسية فى التفسير وإعراب القرآن.

ت- أن تضم بعض مؤلفات الشيعة فى التفسير.

ث- أن تضم بعض المؤلفات التى اهتمت بجانب الأداء والنطق مثل غيث النقع

للفصافسى وإتحاف فضلاء البشر للدمياطى.

(٣) مراجع التوثيق والتدقيق، وقد ضمت مؤلفات أخرى فى القراءات والتفسير كما

ضمت عددا كبيرا من المعاجم وكت الأدب، والنحو واللغة.

١٠- استخدمنا لفظ «القارئ» في العمود الخامس من المعجم بمعناه العام الواسع، ولذا أدخلنا تحته كل من نسبت القراءة إليه، ويشمل ذلك القراء الأصليين، ومن حدثوا بالقراء وإن لم يقرءوا بها.

١١- ساوينا بين القراءات في الذكر، ولم نميز بين المتواتر منها والشاذ.

١٢- إن معيارنا في قبول القراءة أو رفضها معيار لغوي صرف.

١٣- كثير من القراءات التي رميت بالشذوذ منسوبة إلى أبي بن كعب، وعبدالله بن مسعود، فكيف نستبعدها لغويا مع ما رواه البخاري أن الرسول ﷺ قال: خذوا القرآن عن أربعة، ذكر من بينهم ابن مسعود، وأبي بن كعب.

١٤- إنه لا يصح تعميم الحكم على القراءات المسماة الشاذة، بعد أن ثبت خضوع كثير منها لشروط القراءة الثلاثة (موافقة المصاحف العثمانية ولو احتمالا - موافقة العربية ولو بوجه - صحة السند واتصال الرواية، بل أكثر من هذا يرى ابن جنى أن ما سمي بالشاذ «نازع بالثقة إلى قرائه، محفوف بالرواية من أمامه وورائه، ولعله أو أكثر منه مساو في الفصاحة للمجتمع عليه»<sup>(١)</sup>.

١٥- أعددنا جزدا خاصا بالفهارس الآتية:

فهرس الألفاظ وراعينا فيه القواعد الآتية:

أ- ذكرنا الألفاظ التي تعددت القراءة بها حسب ما جاء في عمود النص المصحفي.

ب- أوردنا الألفاظ بالرسم الحديث، وليس برسم المصحف.

ت- وضعنا الألفاظ تحت جذورها، ورتبت الجذور ألفائيا.

ج- الرقم الموجود بعد اللفظ يشير إلى الرقم المسلسل الموجود في العمود الأول من المعجم.

١٦- فهرس الأعلام.

١٧- فهرس الظواهر اللغوية وتشمل ما يأتي:

- التحقيق - التسهيل - الحذف - الإبدال - القطع - الوصل - المد - التقصر.

(١) انظر المحتسب ج ١ ص ٣٢.

١٨- أعددنا فهرسا لاختلاف الصيغ ويشمل ما يأتي:

الفعل المضارع - الأفراد والثنية والجمع - الفتح - الكسر - الضم - السكون - المصدر - اسم المصدر - المشتق - المبنى للمعلوم - المبنى للمجهول.

١٩- فهرس الإدغام بنوعيه الصغير والكبير.

٢٠- فهرس: التضخيم - الترفيق - التخليط.

٢١- فهرس المد والتوسط والقصر.

٢٢- فهرس الاختلاس.

٢٣- فهرس الإتمام.

٢٤- فهرس الروم.

٢٥- فهرس الإشمام.

٢٦- فهرس النقل.

٢٧- فهرس السكت.

٢٨- فهرس الإنباع.

٢٩- فهرس نونى التوكيد.

٣٠- فهرس الأسلوب الخبرى والاستفهامى.

٣١- ياءات الإضافة - ياءات الزوائد.

٣٢- الزيادة والنقص.

٣٣- الاختلاف فى الإعراب.

وقبل أن نهى الحديث عن معجم القراءات يمكنى أن أقول: إن هذا المعجم من الممكن أن تشتق منه معاجم فرعية أخرى.

من ذلك على سبيل المثال:

١- معجم الظواهر النحوية:

وتشمل الكلمات التى اختلف إعرابها بين النحويين، ولو نظرت إلى ص ٢٨٩ من جزء

الفهارس لوجدت أن هذه الظاهرة تكون معجماً كبيراً فسورة البقرة وحدها تحتوي على ١٠٨ ظاهرة نحوية.

٢- معجم اختلاف الصيغ، وهو باب مهم في اللغة يلقي الضوء على كثير من الصيغ العربية. ففي سورة البقرة وحدها ما يقرب من ٣٤٨ صيغة.

٣- معجم قراءة ابن مسعود، فقراءة عبدالله بن مسعود لها باع طويل في التفسير وفي الأحكام الشرعية. والمتبع لقراءة عبدالله بن مسعود يجد أنها شغلت صفحات متعددة من فهرس الأعلام، انظر ص ١٤٩ ١٥٠ - ١٥١.

وإلى هنا نختم الحديث عن المعاجم القرآنية وأذكر أن الذين سبقونا في هذا المضمار بذلوا كل ما في وسعهم للحفاظ على لغة القرآن الكريم، وقدموا في سبيلها كل ما يملكون من جهد وعرق وكفاح ونضال لتبقى للقرآن الكريم لغته صافية ومشرقة، وأذكر في هذا الموقف نصاً قرأته في مجلة المجمع اللغوي بالقاهرة هزني هزاً عتيماً لأنه أثار إعجابي بعلمائنا الذين سبقونا وخلاصة هذا النص:

أن الخطيب التبريزي وهو من رجال القرن السادس الهجري وجد نسخة من كتاب التهذيب في اللغة لأبي منصور الأزهرى في عشرة مجلدات، وجدها في سوق الوراقين بمدينة تبريز فاشتراها، ثم سأل عن شيخ قدير حتى يدرس عليه ذلك الكتاب القيم، فدلوه على العلامة أحمد بن سليمان المعري في معرة النعمان، فشد إليه الرحال ووضع الكتاب في مخلاة، وسافر في صحبة القافلة من تبريز إلى معرة النعمان، والكتاب كان محمولاً على ظهره في تلك الرحلة الطويلة، وكان ذلك في زمن الصيف مما سبب خروج العرق من جسم الخطيب التبريزي إلى أن نفذ على غلاف ذلك الكتاب وقد بقي أثر العرق على تلك النسخة إلى أن اطلع عليها شمس الدين أحمد بن خلكان: وقال عنها «ولقد رأيت نسخة من كتاب التهذيب في اللغة العربية، وعليها عرق الخطيب التبريزي»<sup>(١)</sup>.

رحم الله هؤلاء العلماء الذين حافظوا على التراث العربي والإسلامي حتى وصل إلينا معافى من كل سوء، سليماً من كل تحريف، وهذا من فضل الله تعالى على لغة كتابه، الذي تكفل بحفظه إلى يوم القيامة.

(١) انظر البحوث والمحاضرات، مؤتمر ١٩٦١ - ١٩٦٢ الذي أقامه مجمع اللغة العربية ص ٢٠٧.

## مصادر البحث ومراجعته

- ١- الإلتقان فى علوم القرآن: جلال الدين السيوطى - مطبعة الحلبي.
- ٢- إنحاف فضلاء البشر للدمايطى - مخطوط رقم ٧٣ - قراءات - دار الكتب.
- ٣- الإنصاف فى مسائل الخلاف - ابن الأنبارى - تحقيق محيى الدين - مطبعة السعادة.
- ٤- بغية الوعاة - جلال الدين السيوطى - مطبعة السعادة - طبعة أولى.
- ٥- تاج العروس للزبيدى - المطبعة الوهيبية.
- ٦- تفسير الألوسى - طبع دار إحياء التراث العربى - بيروت - لبنان.
- ٧- تقييد العلم - الخطيب البغدادي تحقيق يوسف العشى طبع دمشق ١٩٤٩م.
- ٨- الجمهرة - لابن دريد - طبعة بالأوفست - دار صادر - بيروت.
- ٩- الحجة لابن خالويه: تحقيق د/ عبدالعال سالم مكرم - عدة طبعات.
- ١٠- الحجة لأبى زرعة - تحقيق الأستاذ سعيد الأفغانى - نشر جامعة بنغازى - طبعة أولى.
- ١٣- شرح الأشمونى - مطبعة الحلبي.
- ١٤- صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام - للسيوطى - مطبعة السعادة.
- ١٥- العربية - يوهان فك - ترجمة المرحوم الدكتور عبدالحليم النجار - طبع دار الكتاب العربى.
- ١٦- العين للخليل بن أحمد - القسم المطبوع منه.
- ١٧- القراءات القرآنية وأثرها فى الدراسات النحوية - د/ عبدالعال سالم مكرم - مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ١٨- الكشاف - الزمخشري - مطبعة الاستقامة.
- ١٩- الكشاف عن وجوه القراءات لأبى محمد مكى بن أبى طالب تحقيق د/ محيى الدين رمضان. مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق.

٢٠- المحنّسب فى تبیین وجوه القراءات الشاذة- ابن جنى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٢١- المزهر - جلال الدين السيوطى - الحلبى.

٢٢- المعاجم العربية - الدكتور عبدالسميع محمد أحمد - نشر دار الفكر العربى.

٢٣- معجم القراءات - الدكتور أحمد مختار - والدكتور عبدالعال سالم مكرم - عدة طبعات.

٢٤- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - المرحوم فؤاد عبدالباقى.

٢٥- معجم هداية الرحمن لألفاظ آيات القرآن - منشورات - دار الأفاق الجديدة - بيروت.

٢٦- مقدمتان فى علوم القرآن - تحقيق أرثر جفرى - مطبعة السنة المحمدية.

٢٧- الموسم الثقافى - جامعة الكويت.

٢٨- النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى - نشر دار الكتب العلمية - بيروت.

٢٩- نظرة تاريخية فى حركة التأليف عند العرب د/ أمجد الطرابلسى - نشر دار الفتح - دمشق .

٣٠- النقد واللغة فى رسالة الغفران د/ أمجد الطرابلسى - مطبعة الجامعة السورية.

٣١- همع الهوامع - جلال الدين السيوطى - تحقيق د/ عبدالعال سالم مكرم فى سبعة أجزاء

- مؤسسة الرسالة الجزء الأول - تحقيق المرحوم الأستاذ عبدالسلام هارق، ود/ عبدالعال

سالم مكرم وبقية الأجزاء - تحقيق الثانى.

## الفهرس

## الصفحة

- تقديم ٣
- ١ - القراءات السبع والأحرف السبعة. ١٧-٥
- ٢ - من دراسات المستشرقين حول القرآن الكريم. ٢٦-١٨
- ٣ - جوانب من أخطاء المستشرقين في الدراسات القرآنية. ٣٧-٢٧
- ٤ - تفسير الكشاف للزمخشري : مصدره ومنهجه من خلال الدراسات النحوية. ٥٢-٣٧
- ٥ - غريب القرآن الكريم بين اللهجة القرشية واللهجات العربية. ٦٦-٥٣
- ٦ - قضية الكلمات الأعجمية في القرآن الكريم. ٨٢-٦٧
- ٧ - الشواهد الشعرية وغريب القرآن الكريم. ٩٥-٨٣
- ٨ - أدوات المفسر. ١٠٦-٩٦
- ٩ - تفسير القرآن بالقرآن. ١١٨-١٠٧
- ١٠ - نظرات في غريب القرآن الكريم. ١٣٢-١١٩
- ١١ - تفسير غريب القرآن الكريم في ضوء الحديث الشريف. ١٤٩-١٣٣
- ١٢ - القراءات في ضوء الدراسة والبحث. ١٧٠-١٥٠
- ١٣ - أثر القرآن الكريم في تطوّر اللغة العربية ونشرها بين المسلمين. ١٨٢-١٧١
- ١٤ - حول نسبة كتاب الحجّة في القراءات السبع لابن خالويه - نقد النقد. ٢٠١-١٨٣
- ١٥ - أضواء على المعاجم القرآنية ٢٣٥ - ٢٠٢



أ- دراسات قرآنية:

- ١- معجم القراءات القرآنية بالاشتراك - تسعة أجزاء.
- نشر جامعة الكويت - طبعة أولى ١٩٨٢ - طبعة ثانية ١٩٨٨ - طبعة ثالثة - عالم الكتب ١٩٩٧ - طبعة مفهرسة.
- ٢- القرآن الكريم وأثره فى الدراسات النحوية:  
طبعة أولى دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٨ - طبعة ثانية مؤسسة الصباح بالكويت ١٩٧٨ م  
طبعة ثالثة - المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ١٩٩٦ م.
- ٣- القراءات القرآنية وأثرها فى الدراسات النحوية:  
طبعة أولى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة.  
طبعة ثانية - مؤسسة الصباح بالكويت - طبعة ثالثة - دار الرسالة - بيروت ١٩٩٦ م.
- ٤- قضايا قرآنية فى ضوء الدراسات اللغوية - دار الرسالة - بيروت.
- ٥- من الدراسات القرآنية: مؤسسة الصباح بالكويت. تحت الطبع طبعة ثانية - عالم الكتب بالقاهرة.
- ٦- اللغة العربية فى رحاب القرآن الكريم - عالم الكتب - طبعة أولى ١٩٩٥ م.
- ٧- غريب القرآن فى عصر الرسول والصحابه والتابعين - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٦ م.
- ٨- الكلمات الإسلامية فى الحقل القرآنى . نشر مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٦ م.
- ٩- المشترك اللفظى فى ضوء غريب القرآن الكريم - طبعة أولى - جامعة الكويت ١٩٩٤ .  
طبعة ثانية مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٩٦ م.
- ١٠ الترادف فى ضوء غريب القرآن الكريم تحت الطبع - مؤسسة الرسالة - بيروت.

## ب- دراسات إسلامية:

- ١١- الفكر الإسلامى بين العقل والوحى - طبعة أولى - دار الشروق بيروت والقاهرة - طبعة ثانية: مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ١٢- من الدراسات الإسلامية طبعة أولى - مؤسسة الصباح بالكويت. تحت الطبع طبعة ثانية - عالم الكتب بالقاهرة.
- ١٣- أثر العقيدة فى بناء الفرد والمجتمع - دار الرسالة - بيروت.

## ج- دراسات نحوية ولغوية:

- ١٤- المدرسة النحوية فى مصر والشام فى القرنين السابع والثامن من الهجرة. طبعة أولى - دار الشروق - بيروت والقاهرة - طبعة ثانية مؤسسة الرسالة - بيروت.
- ١٥- الحلقة المفقودة فى تاريخ النحو العربى - طبعة أولى : مؤسسة الوحدة للنشر - الكويت. طبعة ثانية مزيدة ومنقحة - دار الرسالة - بيروت.
- ١٦- شواهد سيويه من المعلقات فى ميزان النقد - دار الرسالة - بيروت.
- ١٧- التعريب فى التراث اللغوى: مقاييسه وعلاماته - طبعة أولى ذات السلاسل بالكريت تحت الطبع طبعة ثانية - عالم الكتب بالقاهرة.
- ١٨- ظواهر لغوية من المسيرة التاريخية للعربية قبل الإسلام - دار الرسالة - بيروت.
- ١٩- جلال الدين السيوطى وأثره فى الدراسات اللغوية - دار الرسالة - بيروت.
- ٢٠- تطبيقات نحوية وبلاغية: أربعة مجلدات - دار البحوث العلمية بالكويت. وعدة طبعات بمؤسسة الرسالة - بيروت.
- ٢١- تدريبات نحوية ولغوية فى ظلال النصوص القرآنية. مؤسسة الرسالة - بيروت - عدة طبعات.

\*\*\*

## ثانياً التحقيق:

- ٢٢- تحقيق همع الهوامع لجلال الدين السيوطى - سبعة مجلدات. نشر دار البحوث العلمية بالكويت - ومؤسسة الرسالة - بيروت - عدة طبعات.
- ٢٣- تحقيق الأشباه والنظائر فى النحو لجلال الدين السيوطى - تسعة مجلدات . دار الرسالة - بيروت.
- ٢٤- تحقيق الدرر اللوامع على همع الهوامع للشنقيطى - سبعة مجلدات مؤسسة الرسالة - بيروت - عدة طبعات.
- ٢٥- الحجة فى القراءات السبع لابن خالويه: أربع طبعات بدار الشروق - بيروت والقاهرة، وطبعة خامسة - دار الرسالة - بيروت.
- ٢٦- شرح تصريف العزى لمسعود بن عمر التفتازانى - طبعة أولى ذات السلاسل بالكويت طبعة ثانية ١٩٩٧ - المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة.
- ٢٧- شرح الرضى على كافية ابن الحاجب فى سبعة أجزاء - نشر عالم الكتب القاهرة.

\*\*\*

رقم الإيداع : ٢٠٠٠ / ١٤٧١٧

I.S.B.N : الترقيم الدولي :

977 - 232 - 229- 3

إفراوق الخديفة الطبعة والنشر هاتف: ٤٣٧٥٢٦-٢٠٥٥٦٨٨ القاهرة